صفحات من تاريخنا المعاصر ٥

مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان

محمد سرور زين العابدين

الجزء الأول

دار الجابية
لندن - بريطانيا

مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١١٥٤٠ / ٢٠١٢م

مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١١٥٤٠ / ٢٠١٢م

دار الجابية

لندن - بريطانيا

DAR AL-JABIA

P.O.Box : 508 London UB5 9GF

daraljabia@gmail.com

صفحات من تاريخنا المعاصر ⑤

مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان

محمد سرور زين العابدين

الجزء الأول

دار الجابية
لندن - بريطانيا

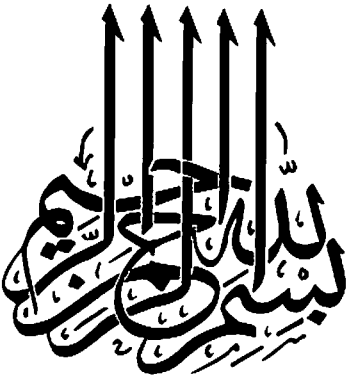
بسم الله الرحمن الرحيم

مَـلَكْـنَـا فـكـان الـعَـدل مـنـا سـجـيَّـة
فـلمـا مَـلَكْـتـم سَـال بـالـدم أَبْـطـح
وحَـــلَّلْتـم قـتـل الأُسَـــارىٰ وطَـالـمـا
عَـدَوْنـا عـلىٰ الأَسْـرىٰ نَـمُـنُّ ونَـصـفـح
فَـحَـسْـبُـكـــم هـــذا الـتـفـاوت بـيـنـنـا
فـكـلٌّ إنـاء بـالـذي فـيـه يَـنـضـح

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعدُ:

عام ١٩٨٦ صدرت الطبعة الأولى من كتابي «**أمل والمخيمات الفلسطينية**»، وهو تغطية لأخبار المجزرة التي ارتكبتها حركة أمل ومعها جمهور الشيعة في لبنان، وبدعم ومساندة [ن.ب.س]،[1] وقد نفذت هذه الطبعة خلال أقل من عام؛ لأنّ لغة الخطاب في الكتاب كانت صريحة، وقد سميتُ الأمور بأسمائها دون غموض أو تورية، فضلاً عن كونه الكتاب الوحيد الذي تعرض لوصف المجزرة من منظور إسلامي، لأنّ بعض أعلام الدعوة لا يريد أن يستخدم اللغة الطائفية فيما يكتب أو يحاضر حتى لو دُمّرت مدن وأحياء ومخيمات، وارتُكبت فيها مذابح وحشيّة يشيب من هولها الأطفال، فهنيئاً للموارنة والشيعة والنصيرية والدروز بهذه الفلسفة السقيمة. إني أتفهّم أن يطلب هؤلاء من المسلمين أن يُحسنوا التعامل مع أبناء الطوائف الأخرى، وألا يعتدوا عليهم أو يتحرشوا بهم.. فمثل هذه المطالب مشروعة، وقد أمر بها ديننا، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قدوة

---

(١) أي النظام الباطني السوري، وحاشا لله أن يكون الشعب السوري هو الذي قام بهذه الاعتداءات.

حسنة في تعاملهم مع اليهود والنصارى.. أما أن يعتدوا على مدننا وأحيائنا ومخيماتنا ويهلكوا الحرث والنسل، ثم يصمت بعضنا أو يقول -إن أفلح-: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، لأنه لا يريد أن يسمي الأمور بأسمائها أو بعبارة أوضح: لا يريد أن يفعل كما تفعل وكالات الأنباء ومنظمات حقوق الإنسان، فهذه -من أصحاب هذا المنطق المقيت- حيدة عن الحق وانحراف بيّن عن منهج خير القرون رضوان الله عليهم.

قلت: إنّ من أهم أسباب انتشار الكتاب وضوح لغة الخطاب، وتسمية الأمور بأسمائها [الدروز، النصيرية، الموارنة، أمل وشيعتها]، ولهذا فقد صدرت عدة طبعات من الكتاب كلها نفدت والحمد لله.. ثم شُغِلْتُ عنه بأمراضي التي ابتلاني الله بها منذ أكثر من سبعة عشر عاماً، ولا تزال تنخر أعضاء جسمي، ولكن هذه الأمراض مهما بلغت حدتها لن تحول -إن شاء الله- بيني وبين أعز ما أهواه في هذه الدنيا، ولهذا فقد كنت أستغل الفترات التي تهدأ فيها آلامي، فأعيد قراءة وتنقيح مؤلفاتي وتهيئتها للطباعة، وعندما جاء دور هذا الكتاب «**أمل والمخيمات الفلسطينية**» وجدته يغطّي أخبار جهة معتدية واحدة، وهذا جزء من كلّ في الكتاب الجديد الذي أريده أن يشمل جميع الجهات التي مارست اعتداءات تعفّ عنها وحوش البراري في أكمامها، وسميت الكتاب: «**مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان**»، ثمّ قسمته إلى جزئين، ففي هذا الجزء [الأول] قدمت دراسة عن المخيمات الفلسطينية، تحدثت فيها عن التوزيع الجغرافي

للمخيمات، وعن نسبتهم إلى عدد سكان لبنان وعن القوانين اللبنانية المجحفة التي لا تشبهها أية قوانين في العالم.

ثم قسمت الجزء الأول إلى بابين:

الباب الأول: تحدثت فيه عن موقف الموارنة والنصارى بعامة من الفلسطينيين ومخيماتهم، وعن تدميرهم لبعضها.

الباب الثاني: احتلال [ن.ب.س] للبنان وأبعاده.

أنهيت هذا الجزء قبل نحو عام، ثم شرعتُ في كتابة المقدمة، وقبل الفراغ منها سقطتُ مغشياً عليّ، فنُقلت على الفور إلى المستشفى، وتبين بعد التحليلات المخبرية ومعاينة الأطباء، أنّ هذا الزائر الجديد أشدّ خطورة مما سبقه، فخضعتُ لعملية جراحية، ثم بقيتُ بضعة أشهر بين الحياة والموت، وأسأل الله تعالى أن يحسن ختامنا ويغفر ذنوبنا.. ثمّ عدتُ إلى كتابة المقدمة، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأرجو أن يكون جهدي في تأليف هذا الكتاب من الصالحات.

أما الجزء الثاني؛ فهو تغطية للمجازر التي ارتكبتها حركة أمل بقيادة زعيمها نبيه بري، وقاتل معها جمهور الشيعة في لبنان من عسكريين ومدنيين، وقدَّمت لها قوات [ن.ب.س] أسلحة حديثة يفتقدها الفلسطينيون في مخيماتهم البائسة. كما شكلت هذه القوات طوقاً أمنياً يمنع أي اتصال بين الفلسطينيين المحاصرين في مخيماتهم وبين أية جهة تود أن تساعدهم أو أن تخفف الضغط عليهم، ومَثَل طوق القوات النصيرية الغازية كمَثَل الطوق الإسرائيلي الذي يحمي القوات المارونية في

عدوانها على هذه المخيمات نفسها إثر مقتل بشير الجميل ١٩٨٢. وأرجو أن يرى هذا الجزء [الثاني] النور قريباً.

هذا، ومن حق القارئ الكريم عليّ أن ألفت نظره إلى النقاط الثلاث الآتية:

الأولى: الشعب الفلسطيني المسالم كان هدفاً لكثير من المجازر التي ارتكبت بحقه، أما قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فلم تكن كذلك، فقد قدّمت المسوغ للموارنة منذ عام ١٩٧٠ لضرب الوجود الفلسطيني في لبنان عندما تدخلت بشؤون الحكم، وراحت تتحالف مع هذه الجهة السياسية ضد تلك، وتشتري ذمم المواطنين مقابل رواتب ومكافآت مغرية، ومعظم هؤلاء كانوا من المسلمين: [سنة وشيعة] أما النصارى فعددهم كان أقل من قليل.

انحازت منظمة التحرير إلى صف الزعيم الدرزي كمال جنبلاط الذي كان يطمح إلى رئاسة الجمهورية، ولن يكون ذلك إلا بانقلاب عسكري، فالنظام الديمقراطي لا يسمح له بأكثر من وزير، ولهذا فقد تحالف مع منظمة التحرير ومع مختلف الاتجاهات اليسارية والناصرية إضافة إلى الدروز، وعندما اجتاحت إسرائيل لبنان، وحاصرت أهل بيروت الغربية -أي السنة دون غيرهم-، لم يسمح الدروز للقوات الفلسطينية بالقتال من مناطقهم، ونكثوا بالوعود التي وعدهم بها وليد جنبلاط وآل أرسلان.. وعندئذٍ أدرك ياسر عرفات وصحبه أنّ هؤلاء الدروز لا يختلفون عن أبناء طائفتهم في البلاد الشامية، ولات حين مندم.

الثانية: سردتُ بتوسع الأدلة التي تثبت بأنّ التدخل السوري في لبنان كان

بالتنسيق التام مع كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية والنظام الصهيوني والموارنة، وأنّ هذه الأطراف الثلاثة كانت ترفض التدخل السوري، ثمّ جرت مفاوضات مباشرة -كما ذكرت بعض وكالات الأنباء- وغير مباشرة عن طريق الوسيط الأمريكي -كما تواترت الأخبار- فاطمأنوا إلى أنّ ما تريده إسرائيل والأمريكان والموارنة سيفعله [ن.ب.س] ثمّ حدّدت إسرائيل خطوطاً حمراء لا يجوز لقوات [ن.ب.س] تجاوزها.. ولولا هذا الاتفاق لما استطاعت قوات [ن.ب.س] أن تخطو خطوة واحدة نحو لبنان.. وهكذا دخلت قوات [ن.ب.س] تحت مظلة جامعة الدول العربية، وتحت شعار ظاهره حماية الثورة الفلسطينية وإنهاء الحرب الأهلية، وباطنه توجيه أشرس الضربات لأهل السنة في لبنان، والقضاء على الثورة الفلسطينية، وتسليم جنوب لبنان للشيعة بقيادة حركة أمل ثمّ بقيادة حزب الله وسيدها الفارسي الصفوي!!

فهل نسي أم تناسى أهل حركة حماس وحركة الجهاد و[الإخوان المسلمون] مسلسل هذه الأحداث الرهيبة التي استمرت أكثر من ثلاثين عاماً؟! ومتى أصبح [ن.ب.س] والنظام الفارسي الصفوي والشيعة بعامة أنظمة ممانعة وغيرهم خونة عملاء؟!

إنّ ما كتبه هؤلاء الذين يغيّرون مواقفهم كما يغيرون قمصانهم من كلمات جارحة، ورميهم بالكفر والخيانة محفوظ لدينا، فإلى متى هذه التناقضات؟!

الثالثة: نقلتُ في هذا الكتاب تقارير مراسلين، وكان في ذلك إطالة، ولكل أسبابه

التي لا بدّ منها، فالذي نقلته عن المراسل والخبير بالشأن السوري «باتريك سيل» جاء بعد أن أسهبتُ في الحديث عن أسباب التدخل السوري، ثمّ نقلت كلامه الذي يتفق مع ما ذهبت إليه.

أما تقرير الصحفي الشهير «روبرت فيسك» الذي ورد في كتابه «ويلات وطن» فهو أهم شاهد على مجزرة الموارنة والقوات الصهيونية، ويكفي فيسك فخراً أنه أحد أربعة صحفيين ظلوا في لبنان طوال سنوات الحرب، وكان كل يوم يُعرِّض نفسه للموت. أجل، إنه صاحب ضمير حيّ ورجل مهنة يقتحم ميادين القتال مضحياً بنفسه لينقل الحقيقة كما هي.

وأما كتاب «تحقيق حول مجزرة صبرا وشاتيلا» لمؤلفه «آمنون كابليوك» مراسل جريدة لوموند الفرنسية وعضو هيئة تحرير مجلة «نيو أوْت لوك» التي تصدر في تل أبيب، فهو من أصدق ما كُتب في هذا الشأن كما شهدت بذلك صحيفة لوموند الفرنسية.

هذا أهم ما نقلتُه عن أشهر المراسلين العالميين الذين شهدوا الأحداث، وسجّلوا هذه الشهادات الأليمة المفزعة، وإن لم أنقل عن هؤلاء، فلا أدري عمن أنقل؟!

وأخيراً: عندما يراجع الفلسطينيون تاريخ إقامتهم في لبنان منذ عام ١٩٤٨ وحتى كتابة هذه الأسطر فسيعلمون أنّ أهل السنة وحدهم دون غيرهم هم الذين تعاونوا معهم، ووقفوا إلى جانبهم قدر الاستطاعة، وأنّ كل معتد أثيم كان يستهدفهم، فهو يستهدف أهل السنة اللبنانيين معهم، وأنّ العدو الصهيوني عندما

اجتاح لبنان عام ١٩٨٢ لم يحاصر الشوف ولا بيروت الشرقية، وإنما حاصر بيروت الغربية التي كانت تحتضن المقاومة كما تحتضن الأم الحنون ابنها الرضيع، وكذلك الحال عندما اجتاحت أمل الشيعية والقوات الدرزية عام ١٩٨٣ بيروت الغربية.

فليعلم أهل السنة من أين يأتيهم الخطر، وليرسخوا التعاون فيما بينهم، وإذا كانت هناك أخطار فهي مشتركة، وليست قاصرة على طرف دون آخر، وليس هذا هو وقت تبادل الاتهامات. إنّ أياماً عصيبة تنتظركم، بل تنتظرنا جميعاً، لأنّ الفتنة لن تبقى ضمن حدود لبنان، ولا بدّ أن تمتد لتشمل المنطقة بأسرها، وإنّ ما يسمّى بحزب الله وأضرابه من الحركات والأحزاب الباطنية التي تتلقى أوامرها من «الفقيه الولي» في طهران قد حزمت أمرها، وكشّرت عن أنيابها، ومن الذي سينسى اجتياحهم لبيروت الغربية في السابع من أيار عام ٢٠٠٨، وما ارتكبوه فيها من قتل ونهب وسلب وتدمير للمباني والشركات وبخاصة الإعلامية منها.

غامر أحد معارفي بنفسه أثناء اجتياح حزب الله وحركة أمل لبيروت الغربية وزار سعد الحريري ليطمئنّ على سلامته، وكان أول وأهم ما سمعه منه:

«والله ما كنت أظن أن يفعلوا هذا الذي فعلوه».

يا شيخ سعد، ظنّك هذا من الإثم الذي نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجُرات: ١٢]. أفبعد اغتيال أبيك رفيق الحريري الذي أحسن الظنّ بهم، وقدم لهم خدمات لا ينكرها إلا لئيم، ومن قبل أبيك مفتي لبنان الشيخ حسن

خالد، والشيخ صبحي الصالح، ورشيد كرامي، وعشرات غيرهم.. أفبعد هذا كله تظن أنهم لن يفعلوا هذا الذي فعلوه؟! وهل هذه هي المرة الأولى التي يجتاحون فيها بيروت وطرابلس وصيدا وسائر مناطق وأحياء وقرى أهل السنة؟!

وأنت يا شيخ سعد، وكل من يعمل في صفك بأمسّ الحاجة إلى خبراء يعطونكم دروساً في تاريخ الحركات الباطنية الشعوبية وعداوتهم للعرب، وفي طليعتهم أصحاب رسول الله ﷺ، وقادة الفتوح الإسلامية الذين أعزّ الله بهم دينه.

ويا قوم الشيخ سعد، تذكروا جيداً أنّ سبعة بالمئة من سكان سوريا من غلاة هذه الطائفة، وهم الذين انفردوا بحكم هذا البلد بعد أن تحالفوا مع جهات كثيرة ترفع شعار العروبة وفلسطين والوحدة والصمود والتصدي [**تماماً كما يفعل حزب الله في بلدكم**] ثم تبيّن لكلّ من تحالف معهم أو لم يتحالف أن شعاراتهم جوفاء خرقاء.

وتذكروا التحالف الدنس بين كلٍّ من إيران وشيعتها من جهة، والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية ومن ورائهم الكيان الصهيوني من جهة أخرى، والذي أسفر عن سقوط كابل عام ٢٠٠١ وسقوط بغداد عام ٢٠٠٣.

يا أهل السنة في لبنان، لا تركنوا إلى الذين ظلموا، ولا تتركوا أحداً -مهما كان- يلدغكم من جحر واحد مرتين، ولا يستخفنّكم الذين لا يوقنون، واعلموا أنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وأسأل الله تعالى أن يحفظكم من كل عدوٍ ظاهر أو كان مستتراً وما زلتم

تحسنون الظن به، كما أسأله -جلّ شأنه- أن يعز بكم دينه، وأن يذلّ أهل الكفر والنفاق والشقاق، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد سرور زين العابدين

الأربعاء / ٢١ شعبان ١٤٣٠ هـ

توطئة

المخيمات الفلسطينية في لبنان

المخيمات الفلسطينية في لبنان

بعد الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية أمام القوات الصهيونية عام ١٩٤٨، اقتلع الشعب العربي الفلسطيني من وطنه، والتجأ إلى الدول العربية المجاورة، ثم انتشر في مختلف بقاع الأرض. وبعد مرور ستين عاماً على هذه النكبة، لا يزال اللاجئون الفلسطينيون يحلمون بالعودة إلى منازلهم ومزارعهم، كما أنهم لا يزالون يحتفظون بالوثائق التي تؤكد ملكيتهم لأرضهم، وبعضهم لا يزال يحتفظ بمفاتيح منازلهم. وفيما أعلم لم يشهد التاريخ المعاصر شعباً أجبر على مغادرة وطنه ليحل محله شعب آخر ليس له أدنى حق بهذه الأرض، ولا يتكلم بلغة أهلها، بل هم من بلاد شتى لا يجمع بينهم إلا الصهيونية.

كان عدد العرب الفلسطينيين في أرضهم التي احتلت عام ١٩٤٨، هو ٩٠٠ ألف، وعدد الذين اقتلعوا من هذه الأرض وأصبحوا لاجئين ٧٥٠ ألفاً. وهؤلاء سكنوا في الضفة الغربية، وقطاع غزة، والأردن، وسورية، ومصر، ولبنان، وقليل منهم سكنوا العراق. وعندما تدفق البترول في دول الخليج العربي هاجر بعضهم إليها، وأحدثوا فيها نهضة تعليمية لأن نسبة الذين يحملون الشهادات بين الفلسطينيين مرتفعة، كما عملوا أيضاً في مختلف المجالات كالتجارة والمقاولات وغيرها.

استقبلت البلدان العربية الفلسطينيين استقبالاً حسناً، فالأردن منحتهم الجنسية، وأصبحت حالهم كحال مواطني سكان شرق الأردن، وفي سورية كان لهم

حق التملك والعمل في مختلف وظائف الدولة، بل يزيدون على المواطنين السوريين في انفرادهم بالعمل في مؤسسات وكالة الغوث التعليمية وغيرها، وكانت رواتبها أحسن من رواتب وظائف الدولة، ومع ذلك لم تمنحهم الجنسية حتى لا يستبدلوا وطناً بوطن هكذا كان شأن البلدان العربية في معاملة الفلسطينيين إلا لبنان الذي استقر فيه ١١٠ آلاف لاجئ جاؤوا من المناطق الفلسطينية المجاورة للبنان، مثل: الجليل، والمناطق الساحلية، ونصبت لهم مخيمات قرب المدن الساحلية: كبيروت، وطرابلس، وصيدا، وصور.

ففي لبنان جرى التضييق على اللاجئين الفلسطينيين؛ لأن التركيبة السكانية تختلف عن البلاد العربية الأخرى، وهذه التركيبة خاضعة لوثيقة ١٩٤٣ التي أشارت إلى أن رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة الوزراء للسنة، ورئاسة المجلس النيابي للشيعة. فالموارنة وبقية النصارى لهم رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش ومديرية الأمن العام وغير ذلك، ولهذا فهم المهيمنون على الحكم، وليس مستغرباً أن يخشوا من توطين الفلسطينيين في لبنان، فضيقوا عليهم وحرموهم من كلّ حق هو لهم، والشيعة اختلف موقفهم في مرحلة موسى الصدر فناصبوا الفلسطينيين العداء، وبقي السنة فقد كانوا يتعاطفون مع الفلسطينيين، ولكن قيادتهم السياسية كانت ضعيفة.

التوزيع الجغرافي للمخيمات الفلسطينية في لبنان

يقيم أكثر من نصف اللاجئين في ١٢ مخيماً منظماً ومعترفاً به لدى الأونروا، وهي: نهر البارد، البداوي، برج البراجنة، ضبية، مار الياس، عين الحلوة،

الرشيدية، برج الشمالي، البص، شاتيلا، ويفل(الجليل)، المية مية.

ويقيم باقي اللاجئين في المدن والقرى اللبنانية إضافة إلى تجمعات سكنية جديدة نشأت بسبب تطورات الأوضاع في لبنان. ومن أهم هذه التجمعات غير المعترف فيها من قبل الأونروا: المعشوق، جبل البحر، شبريحا، القاسمية، البرغلية، الواسطة، العيتانية، أبو الأسود، عدلون الغازية، الناعمة، سعد نايل، ثعلبايا وغيرها.

وكانت الأونروا تشرف على ١٦ مخيماً رسمياً، دُمرت منها ثلاثة أثناء سنوات الحرب، وتحديداً منذ عام ١٩٧٤ وحتى عام ١٩٧٦ ولم تتم إعادة بنائها من جديد وهي: مخيم النبطية في جنوب لبنان، ومخيما داكوانة [تل الزعتر] وجسر الباشا في بيروت، وهناك مخيم رابع هو مخيم جرود في بعلبك تم إجلاء أهله منه ونقلهم إلى مخيم الرشيدية في منطقة صور.

وفيما يلي نبذة عن المخيمات المنظمة والمعترف بها لدى الأونروا:

مخيم نهر البارد

يقع على بعد ١٥ كم شمال مدينة طرابلس على البحر الأبيض المتوسط، وقد أنشئ عام ١٩٤٩، وتبلغ مساحته ما يقارب ٢٠٠ دونم. وتعود ملكية أرضه إلى القطاع الخاص اللبناني، وهذه الأرض مؤجرة للأونروا، ويبلغ عدد سكان المخيم المسجلين في الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٢٨٩٣١ نسمة.

مخيم البداوي

يقع في شمال لبنان على مسافة ٧ كلم شمال مدينة طرابلس، وقد أنشئ عام ١٩٥٧، وتبلغ مساحته حوالي ٢٠٠ دونم. وتعود ملكية أرضه إلى القطاع الخاص اللبناني، وهي مؤجرة لصالح الأونروا، ويبلغ عدد الفلسطينيين في مخيم البداوي المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ١٥٩٨٢ نسمة.

مخيم برج البراجنة

يقع في الضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت، وقد أنشئ عام ١٩٤٨، وتبلغ مساحته ١٠٤ دونمات، وأرضه مؤجرة للأونروا، ويبلغ عدد سكانه المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٢٠١٦٢ نسمة.

مخيم ضبية

يقع على بعد ١٢ كلم شرقي بيروت على تلة تشرف على طريق بيروت-طرابلس الدولي، وقد أنشئ عام ١٩٥٦، وتبلغ مساحته ٨٣.٦ دونماً. وأرضه مؤجرة لصالح الأونروا، ويبلغ عدد الفلسطينيين في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٤٢١٦ نسمة.

مخيم مار الياس

يقع في جنوب غربي بيروت، وقد أنشئ عام ١٩٥٢، وتبلغ مساحته ٥.٤ دونمات، وأرضه وقف لكنيسة الروم، ويبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ١٤١٤ نسمة.

مخيم عين الحلوة

يقع على بعد ٣ كلم جنوبي شرقي مدينة صيدا، وقد تأسس على أرض كانت أصلاً معسكراً للجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، من قبل الصليب الأحمر بين عامي ١٩٤٨و١٩٤٩، وقد بدأت الأونروا عملياتها في المخيم عام ١٩٥٢، وتبلغ مساحته ٢٩٠ دونماً، وهو أكبر المخيمات في لبنان من حيث السكان والمساحة، ويبلغ عدد السكان فيه المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٤٤٧٧٥ نسمة.

مخيم الرشيدية

يقع جنوب مدينة صور الساحلية في الجنوب اللبناني على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد أنشئ عام ١٩٤٨، وتبلغ مساحته ٢٤٨.٤ دونماً، وأرضه مؤجرة للأونروا، ويبلغ عدد الفلسطينيين فيه المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٢٥٠٨١ نسمة.

مخيم البرج الشمالي

يقع شرق مدينة صور الساحلية في الجنوب الشمالي، وقد أنشئ عام ١٩٥٥، وتبلغ مساحته ١٣٤ دونماً، وتعود ملكية أرضه إلى القطاع الخاص، وهي مؤجرة للأونروا، ويبلغ عدد الفلسطينيين في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ١٨٣٧٥ نسمة.

مخيم البص

يقع في مدخل مدينة صور الشمالي في جنوب لبنان على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد أنشئ عام ١٩٤٩، وتبلغ مساحته ٨٠ دونماً، وتعود ملكية أرضه إلى القطاع الخاص، وهي مؤجرة لصالح الأونروا. ويبلغ عدد السكان في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٩٩٥١ نسمة.

مخيم شاتيلا

يقع في وسط العاصمة بيروت، وقد أنشئ عام ١٩٤٩، وتبلغ مساحته ٣٩.٥ دونماً. وقسم من أرض المخيم مؤجر لصالح الأونروا، والقسم الآخر ملك لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويبلغ عدد السكان فيه المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ١٢١١٦ نسمة.

مخيم ويفل (الجليل)

يقع في البقاع الشرقي، ويعد مدخل مدينة بعلبك الجنوبي، ويقع على بعد ٩٠ كلم شمال شرق بيروت، وقد أنشئ عام ١٩٤٩، ويبلغ مساحته ٤٣.٤٤ دونماً وأرضه مؤجرة لصالح الأونروا من السلطات، ويبلغ عدد الفلسطينيين فيه المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٧٤٧٨.

مخيم المية مية

يقع على أطراف قرية المية مية على تلة تبعد ٤ كلم إلى الشرق من مدينة صيدا في جنوب لبنان، وقد أنشئ ١٩٥٤، وهو مخيم صغير تبلغ مساحته ٥٤ دونماً، وأرضه

مؤجرة لصالح الأونروا. ويبلغ عدد الفلسطينيين في المخيم المسجلين في سجلات الأونروا لعام ٢٠٠٣ حوالي ٤٩٩٥ نسمة.[١]

(١) قسم البحوث والدراسات – الجزيرة نت. المصادر:

- موقع مخيم البرج الشمالي للاجئين.
- مركز المعلومات الوطني الفلسطيني.
- موقع الجزيرة نت.
- خريطة منطقة عمليات الأونروا.
- المخيمات الفلسطينية في لبنان.. الواقع والاحتياجات، دائرة شؤون اللاجئين في لبنان بالتعاون مع مؤسسة فريد ريش غيبرت بلبنان، يونيو- حزيران ١٩٩٨.

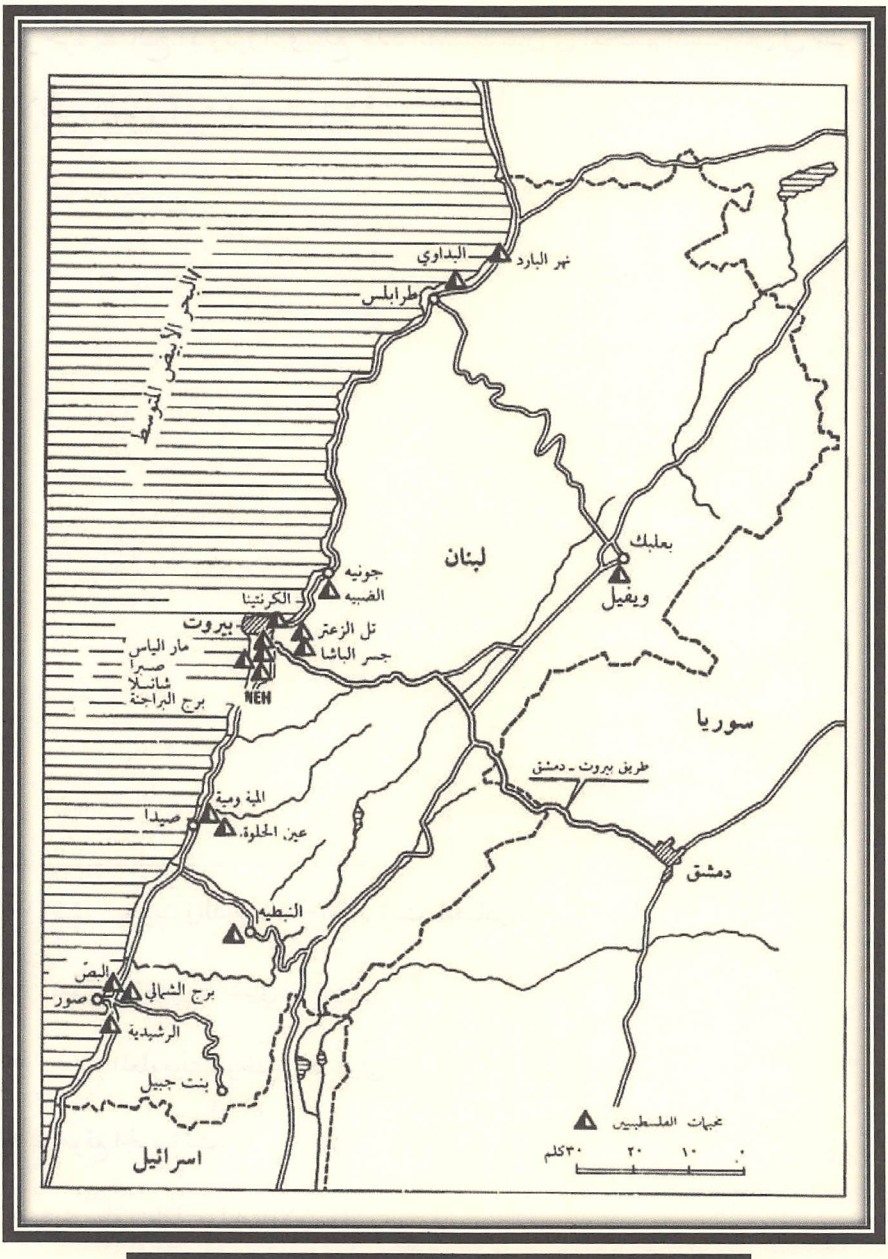

المخيمات الفلسطينية في لبنان ١٩٧٥

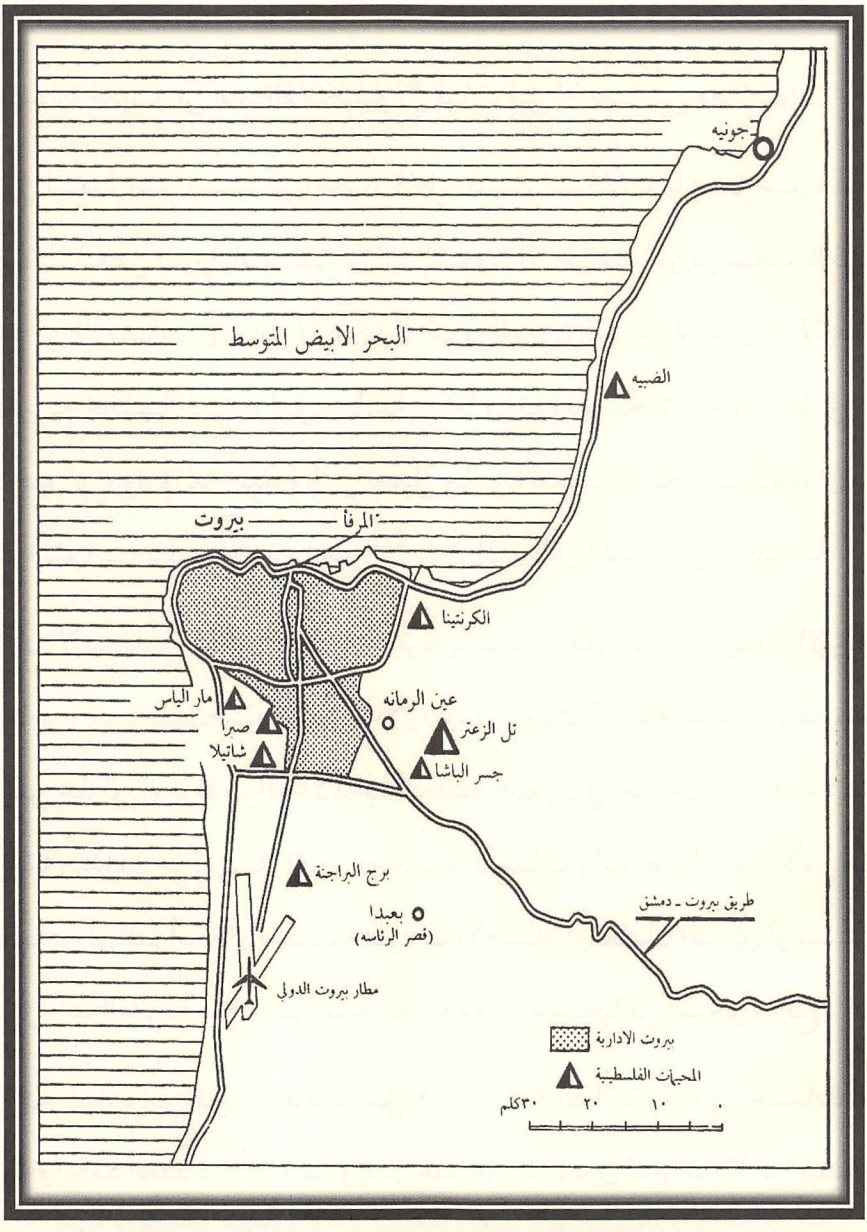

المخيمات الفلسطينية حول بيروت ١٩٧٥

معاناة الفلسطينيين

نبدأ بالحديث عن عدد الفلسطينيين في لبنان، قبل الحديث عن معاناتهم:

في لبنان لم ينشر رسمياً أي إحصاء كامل حديث للسكان، وما أنجز عبارة عن محاولات لبعض الوزارات، مثل وزارة الشؤون الاجتماعية، أو دراسات بالعينة لعدد من المؤسسات، وبالتالي لا يمكن الركون إلى أي رقم بدقة. غير أن الأرقام التقديرية تحكمها عدة عوامل منطقية، مثلاً ما تورده سجلات مديرية شؤون اللاجئين في وزارة الداخلية، والتي تعمل جاهدة لتنظيم السجلات بدقة، أو ما تذكره نشرات وتقارير الأونروا عن اللاجئين المسجلين الذين يتلقون خدماتها.

إن الاستخدام السياسي لأرقام تقديرية بات معروفاً، فالذين يريدون الإيحاء بمخاطر وجود الفلسطينيين يرفعون الأرقام، كما فعلت الرابطة المارونية وغيرها، والذين يحاولون معرفة الواقع الأقرب للحقيقة يضعون في حسابهم عوامل عديدة مؤثرة في هذا الوجود، منها: الهجرة متعددة الأسباب والمتواصلة سواء لأسباب اقتصادية أو للدراسة أو بسبب الحروب الأهلية، أو فقدان المأوى أو بسبب الإجراءات القانونية مثل فرض سمة العودة مع عدم منحها لمن يستحق.. إلخ.

إن الجهات التي تورد أرقامها مثل ٢٠٠-٢٥٠ ألفاً، تقوم على احتساب أن الأونروا تحدد العدد بـ ٣٧٠ ألفاً، ويقدر عدد غير المسجلين لديها بـ ٣٠ ألفاً فيصبح المجموع التقديري ٤٠٠ ألف، يخفض منه مائة ألف كانوا خارج لبنان، ولم يمنحوا سمة العودة، وخمسون ألفاً تمّ تجنيسهم سابقاً، وثلاثون ألفاً شطبت أسماؤهم من

السجلات بعد استحصالهم على جنسيات بلاد أجنبية، وهناك إحصائيات أخرى مشابهة لهذه الإحصائية.

أما معاناة الفلسطينيين فهم القطاع الأفقر في المجتمع اللبناني كله، وتجمع اللاجئين الفلسطينيين هو الأفقر من بين تجمعات اللاجئين في أي بلد عربي.

مخيم شاتيلا انموذجاً: يعيش اللاجئون الفلسطينيون في مخيم شاتيلا أوضاعاً إنسانية صعبة للغاية، تعود أسبابها إلى افتقار المخيم لمياه الشرب، وانقطاع الكهرباء بشكل دائم، وتردي أوضاع شبكة الصرف الصحي، وارتفاع نسبة البطالة بين الفئة القادرة على العمل إلى أكثر من ٤٥٪ ، والتراجع الهائل في مستوى الخدمات التي تقدمها الجهات المشرفة على شؤون حياة اللاجئين وبالأخص الأونروا واللجنة الشعبية. النقص الكبير في الخدمات أنتج ترديا في الواقعَين الصحي والبيئي، وخلق واقعاً تعليمياً ضعيفاً يهدد مستقبل الطلاب، وأدى إلى نشوء حالات اضطراب اجتماعي برزت ملامحها في الإشكالات ذات الطابع العنفي بين بعض المجموعات، وفي انتشار مجموعة من الآفات الاجتماعية والأخلاقية، زاد من مخاطرها غياب السلطات المختصة ودخول فئات أجنبية مختلفة للإقامة أو العمل في المخيم.

انقطعت الكهرباء بالكامل عن مخيم شاتيلا منذ عام ١٩٨٥ -أي منذ حرب أمل الشيعية- وظلت مقطوعة حتى عام ١٩٩٦ حيث قامت المنظمات الدولية المشرفة على شؤون اللاجئين بتوفير مولدين كهربائيين، لكنهما تعطلا غير مرة، وآخرها كان انفجار واحتراق غرفة الكهرباء في تشرين الثاني من العام ٢٠٠٤.

أما المياه فيصعب على اللاجئين الفلسطينيين في مخيم شاتيلا الحصول عليها، فالمخيم كان يتزود بالمياه عبر شبكة المياه اللبنانية، لكن الأحداث والحروب قطعت هذه الشبكة، فتحول الأهالي إلى المصادر المحلية القائمة على سبعة آبار منتشرة في المخيم، لكن بعض هذه الآبار لحقها الجفاف، وسيطر عليها بعض الأفراد المتنفذين على المصادر الأخرى، فصاروا يبيعون المياه للأهالي بواقع اشتراك شهري قيمته سبعة دولارات أمريكية تذهب إلى الجيوب الخاصة. وصارت الآبار الصالحة تستغل أيضاً لتعبئة الشاحنات المحملة بالصهاريج التي تأتي من خارج المخيم، مما أضعف وصول المياه إلى الأهالي.

أما الصرف الصحي، فتحولت شوارع وأزقة مخيم شاتيلا شتاء إلى بحيرات صغيرة، فالمخيم يقع في منطقة منخفضة، فتندفع المياه من المناطق المجاورة باتجاه المخيم، ومع ضعف شبكة الصرف الصحي وازدياد عدد السكان في الأحياء المجاورة وفوضى البناء وغياب الرقابة البلدية تزداد مشكلة الأهالي، وتتفاقم معاناتهم، وينتج عن هذه الأزمة دخول المياه إلى المنازل وتدفقها إلى المحلات التجارية والمخازن، وانتشار المياه الآسنة في الشوارع العامة، وإلحاق الضرر الصحي بالتلاميذ المتجهين إلى المدارس. ويُخشى أن تؤدي الأزمات الإنسانية في مخيم شاتيلا إلى المضاعفات التالية:

١) ازدياد دائرة الفقر وارتفاع معدل البطالة.

٢) ارتفاع حالات الهجرة بين الشباب.

٣) ازدياد معدل التسرب من المدارس وتراجع المستوى العلمي لدى الطلاب.

٤) ضعف الالتزام بالقانون وتغييب دور المرجعيات الدينية والاجتماعية.

٥) اللجوء إلى العنف لحل المشكلات.

٦) انتشار الآفات الاجتماعية في صفوف المراهقين.

٧) تشجيع الأفراد على التعدي على الممتلكات الخاصة والعامة.

٨) انتشار الأمراض وتردي مستوى الخدمات.

القوانين اللبنانية الظالمة

على اللاجئ الفلسطيني في لبنان أن يحصل على إذن رسمي بالعمل، مثل أي أجنبي آخر، كشرط لتشغيله في لبنان. والاستثناءات الوحيدة لهذا الحكم هي الأعمال التي تمارس داخل المخيمات ومع الأونروا.

والمقتضيات المحيطة بمنح إجازات العمل صارمة، فهذه الإجازات تصدر عن المدير العام لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وصالحة لفترة أقصاها عامان.[1] وبالإضافة إلى ذلك يبين القانون تفضيلاً واضحاً للرعايا اللبنانيين. فالمادة ١٧ من تنظيم عمل الأجانب في المرسوم ١٧٥٦١ تنص على:

تلغى إجازة العمل في أي وقت كان عند ظهور مستندات غير صحيحة، وكلما قضت مصلحة اليد العاملة اللبنانية بذلك، ولا سيما في الحالات الآتية:

١) إذا صرفت المؤسسة أجيراً لبنانياً عملاً بأحكام المادة خمسين من قانون العمل

(١) المرسوم رقم ١٧٥٦١، تنظيم عمل الأجانب، المواد ١١-١٤، البندان ٢٢-٢٣.

اللبناني، وأبقت على أجير أجنبي موازٍ له في الكفاءة وشروط العمل.

٢) إذا رفضت المؤسسة إعطاء تفضيل العمل إلى لبناني تتوافر فيه شروط العمل المطلوب.

٣) إذا لم تقم المؤسسة بتعهداتها في تدريب اللبناني على العمل بدلاً من الأجنبي.

٤) إذا خالف الأجنبي شروط الموافقة المسبقة وإجازة العمل.

٥) إذا حكم عليه بإحدى الجنايات أو الجرائم الشائنة.[١]

وبموجب هذه المادة، إذا طردت مؤسسة عاملاً لبنانياً واستخدمت بدلاً منه عاملاً أجنبياً ذا أهلية موازية، تبطل إجازة عمل العامل الأجنبي. وفي كل وقت من أوقات عملية الاستخدام، إذا لم يتلق مقدمو الطلبات اللبنانيون معاملة مفضلة على الأجانب، فمن المحتمل أن تلغى إجازات عمل الأجانب. ويفترض أن اللبنانيين يُدربون لتولي المراكز التي يشغلها عمال أجانب، في ظل خطر إبطال إجازات عمل الأجانب. وأخيراً، يفضي انتهاك شروط إجازات العمل أو مخالفة القانون في لبنان إلى إلغاء إجازة العمل.

وفي حين أنه قد يكون لدى دول أخرى قوانين عمل مماثلة بشأن العمال الأجانب-الولايات المتحدة مثال ممتاز،[٢] وتوجد آراء متباينة في فعاليتها وإنصافها للعامل الأجنبي عموماً، فإنّ من المنطقي القول أنّ مثل هذه القوانين تُلقي على اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في لبنان عبئاً ثقيلاً لا يُذلل. فهم لا يتمتعون بأي

---

(١) المصدر نفسه، المادة ١٧.

(٢) انظر على سبيل المثال: قانون الهجرة والتوطين (INA) الفقرة ٢٠٣ ب و٢١٢ أ.

شكل من أشكال المواطنة وليس لديهم بلد آخر يستطيعون السعي فيه للعمل بصورة قانونية. وحقيقة أنّ الفلسطينيين موجودون في لبنان منذ سنة ١٩٤٨ لم تؤثر في إدراك الحكومة اللبنانية لحقهم في العمل. وقوة السلاح هي فقط التي أتاحت للفلسطينيين حق العمل والإقامة لفترة وجيزة، من سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٨٧، وبما أن القسم الأعظم من تلك الفترة زامن الحرب الأهلية اللبنانية، فقلما عرفوا ظروفاً مواتية للبحث فيها عن عمل في زمن السلم.

والحاجة إلى إجازة عمل لا تفرض على اللاجئ الفلسطيني عبئاً ثقيلاً فحسب، بل إنها تستبعد -في الواقع- توقعاته بشأن العمل، إلى ضمن النطاق الضيق المسموح به من دون إجازة عمل. ومن الناحية القانونية لا يستطيع الفلسطينيون العمل إلا في الأونروا وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني والمنظمات غير الحكومية وفي مجالات لا تتطلب إذناً رسمياً، مثل: (الزراعة أو تربية الدواجن أو مشاريع صغيرة داخل المخيمات).[1]

وفي سنة ١٩٩٤، عمل ٤.٨٦ ٪ من قوة العمل قوامها ٢١٨١٧٣ في هذه المجالات. وحصل مجرد ٠.١٤ ٪ من قوة العمل -أي ما يقدر بـ ٣٥٠ عاملاً- على إجازات عمل في السنة نفسها. وكان الـ ٩٥٪ الباقون عاطلين عن العمل أو مستخدمين بصورة مؤقتة في عمل في القطاع غير الرسمي الذي يتميز

(1) Hussein Shaaban, **"Unemployment and its impact on the Palestinian refuges in Lebanon"** Journal of Refugee Studies, Vol. 10, no 3 (September 1997), pp. 384 and 386.

بالعمل المتقلب ومتدني الأجر والخطر وغير المنتظم في مجالات مثل: البناء والزراعة الموسمية.

وكما ذكر أعلاه، فإن الفلسطينيين يحصلون على إجازات عمل من الحكومة اللبنانية بأعداد قليلة بشكل ملحوظ. ومع ذلك، فمنح مثل هذه الإجازات لا يكفل للفلسطينيين حق العمل في مهن معينة، ولا يسمح للفلسطينيين بالانتفاع من الضمان الاجتماعي اللبناني. وعلى سبيل المثال، لكي يسمح لشخص بالانضمام إلى نقابة المحامين اللبنانيين، يجب أن يكون مواطناً لبنانياً مدة عشرة أعوام على الأقل.[١] والشرط نفسه ينطبق على أي شخص يبغي العمل في أي دائرة من دوائر الدولة أو الحكومة.[٢] ورغم إلزام الفلسطيني الحاصل على إجازة عمل بدفع رسوم للضمان الاجتماعي، فإنه لا يستطيع نيل أي منافع تستتبعها هذه الرسوم. والفقرة ٤ من المادة ٩ من قانون الضمان الاجتماعي اللبناني تنص على ما يلي:

«لا يخضع لأحكام قانون الضمان الاجتماعي الأجراء الأجانب العاملون في لبنان بموجب عقود جارية في الخارج مع مؤسسات أجنبية إذا أثبت رب العمل أنهم يستفيدون في بلد تنظيم العقد أو البلد الذي ينتمون إليه من تقديمات اجتماعية

---

(١) انظر: الناطور، **أوضاع الشعب الفلسطيني في لبنان**، ص١٢٥.

(٢) انظر المرسوم التشريعي رقم ١١٢ (١٩٥٩) في: **مجموعة التشريع اللبناني**، تحرير سليم أبي نادر (١٩٦٢).

مماثلة بمجموعها على الأقل للتقديمات المقررة في قانون الضمان اللبناني».[١]

وبما أن اللاجئين الفلسطينيين بلا جنسية، فإنه يتعذر عليهم تلبية مثل هذا المطلب. والحرمان من الضمان الاجتماعي ومن خدمات اجتماعية أخرى ينتهك كلاً من المادة ٥ من CERD والمادة ٩ من ICESCR، اللذين يضمنان هذه الحقوق. واللذين انضم لبنان إليهما.[٢] وهذه الحالة نفسها موجودة كشرط أساسي بالنسبة إلى هؤلاء الفلسطينيين الراغبين في مزاولة الطب أو الهندسة أو الصيدلة في لبنان خارج نطاق الأونروا ومخيمات اللاجئين.[٣] وأخيراً، يمكن للفلسطينيين الحاصلين على إجازات عمل والبالغين ١٨ سنة فما فوق وليس لديهم سجل جنائي أن ينضموا إلى نقابة، لكن لا يستطيعون أن يصوتوا أو أن ينتخبوا لأي منصب. ويمكنهم فقط انتخاب ممثل يسمح له بالدفاع عن مصالحهم أمام مجلس النقابة.[٤]

هذه القوانين والأنظمة الظالمة، والتي لا يكاد يكون لها مثيل في العالم

---

(١) انظر قانون الضمان الاجتماعي، المادة ٩، الفقرة ٤ في: سليم أبي نادر، محرر، **قانون الضمان الاجتماعي وقانون تسهيل الإسكان في لبنان**، تركيب وتنسيق إسكندر صقر (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٦٢)، ص١٣-١٤.

(٢) المعاهدة الدولية لاستئصال جميع أشكال التمييز العنصري (CERD)، المادة ٥، الفقرتان (e) و(iv)، والاتفاقية الدولية بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (ICESCR)، المادة ٩.

(٣) انظر: الناطور، **أوضاع الشعب الفلسطيني في لبنان**، ص١٢٥-١٢٦.

(٤) انظر قانون العمل اللبناني، الفقرتان: ٩١-٩٢ في مجموعة التشريع اللبناني.

استمرت منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٩ حيث وقّعت منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة اللبنانية اتفاق القاهرة، وهو اتفاق عسكري حيث سُمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالعمل عسكرياً في المنطقة الحدودية الإستراتيجية مع إسرائيل، غير أن الجزء الأكبر تأثيراً هو الذي تناول حق الفلسطينيين في العمل والإقامة والتنقل. وترسخ هذا الاتفاق عام ١٩٧٠ بعد أن قويت شوكة الفلسطينيين في لبنان.

وفي عام ١٩٧٥ بدأت الحرب اللبنانية الأهلية، وأصبحت المخيمات الفلسطينية مهددة، وبعضها جرى إزالته من الوجود كما ذكرنا في هذا الكتاب، وعندما يكون اللاجئون الفلسطينيون في لبنان في حالة حرب، لا تعد حقوق العمل مطروحة.

وبعد عام ١٩٨٢ وخروج قوات منظمة التحرير من لبنان بعد حصار القوات الإسرائيلية لبيروت، كان الاضطهاد هو السمة الرئيسية لمعاملتهم، فمعظم أبناء مخيمات الجنوب في صيدا وصور خضعوا للاحتلال الإسرائيلي في معتقل أنصار السيء الذكر، ثم عمل السوريون بوسائلهم المختلفة على صنع انشقاق داخل حركة فتح وداخل منظمة التحرير.. ثم ارتكبت حركة أمل الشيعية مجازرها بالمخيمات التي سنأتي على ذكرها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

المرحلة الأخرى جاءت في أعقاب اتفاق الطائف، وفيها اعتُمدت صيغة دستورية ترفض توطين الفلسطينيين في لبنان، ولما كانت السلطة المنبثقة عن الطائف توافقت على إلغاء المليشيات، فقد اعتبرت السلاح

الفلسطيني أيضاً من هذه الفئة وسحبت المتوسط منه والثقيل.. ثم شكلت السلطة لجنة من وزيرين للتباحث مع الفلسطينيين في مطالبهم الحقوقية والإنسانية، وقدمت لهم مذكرة فلسطينية بذلك، ولكن الواقع كان أشد مرارة، فقد بقيت الوعود أوهاماً.. وبرز اتجاه يحملهم مسؤولية الحرب الأهلية، وتشدّدت قوات الأمن في التعامل معهم، وتم إغلاق مخيمات الجنوب إلا من بوابة واحدة.

وفي ظل الهيمنة السورية الشيعية ساءت أحوال الفلسطينيين في مخيماتهم أكثر من أي مرحلة مضت، وهذه أمثلة على ذلك:

- ففي عام ١٩٩٠ كان أصحاب القرار السياسي في لبنان إذا تعرضوا لحقوق اللاجئين قالوا: غير وارد منحهم الجنسية، مع أن الفلسطينيين لا يطالبون بالجنسية وإنما يطالبون بحقهم في العيش والعمل والأمان.
- بذلت جهود عام ١٩٩٤ من أجل إسكان (٤٠٠٠) أسرة فلسطينية من مجموع(٦٠٠٠) أسرة تعرضت للتهجير في الحرب الأهلية اللبنانية، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل، وأثارت خلافاً في مجلس الوزراء اللبناني. ومما لا ينقضي منه العجب أن الكنيسة هي التي كانت تقود الحملة ضد عودة اللاجئين المهجرين إلى المخيمات الفلسطينية التي دمرت في الحرب الأهلية وهي: تل الزعتر، وضبية، وجسر الباشا، والنبطية، بحجة أن السماح بإعادة بناء هذه المخيمات

والسماح للّاجئين المهجّرين بالعودة إليها سيثيران توتراً إثنياً في ما يحاول لبنان النهوض من جديد بعد الحرب الأهلية.

- لم يُذكر في اتفاق أوسلو شيء عن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (١٩٤) الذي يؤكد حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم، وكذلك كان الحال في أوسلو رقم (٢) وفي محادثات طابا المصرية عام ٢٠٠١. وتجاهل حق اللاجئين في العودة أثار مخاوف اللبنانيين من اتجاه الأمم المتحدة إلى تجنيسهم في البلدان التي يقيمون فيها، وهذا مما زاد في التضييق عليهم، ففي ٢١ آذار عام ٢٠٠١ صدر عن الحكومة اللبنانية قراراً يمنع الفلسطينيين من حق التملك في لبنان ولو على متر مربع واحد في الوقت الذي يسمح لغيره من أي جنسية أخرى بالتملك. هذا عداك عن الأزمة الاقتصادية المتفاقمة يوماً بعد يوم بسبب ارتفاع نسبة البطالة. أما مخيمات الجنوب فقد أحكمت السلطة الإغلاق عليها، ومنعت إدخال مواد الإعمار والترميم، ثم في مرحلة لاحقة أثاث المنازل، مما أثار مخاوف على مصير هذه المخيمات لدى ساكنيها من نوايا تركها تتصدع حتى يغادرها أهلها بحثاً عن أماكن أكثر راحة في الشمال والبقاع بعيداً عن الحدود مع فلسطين. كما أن حملات الإساءة والتشويه لهذه المخيمات تسارعت من نمط تصوير هذه المخيمات أوكاراً للرذيلة والجريمة ومجمعاً للفارين من وجه

العدالة. وقد رافق ضغط السلطة اللبنانية على المخيمات تراجع الخدمات التي تقدمها الأونروا، وأدارت منظمة التحرير ظهرها لفلسطينيي الشتات، وتدهورت خدمات الهلال الأحمر الفلسطيني.. أجل تراجعت الخدمات في مجالات: التعليم، والتأهيل المهني، ودعم العائلات الفقيرة، حتى بات الفلسطيني المريض يموت عند أبواب المستشفيات ولا يتوفر ضمان له.

- إن الإحصائيات التي قدمتها اليونسيف وغيرها من المراكز المختصة بشؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان تقول:

- ٦٠٪ من اللاجئين في مخيمات لبنان تحت خط الفقر.

- ٤٠٠٠ عائلة من المهجرين بلا مأوى وما زالت تقيم عند أطراف المخيمات.

- ٤٠٪ نسبة البطالة بين القادرين على العمل بسبب منع اللاجئين من العمل في حوالي سبعين مهنة.

- ٤٠٪ من الأطفال الذين في سن الدراسة هم خارج مقاعد الدراسة، إما بسبب الفقر أو لعدم وجود أماكن لهم، بما يهدد بخلق جيل أمي.

- ٧٠٪ من الأمهات في المخيمات أميات أو ملمات بالحد الأدنى من القراءة والكتابة.

وتفيد هذه الإحصائيات والدراسات بأن معظم الأمراض السارية بينهم هي: القلب، والضغط، والسرطان، والربو، والسكري، وهي

أمـراض تصـيب مـن يبـتلى بهـا نتيجـة الخـوف، والقلـق، والحـيرة، والتفكـير، وفقدان الاستقرار.[١]

(١) اعتمدنا في كتابة هذا البحث على المصادر الآتية:

(أ) سد حاجات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. نهلا غندور: مديرة للتأهيل في مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، ومعالجة في طب الأطفال المهني ومربية خاصة.

(ب) أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في مخيم شاتيلا، دراسة اجتماعية من إعداد المؤسسة الفلسطينية لحقوق الإنسان.

(جـ) الحروب السرية في لبنان. آني لوران. أنطوان بصبوص.

(د) التزامات الدول المضيفة نحو اللاجئين بموجب القانون الدولي: حالة لبنان للباحث وديع سعيد، محام وعضو نقابة المحامين في نيويورك.

(هـ) الفلسطينيون في لبنان وآفاق التسوية السياسية. مركز جنين للدراسات الاستراتيجية.

(و) دراسة حول معاناة الإنسان الفلسطيني اللاجئ في مخيمات الشتات في لبنان. آذار ٢٠٠٢، مركز العودة.

الباب الأول

الموارنة والمخيمات الفلسطينية

الفصل الأول

مجازر عام ١٩٧٦

الموقف الماروني من المخيمات:

«بيروت محاصرة تقريباً بزنار من المخيمات التي تتحكم بالمداخل الرئيسية للعاصمة [انظر الخريطة ص٢٥]. ففي أطراف الشطر الغربي لبيروت يقع: برج البراجنة، وشاتيلا، وصبرا، ومار الياس، وبئر حسن بمحاذاة مدرج المطار بحيث أصبح التنقل على الجادة المؤدية إليه محفوفاً بالخطر المؤكد. فمخيم تل الزعتر يقع إلى الشرق من بيروت، وهو عبارة عن قلعة حصينة مكتظة بالسكان. وقد شِيد في مكان مرتفع يشرف على الأشرفية -الشطر المسيحي من بيروت-،وعلى ساحل المتن الشمالي الآهل بالسكان، ويتحكم بسبل المواصلات بين المدينة والجبل. ويمتد تل الزعتر باتجاهات ثلاثة متصلة به هي: مخيم جسر الباشا، وحي النبعة حيث أقامت منظمة التحرير الفلسطينية حوالي العشرين مكتباً دائماً لتطويع الشباب الشيعة مقابل راتب محدد».

وبعد حديث طويل عن الإنشاءات العسكرية التي أقامها الفلسطينيون في المخيم، -وهي أحاديث مبالغ فيها إلى درجة الخيال- يقولون:

«وكان باستطاعة مخيم تل الزعتر المجاور للمنطقة الصناعية في المكلس التحكم بحركة ونشاط أربعماية وخمسين مصنعاً».

الكرنتينا: قال الموارنة:

«وبالقرب من المرفأ حيث حي البؤس في الكرنتينا الذي كان يعبره القادمون الجدد الطارئون إلى لبنان بشكل غير قانوني: كالأرمن، وأكراد تركيا والعراق، والعرب

الرحل. أقامت المنظمات الفلسطينية مكاتب لها لتطويع المقاتلين مقابل مرتبات شهرية. وتتحكم الكرنتينا بالطريق الرئيسية التي تصل الجبل بشمالي بيروت والأشرفية والضواحي المسيحية الرئيسية [الحدث، والحازمية، وكفر شيما، وسن الفيل، وعين الرمانة]. وقد سقط على هذه الطريق عشرات القتلى وجرح المئات من اللبنانيين... وكان على اللبنانيين الذين يضطرون لسلوك هذه الطريق أن يتجمعوا في قوافل تواكبها مصفحات الدرك التي تأخذ بإطلاق النار على الجانبين لإبعاد القناصين المتربصين بالمارة وحماية السيارات التي تعبر جسر الكرنتينا».

«منذ الاشتباكات الأولى في عام ١٩٧٥، سعى الفلسطينيون بعد نجاحهم بوصل تل الزعتر بجسر الباشا، إلى ربط النبعة ثم الكرنتينا بتل الزعتر، لكن الهجوم الصاعق الذي قاده أمين الجميل، نائب تلك المنطقة حينذاك دمّر قسماً من مواقعهم. وفي كانون الثاني من عام ١٩٧٦ دمّرت الميلشيات المسيحية مخيم الكرنتينا تدميراً كاملاً».[1]

إذا كان الموارنة يرفضون الوجود الفلسطيني في لبنان، فهم من باب أولى يرفضون وجوده في مناطقهم، وفي مركز ثقلهم بيروت الشرقية، وقد جاءت الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ لتقدم لهم الفرصة الثمينة التي طالما خطّطوا من أجلها.

ففي بيروت الشرقية عدد من المخيمات أهمها:

---

(١) الحروب السرية في لبنان: انّى لوران، أنطوان بصبوص (٦٠-٦١)، والكتاب من أوله لآخره يعبر عن وجهة نظر الموارنة، وهو مصدر مهم.

- **الضبية:** مخيم صغير في شمال بيروت الشرقية، وسكانه من نصارى فلسطين الذين اختاروا بعد لجوئهم العيش بين إخوانهم وبني ملتهم نصارى لبنان. وليس لسكان هذا المخيم أي دور يستحق الذكر في المقاومة المسلحة.

- **مخيم الكرنتينا:** يقع قرب المرفأ، وجُل سكانه يحملون الجنسية اللبنانية ويعملون في الخدمات العامة. وحاولت الدولة بشتى الوسائل مسح هذه المنطقة من الوجود، وعمدت إلى افتعال الحرائق في أكواخ السكان مستهدفة تهجيرهم وطردهم نهائياً، ثمَّ فتح حزب الكتائب مكتباً له في مدخل المسلخ [أي الكرنتينا] الغربي حيث أخذت عناصره المسلحة تقيم الحواجز في كل حين وتستفز المواطنين.

- **تل الزعتر:** في المنطقة الشرقية الشمالية من بيروت يقع على مساحة من الأرض لا تتعدى ٢.٢كم٢، قبل عام ١٩٦٧ ووصلت في عام ١٩٧٦ إلى ١٠كم٢، وكان قبل أن يسكنه اللاجئون عام ١٩٥٠ بقايا معسكر إنجليزي في الحرب العالمية الأولى ليس أكثر من [براكات وتنك وأرضيات باطون]. حيث كان المكان مسرحاً للعقارب والثعالب، وكان عدد السكان في بدايته ٤٠٠ نسمة ثم أصبح في عام ١٩٧٦ حوالي ٣١ ألف مواطن [١٧ ألف فلسطيني و١٤ ألف لبناني].

تعليق:

هذه المخيمات في نظر الموارنة، ليست أكثر من ثكنات عسكرية، مزودة بمختلف الأسلحة، وسكانها مقاتلون أشداء، يقطعون الطرق، ويُروِّعون الآمنين، وهدفهم حكم لبنان. إنها نظرة عدائية لا تختلف عن الموقف الصهيوني

من الفلسطينيين.

والأمر ليس كذلك إطلاقاً، لقد رأينا فيما مضى أن الفلسطينيين في هذه المخيمات يعيشون حياة البؤس والفقر المدقع، ويفتقدون أبسط أنواع الرعاية: الاجتماعية والصحية والأمنية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فنسبة الفلسطينيين في مخيم تل الزعتر لا تتجاوز ٦٠٪، وهي في الكرنتينا أقل، وبقية السكان من اللبنانيين، ولم يفرق الموارنة في مجازرهم التي ارتكبوها بين فلسطيني ولبناني، ولا بين شاب وشيخ مسن، أو بين مسلم ونصراني، فسكان مخيم الضبية الذي جعلوه أثراً بعد عين من النصارى الذين لم يحملوا السلاح.

وسوف أعرض فيما يلي رواية صلاح خلف التي تدحض رواية الموارنة، وصلاح خلف هو المسؤول الثاني في فتح وفي منظمة التحرير الفلسطينية، ثم أبسط أقوال الذين نجوا من المذبحة: ماذا رأوا؟ وماذا سمعوا؟

رواية صلاح خلف

«لاحظت بعد عودتي من جولتي في الخليج إلى بيروت في ١٠ كانون الثاني- يناير ١٩٧٦ أنّ الحرب اتخذت منعطفاً جديداً من هذه الناحية. فقبل ذلك بأسبوع طوق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومنع أهله من التموين. وبعد وصولي بأربعة أيام اقتحم الكتائبيون ومغاوير حراس الأرز مخيم ضبيه المأهول بالفلسطينيين المسيحيين الذين ظلوا على هامش النزاع . وبرغم ذلك فإن المخيم دمر وذبح آهلوه. وبعد ذلك بأسبوع، أي في ١٩ كانون الثاني- يناير مسحت أحياء الكرنتينا عن وجه الأرض بواسطة جرارات.

فكانت الحصيلة ألف قتيل مُثّل بكثير منهم تمثيلاً وحشياً. ثمَّ إن جنود بيير الجميل وكميل شمعون احتفلوا بانتصارهم بشرب الشمبانيا. فوق أكوام الجثث، وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم أبداً. وقد بُثّت صور احتفالهم هذا على مختلف أقنية التلفزيون في العالم. أما الناجون من المخيم، فإنهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في مخيمات أخرى للاجئين سيستأصلها الجنود الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق».

بدأ أبو إياد الحديث عن حصار مخيم تل الزعتر، ثم انتقل إلى الحديث عن اقتحام الموارنة لمخيمي: ضبية، والكرنتينا ومسحهما من الوجود، ثم استطرد في حديثه عن توتر العلاقات بين منظمة التحرير والزعيم الدرزي كمال جنبلاط من

جهة والنظام السوري من جهة أخرى، وتحميل الأسد وزر انشقاق الضابط أحمد الخطيب عن جيش لبنان، وانقلاب الزعيم عزيز الأحدب لجنبلاط والمنظمة... ثم عن دخول القوات السورية إلى لبنان، وعن اختطاف السفير الأمريكي [فرنسيس ميللوي] واغتياله، ثم عاد إلى حديثه عن مجزرة تل الزعتر، فقال:

«بعد عملية اغتيال [السفير الأمريكي ومستشاره الاقتصادي وسائقه اللبناني زهير المغربي] بستة أيام، بدأت معركة تل الزعتر، أطول معارك الحرب الأهلية وأكثرها مقتلة، فقد فرض اليمين المسيحي الحصار على مخيم اللاجئين منذ شهر كانون الثاني-يناير، ثمَّ شن في ٢٢ حزيران-يونيه هجوماً واسع النطاق على تل الزعتر وعلى التجمعين المجاورين له، جسر الباشا والنبعة.

وبدأت القذائف والصواريخ تمطر هناك بلا انقطاع من الفجر إلى المغيب على مدى اثنين وخمسين يوماً متتالية. ويقدر عدد القذائف التي سقطت على تل الزعتر والذي التجأ إليه ٢٠ ألف فلسطيني و١٥ ألف لبناني مسلم بحوالي ٥٥ ألف قذيفة.

وبدأ بضع مئات من أفراد الميليشيات المارونية -هي ميليشيات كميل شمعون التي عاد الكتائبيون بعد خمسة أيام، فانضموا إليها بعد تردد- بمحاصرة المخيم بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان بعشرة أيام . وببديهة الحال ، فإنهم انتظروا مبادرة دمشق ليقوموا بهذه المذبحة . ودليلي على ذلك هو رد فعل اليمين المسيحي على عرض التسوية الذي قدمته المقاومة وكمال جنبلاط إليهم في ٢٥ أيار-مايو، أي قبل التدخل السوري بأسبوع. وكان هدف الصيغة المقترحة هو بالضبط منع تدخل

دمشق العسكري. فقد عرضنا الانسحاب من كافة المناطق التي فتحناها في الجبل على أن نتركها تحت إشراف قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار، ... وسُلِّم هذا الاقتراح الذي حررت صيغته في رسالة بيدي إلى بيير الجميل بواسطة معاوني أبو حسن سلامه، إلا أن رئيس الكتائب لم يرد على رسالتي إذ كان ينتظر خشبة الخلاص الدمشقية وفرصة تحقيق انتصارات عسكرية.

والحقيقة هي أن انتصار تل الزعتر كان مشروع إبادة بالأسلوب الفاشي الصرف. وقد كان بيير الجميل وكميل شمعون يعرفان أننا لا نملك أية وسيلة فعالة لتحرير مخيم اللاجئين المطوق مع التجمعين المجاورين له تطويقاً كاملاً بواسطة حزام مسيحي يسيطر عليه الانفصاليون. وكان لدينا، في المطلق، قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار. ولكن الجيش السوري -كان لا يزال- برغم اتفاق وقف إطلاق النار الذي عقدناه معه قبل ذلك ببضعة أيام، يشل حركتنا في شمال لبنان وفي جنوبه معاً، بحيث أن سحب المقاومة لقواتها من المراكز التي تحتلها في مواجهة القوات السورية، كان سيشكل كارثة.

غير أننا أسهمنا في الدفاع عن المخيم بقصف محاصريه وبمحاولة تدمير مدافعهم المبعثرة في المدينة، وعلى التلال المجاورة. حيث كنا نتمكن من تحديد مواقعها بفضل المعلومات اللوجستيكية التي كان المسؤولون العسكريون في تل الزعتر يزودوننا بها بواسطة الراديو، وبفضل هذا الحزام الناري الذي أنشأناه، لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المخيم، غير أن المخيم كان مهدداً من الداخل بأكثر

مما كان مهدداً من الخارج، ذلك أن الحصار الذي دام أكثر من خمسة أشهر أفضى بالأهالي إلى عتبة المجاعة، بل إنّ ما كان أكثر من ذلك قسوة وفظاعة هو نقص الماء وشحه، بعد أن نجحت الميليشيات المسيحية في تفجير شبكات المياه لم يبق أمام أهالي تل الزعتر سوى بئر ملوثة شحيحة المياه، وكان البئر معرضاً لسيل من القذائف المنهمرة على المخيم، فكان لا بد من إرسال حملات بالمعنى الحقيقي للكلمة، للبحث عن الماء، وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تذهب بحياة شخصين أو ثلاثة، بحيث أن الناس في تل الزعتر اعتادوا على أن يقولوا: «إن كأس الماء تساوي فعلاً كأساً من الدم».

وقد نال ذلك من صغار الأطفال منالاً عظيماً، وبطبيعة الحال، فإنه لم يكن في الوارد تزويد الرضع بالحليب، كما أن كمية الخبز والماء الموزعة على العائلات، كانت أقل من أن تكفي صغار السن، حتى أننا كنا نسمع عندما نتحدث إلى مسؤولي المخيم بالراديو أنين وعويل الأطفال الصارخين: «أنا عطشان يا أمي»، وعلى هذا فقد مات، بخلاف البالغين، حوالي ثلاثمائة طفل ورضيع جوعاً وعطشاً إبان فترة الحصار.

ولم نكن ندرك خطورة الوضع في بداية المعركة، إلى أن اتصل بنا ذات يوم طبيبان من أطباء المخيم لطلب النجدة، وكانوا يصرون على الحديث مع مسؤولين سياسيين من المقاومة وليس مع مسؤولين عسكريين، وأحسست بغيظهم وهيجان نفوسهم عندما قالوا لي بلهجة جافة: «فإذا كنتم لا تستطيعون التوصل لوضع حد لهذه المجزرة، فجدوا على الأقل وسيلة لتموينا بالماء والغذاء!» وما لبثنا أن كوَّنا

مجموعات صغيرة تتألف كل واحدة منها من قبضة من الرجال وذلك لمحاولة التسلل وراء خطوط العدو والوصول إلى تل الزعتر، فكان على هذه المجموعات وهي تلتف على المحاصرين، أن تزحف ليالٍ بكاملها على الهضاب المجاورة للتل وعبر الحقول والغابات، وكان يستحيل على أفرادها أن ينقلوا الماء. كما أن أسلحتهم وذخائرهم لم تكن تتيح لهم أن يحملوا كميات هامة من الأغذية. وكثير منهم استشهد في الطريق، وأما الآخرون فلم يكونوا يقدمون للمحاصرين أكثر من تسكين مؤقت. إنهم لاضطرارهم إلى البقاء في المخيم كانوا يزيدون عدد الأفواه المحتاجة للغذاء.

وفي اليوم الخامس من القتال جاءني الأب يواكيم مبارك -وهو كاهن ماروني مفعم بالمشاعر الإنسانية ومعادٍ فوق ذلك للتدخل العسكري السوري- ليقدم لي اقتراحاً بوضع حد للمعارك. ويقضي الاقتراح بأن يستسلم فدائيو تل الزعتر بأسلحتهم إلى ممثلين عن الصليب الأحمر الدولي، ينتظرونهم عند أبواب المخيم، وبعد ذلك يتم إخلاء الأهالي ضمن أفضل الشروط الممكنة. فرفضت اقتراحه على الفور لأنه بدا لي غير لائق بمقاتلين في مثل بسالة مقاتلينا. وتقدمت باقتراح مضاد يقضي بإخلاء الجرحى والنساء والأطفال فقط -أو على الأقل الأطفال بدون أمهاتهم- بينما يظل الرجال جميعاً يواصلون المقاومة في داخل المخيم، فرفض. ثم تلقينا عدة عروض أخرى بعضها أذل من بعض إذ كان القوم يسعون إلى جعلنا نستسلم استسلاماً شائناً مخجلاً.

ولا ريب في أننا سنتبنى موقفاً أكثر مرونة فيما لو أن المسؤولين السياسيين والعسكريين في تل الزعتر، أو فيما لو أن المحاصرين فيه عامة، أبدوا مثل هذه الرغبة. لكنهم على العكس من ذلك كانوا أكثر تصلباً منا. وكانوا يقولون لنا: إنّ تل الزعتر بعد فلسطين، هو وطننا بالتبني. وإنهم لن يغادروه إلا محمولين على الألواح. وعندما تفاقم الوضع وفقد فيه كل أمل، ذهب أبو محسن -الرئيس السياسي للمخيم- إلى ولده مصحوباً بكافة أفراد العائلة يتضرع إليه في رفع العلم الأبيض. فكان أن استشاط محسن غضباً، وطرد أباه باحتقار ثم أبى أن يكلمه إلى أن انتهت المعركة.

وقد دقَّ احتلال مخيم جسر الباشا الفلسطيني [في ٢٩ حزيران-يونيه] ثم احتلال حي النبعة اللبناني-المسلم بعد ذلك [في ٦ آب-أغسطس] ناقوس تل الزعتر. فتمَّ عقد اتفاق بواسطة ممثل الجامعة العربية [في ١١ آب-أغسطس] حول أشكال الإخلاء التي ستطبق من الغداة. وكانت الشروط مشرفة نسبياً من حيث أن المحاربين سيغادرون المخيم مع المدنيين في آن معاً، دون أن يستسلموا للميليشيات المارونية، بل تتكفل بهم قوة السلام العربية والصليب الأحمر اللذان يزودانهم بوسائل النقل اللازمة.

غير أن أعداءنا دفعوا غدرهم الوحشي إلى غايته، وذلك عندما فتحت ميليشيات كميل شمعون وبيير الجميل النار على جميع سكان تل الزعتر، وهم يغادرون مخيمهم عزلاً من السلاح وفقاً للاتفاق المعقود، حاصدين بضع مئات من

الأشخاص. بينما انقض آخرون على داخل المخيم وراحوا يطلقون النار على كل من يصادفون، وبينما راح سواهم يوقفون الناقلات التي تراكم فيها الناجون على الحواجز المنصوبة على الطرقات، وينتزعون من داخلها بعضاً منهم، وخاصة الحديثي السن الذين يشتبهون في كونهم فدائيين، ثم يقتلونهم بوحشية أو يقتادونهم إلى جهات مجهولة. وهكذا فإن ميليشيات اليمين المسيحي اغتالت في يوم واحد عدداً من الأشخاص يزيد على عدد ما قتلوه خلال الاثنين والخمسين يوماً من حصار تل الزعتر. وبالإجمال فإن عمليتهم هذه أوقعت حوالي ٣٠٠٠ ضحية. في حين أن الألف فدائي الذين كانوا في المخيم لم يستشهد منهم سوى عشرة فقط، وسلم الباقون بعد أن أفلحوا في الفرار عبر الغابات والهضاب المجاورة مستفيدين من الفجور الدموي الذي ساد في ذلك اليوم المقدور يوم ١٢ آب-أغسطس.

ولا يخالطنا الشك في أن المدافعين عن تل الزعتر أضافوا صفحة مجيدة إلى تاريخ الشعب الفلسطيني. وستظل بطولاتهم وبطولة سكان المخيم أسطورة حية تلهم شعبنا أبداً على مدى الأجيال القادمة.

لكن جلجلة تل الزعتر أفادت في أنها أظهرت مرة أخرى، أنه ليس في وسعنا الاعتماد على غير أنفسنا. فقد أدار العالم المتحضر عينيه بخفر واحتشام عن المجزرة ... ولا ريب في أنه وُجد في أوروبا رجال ونساء سخطوا واستنكروا ونظموا الاجتماعات ومظاهرات الاحتجاج، إلا أنّ عملهم هذا ظلّ أكثر تواضعاً من أن يؤثر على مجرى الأحداث.

غير أنّ الفضيحة الحقيقية وقعت في موضع آخر، عنيتُ في العالم العربي الذي لم ترفع فيه دولة صديقة ولا عدوة أصبعها لتنقذ الخمسة وثلاثين ألف أخ من أبناء تل الزعتر. وليس في وسع أحد أن يقنعني أن مئة مليون عربي يعجزون عن كسر حصار فرضه بضع مئات من الأشخاص، أو عن أن يرفعوا صوتهم ليمارسوا به الضغوط، إن لم يكن على الميليشيات، فعلى سوريا التي تحميهم، على الأقل.

وكما قلت في مستهل هذا الفصل، فإن الدول العربية لم تكن تخشى شيئاً خشيتها لانتصار القوات الفلسطينية-التقدمية. ولأنهم كانوا مكرهين برغم كل شيء نتيجة للرأي العام عندهم على دعمنا من طرف ألسنتهم، وأحياناً على دفع معونات سخية لنا، فإنهم كانوا يمولون ويشجعون المشروع السوري في لبنان في آن معاً بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي. وحتى عندما كانوا لا يتمنون إزالة فتح، فإنهم كانوا يحرضون على تدمير الجناح اليساري في المقاومة. وخلافاً لما يمكن أن يعتقده البعض، فإن شاغلهم لم يكن حماية المعتدلين بين الفدائيين لأنهم كانوا يمدون دعمهم إلى التشكيلات الفاشية داخل جبهة الرفض.

ثم إن العديد من البلدان العربية -التي لم تكن تؤمن بوجود خطر أحمر في لبنان نتيجة لأنها أكثر اطلاعاً وعلماً- كانت تواصل، كل على حده، سياسة لا ترمي إلى الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وإنما عن مصالحها الأنانية الضيقة. فمصر مثلاً كانت تؤيدنا تأييداً مطلقاً بل وتحضّنا على أن نكون أكثر تصلباً لأنها لم تكن ترمي إلا إلى تعميق الهوة بين المقاومة ومنافستها سوريا. أما العراق فكان يفعل الأمر

نفسه في حين أن ليبيا كانت تسعى على العكس من ذلك، إلى عزل مصر لصالح سوريا. وأما الجزائر فإنها مع معونتها لنا، لم تكن تأخذ أية مبادرة جسورة لأنها لا تستطيع، كما كانت تقول لنا، أن تصرف طاقاتها في لحظة ينبغي لها أن تكرسها فيها لتحرير الصحراء الغربية.

وبالغاً ما بلغت غرابة ما سأقول، فإنه حتى موقف إسرائيل نفسها لم يكن يخلو من اللبس. فهي ترسل بالعتاد العسكري إلى اليمين المسيحي، إلا أننا لاحظنا أنها تغمض أحياناً عينيها وهي تعترض مراكب تشحن الأسلحة إلى المقاومة أو إلى اليسار اللبناني. وببديهة الحال، فإنّ الدولة الصهيونية لم تكن تريد لحرب أهلية تفيدها بقدر عظيم من الفائدة، أن تتوقف قبل الأوان نتيجة لإعواز السلاح.

أما بين الدول الكبرى التي كنا نعدها بين أصدقائنا، فإنه كان للاتحاد السوفييتي موقف إيجابي نسبياً. فهو لم يفهم في البداية طبيعة الحرب الأهلية فهماً جيداً وحسبها حرباً طائفية. وبرغم توضيحاتنا وتوضيحات الشيوعيين اللبنانيين المتواصلة، إلا أن السوفييت ظلوا ينصحوننا بألا «نزج بأنفسنا في شأن عائلي». وإنما بدؤوا يدركون أبعاد النزاع بعد مجازر ضبية والكرنتينا في كانون الثاني-يناير ١٩٧٦. ووقفوا إلى جانبنا صراحة بعد التدخل العسكري السوري في لبنان. ويقيناً أن بياناتهم وصحفهم لم تنتقد الحكومة السورية إلا تلميحاً. إلا أن الرئيس الأسد أفضى لي بأن موسكو أوقفت شحن قطع الغيار للجيش السوري منذ شهر حزيران - يونيه ١٩٧٦. كما أنه تلقى بموازاة ذلك رسائل من القادة السوفييت تحثه على إعادة الجسور إلى سابق عهدها بينه وبين اليسار اللبناني والمقاومة.

إلا أن موسكو، لعظيم أسفنا، لم تتخذ أي إجراء لكسر الحصار الذي فرضته علينا إسرائيل والانفصاليون وسوريا في البحر والبر. وهكذا فإن الأسلحة التي كنا نستلمها عبر سوريا توقفت عن الوصول إلينا. وفي اللحظة التي كان يعوزنا فيها كل شيء بما في ذلك الحليب والوقود، فإن الاتحاد السوفييتي لم يحاول أن يرسل إلينا مركب تموين حتى ولو تحت راية غير رايته.

ولهذا فإني لم أمنع نفسي في المؤتمر الصحفي الذي عقدته إبان حصار تل الزعتر عن انتقاد الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى حول هذا الموضوع. ولكنهم أصموا آذانهم. وعندما تعود بي الذاكرة إلى ذلك فإني أعتقد أن موسكو لم تكن تريد أن تتورط في نزاع قد يؤدي بها إلى المواجهة مع الولايات المتحدة، وأحسب أن دواعي الأمن ومقتضيات الانفراج تغلبت على رغبتها في مساعدتنا.

وإذا كان السوفييت قد أبطؤوا حتى أدركوا كافة مضامين النزاع اللبناني، فإن أصدقاءنا الصينيين لم يفهموا منه شيئاً. فقد ظلوا يعتقدون حتى النهاية بأن الحرب اللبنانية ليست سوى حرب ديانات، أو لعلهم كانوا مستغرقين في الأزمة الداخلية الكامنة في بكين. يبقى أنهم امتنعوا عن دعمنا في كافة المجالات سياسياً، ثم وبخاصة عسكرياً.

وعلى هذا فإننا كنا قد بتنا لوحدنا عملياً، حين شن السوريون في ٢٨ أيلول- سبتمبر هجوماً ضخماً في المتن الأعلى بهدف إزاحة القوى الفلسطينية والتقدمية عن المراكز التي احتلتها. وكانت الذريعة التي تذرع بها القوم لتبرير انتهاك وقف

إطلاق النار الساري المفعول، هو الهجوم الذي شنه أربعة فلسطينيين قبل ذلك بيومين على فندق سميراميس في دمشق واسترهنوا فيه رهائن. وقد قتل أحدهم خلال العملية بينما شنق الثلاثة الآخرون في الغداة في إحدى الساحات العامة. وأقول أن الأمر كان ذريعة لأن أصحاب العملية كانوا أعضاء في إحدى منظمات جبهة الرفض ذات الميول العراقية، ولم تكن لهم أية علاقة بقيادة المقاومة. بل على العكس من ذلك فإنهم كانوا مناوئين لخطنا السياسي. ومن الصحيح كذلك أن نائب وزير الدفاع السوري اللواء ناجي جميل كان قد طلب منا خلال اجتماع في صوفر في ١١ أيلول-سبتمبر أن نسحب كافة قواتنا بدون قيد أو شرط وأن ننكفئ إلى المواقع التي تبيحها لنا **اتفاقية القاهرة**. الأمر الذي رفضته حينذاك بسبب معارضة حليفنا كمال جنبلاط».

وعن علاقتهم بالزعيم الدرزي كمال جنبلاط، يقول صلاح خلف:

«وبرغم بعض التباينات التكتيكية التي كانت بيننا وبين جنبلاط من حين لآخر، إلا أننا كنا نكن أعظم الاحترام لرئيس **الوحدة الوطنية**. فقد كان جنبلاط -تغمده الله بالرحمة- وطنياً صادقاً عظيماً وقائداً سياسياً عبقرياً. وكانت له دراية عميقة وفهم فطري للبنان واللبنانيين الذين يحبهم بكل جوارح وجوده. إلا أنه لسوء الحظ لم يكن يدرك دائماً تعقيد الظرف العربي واللعبة التي تدور على المسرح الدولي.

كانت تحليلاتنا وتحليلاته تتباين بالنسبة لهذا الموضوع حول نوايا سوريا ومقاصد الولايات المتحدة. فالسفير دين براون الذي كان يعمل بناء على تعليمات

هنري كيسنجر -رئيس مجلس الأمن القومي الأمريكي حينذاك- أكد له بأن حكومته تعارض تدخل دمشق عسكرياً في لبنان، وأن الجيش السوري لن يجرؤ على أية حال أن ينطلق إلى ما وراء مدينة صوفر. وصدّقه كمال جنبلاط. ومن هنا كان رفضه العنيد لسحب قواته من المتن الأعلى.

وكنا نتوقع هجمة سورية مؤيدة من الولايات المتحدة ومن بعض البلدان العربية. وكان في تقديرنا كذلك أن تدخل سوريا قلَب موازين القوى لصالح الانفصاليين. وقد حذر مسؤولونا العسكريون كمال جنبلاط بأنه إذا كان من الصحيح أنّ في وسعنا الصمود للميليشيات المسيحية إلى ما لا نهاية، إلا أنّ أية مقاومة للجيش السوري الذي يتمتع بمدفعية ثقيلة ودبابات وصواريخ أرض-أرض، ستكون عملاً انتحارياً.

وهكذا فإن قيادة المقاومة بالإجمال، كانت تؤيد انسحاب القوات الفلسطينية التقدمية المشتركة خاصة وأنها تريد تلافي مواجهة مع سوريا توشك أن تكون مضرة على المدى الطويل.غير أن بعضاً منا كان يرى أن علينا أن نعمد إلى الجلاء دون تأخير متجاوزين اعتراضات جنبلاط، بينما كان آخرون، وأنا من جملتهم يدعون إلى مواصلة الحوار مع الزعيم الاشتراكي لإقناعه بصحة تحليلنا، وكنت أقول: إنه لا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال كسر تضامننا مع الحركة الوطنية اللبنانية، وذلك لسببين: الأول: سياسي والثاني: معنوي، وكان تقديري أن الوفاء يقتضي ألا نخل بالتزاماتنا إزاء تشكيلات سياسية أيدتنا بأمانة منذ نهاية سنوات

الستين، وإزاء جزء من الشعب اللبناني الذي رضي أن يتحمل تضحيات جسيمة وهو يقاتل إلى جانبنا طيلة الثمانية عشر شهراً التي استغرقتها الحرب الأهلية. وبخلاف ذلك فإننا نرتكب خطأ سياسياً خطيراً إذا ما قطعنا صلاتنا بالجماهير التي تثق بجنبلاط».[1]

(١) فلسطيني بلا هوية. أبو إياد صلاح خلف، صفحات (٢٧١) ومن (٢٨٧-٢٩٢).

شهود المجزرة [١]

أولاً: شهادات المقاتلين:

١) سليمان:

برز مخيم تل الزعتر على صعيد الأحداث لوقوعه تحت حصار متقطع دام سبعة أشهر تحمل خلالها ٥٥ ألف قذيفة من مختلف العيارات. وبرهن أنه صانع معجزة الصمود رغم نفاد المياه والمواد التموينية وضراوة القتال وكان يسقط منه يومياً ما بين ١٢ امرأة وطفلاً بين قتيل وجريح بسبب الماء وما بين واحد إلى خمسة بسبب فقدان الأدوية والمعدات الطبية.

المؤامرة لم تكن أمريكية-صهيونية فهناك أنظمة عربية شاركت في اقتلاع المخيم وتدميره سواء عن طريق الصمت أو المساهمة الفعلية في مؤازرة الأعداء، ومع ذلك استطعنا اختراق طوق الحصار ووصلنا إلى رفاقنا و إخوتنا في الجبل بطريقة عسكرية منظمة مقسمة إلى سرايا، واستغرقت عملية الانتقال ما بين ١٤-٢٠ ساعة مشياً على الأقدام. وخلال الخروج العسكري اشتبكنا مع القوى الانعزالية ودمرنا لهم بعض الآليات والأعتدة وأجبرناهم على إخلاء منطقة واسعة، مكنت

---

(١) حصار تل الزعتر، مؤلفه علي حسن خلف، دار ابن رشد للنشر والتوزيع في عمان عام ١٩٨٦، وهذه هي الطبعة الثانية، أما الأولى فقد صدرت في بيروت بعد المجزرة بقليل، والشهود ما بين مقاتل وقيادي ميداني وطبيب وجريح وأمهات ثكالى.

المقاتلين من الخروج وبرفقتهم مئات المدنيين.

الصاعقة[١]، تحولت بعد تصفيتها في بيروت الغربية إلى مجموعة صغيرة مرتبطة بالمخابرات السورية وبمصالحها التي نمت من خلال السرقات. وتمكنا من ضبط اتصال مباشر بين مسؤول الصاعقة في المخيم المدعو بلال الحسن وبين الكتائب وشكلنا له محكمة ثورية ولكنه توارى قبل تنفيذ الحكم، كما أن جماهير المخيم واجهت دعوات الاستسلام التي روّج لها المسؤولون في الصاعقة ونبذتهم، دافعنا عن المخيم بحوالي ألف مقاتل من مختلف التنظيمات بالإضافة إلى المليشيا، وخلال ٥٢ يوماً لم يتم أسر مقاتل واحد، رغم وقوع ٣ آلاف شهيد وخمسة آلاف جريح.

٢) أبو أحمد زعتر:

نحن في الجبهة الشعبية أدركنا منذ البداية أنّ مجزرة عين الرمانة، هي الانطلاقة لتنفيذ مؤامرة إمبريالية-صهيونية تهدف إلى تصفية المقاومة أو على الأقل تحجيمها بحيث يتم إخضاعها لصالح العدو الصهيوني، نحن كنا ندرك بأنّ هناك مؤامرة منذ عام ١٩٦٩ يوم مجزرة الكحالة، واعتبرنا حادثة عين الرمانة مثل حادثة اغتيال الأرشيدوق النمساوي في الصرب، قبيل الحرب العالمية الأولى لم تكن هي سبب

---

(١) الصاعقة منظمة فلسطينية زرعها النظام الباطني السوري في كيان منظمة التحرير الفلسطينية، وهي بمثابة طابور خامس داخل منظمة التحرير، أما بلال الحسن فهو مسؤول الصاعقة داخل مخيم تل الزعتر، وأظنه -ولا أجزم- شقيق خالد وعلي وهاني الحسن، ورئيسها زهير محسن الذي جرى اغتياله في فرنسا.

الحرب وإنما كانت الشرارة التي تعلن عن بدء اندلاع الحريق، أدركت جماهير تل الزعتر بشكل عفويّ بأنها هي المقصودة، وهي عبارة يتناقلها الناس منذ بدء الحوادث، وهي: «بدأت في تل الزعتر وستنتهي في تل الزعتر» مما يفسر ضراوة المعارك منذ ١٣ نيسان، مخيم تل الزعتر جزيرة محاطة ببحر من الأعداء بين الجولة والجولة، كان سكان المخيم يخرجون إلى أعمالهم الواقعة في مناطق يسيطر عليها انعزاليون أكثريتهم عمال في معامل ومحترفات بيروت والدكواني وسن الفيل والدورة، عدد كبير من سكان تل الزعتر قتل قرب مستشفى أوتيل ديو العدلية، بينما هم عائدون إلى التل من بيروت.

في نهاية عام ١٩٧٥، قلنا لا بدّ من فتح الطريق إلى النبعة أو احتلال حرج ثابت، بدأنا نشعر أن الخطر على المخيم ليس من الناحية العسكرية بل من الناحية التموينية، اقترحنا احتلال شريط من منطقة سلاف وفتح الطريق إلى النبعة، وكنا نواجه دائماً بالجواب التقليدي الشهير، وهو أن سلاف وحرج ثابت ليستا حيفا وعكا حتى نحتلها، وفي النهاية وبنتيجة للحصار الشديد المرهق اتخذ قرار محلي من مختلف التنظيمات الموجودة في التل باحتلال حرج ثابت، ووضعت خطة لاحتلال قسم من حرج، ولو رافق تنفيذ الخطة ضغط من قيادة المقاومة في هذه المنطقة لنجحت وفتحنا الطريق، ولكن الشيء الوحيد الذي حققناه كان الرعب في قلوب الانعزاليين لرؤيتهم هذا المخيم الصغير المحاصر يخرج من بين أسواره

ويهاجم، خسرنا نحن كجبهة شعبية تسعة من خيرة مقاتلينا.

في اعتقادي أنّ التقسيم ما هو إلا تهويل على الحركة الوطنية اللبنانية، فالمخطط الحالي يستهدف مد سيطرة القوات الانعزالية والسورية على كل لبنان، لكن إذا فشل المخطط، فإنّ تطهير الجيوب الوطنية من المنطقة التي يسيطر عليها الانعزاليون يجعل التقسيم أمراً واقعاً، ولا أستبعد أن يكون في نية شمعون إقامة دولة مارونية هو زعيمها.

يوم الثلاثاء في ٢٢ حزيران ١٩٧٦ انهمر القصف على المخيم بمعدل ١٦ قذيفة في الدقيقة الواحدة، وبدأ الهجوم معززاً بالدبابات على ضيعة المكلس غير المحصنة، وكان واضحاً في الأسبوع الأول أن ميزان القوى يميل لمصلحة الانعزاليين، واحتلوا الكنيسة واسترجعناها، واحتلوا الجرفى واستعدناه، واحتلوا تلة المير واسترجعناها، لكن خطة إعادة تطهير ضيعة المكلس فشلت بسبب تقاعس بلال الحسن قائد الصاعقة والمكلف بقيادة مجموعة لمهاجمة الضيعة من المخيم، وسقطت تلة المير بسبب انعدام التحصين وخيانة بلال الحسن والفارق الهائل في ميزان القوى والقصف.

بالنسبة إلى المياه، كانت المياه تنقطع طوال ساعات النهار وقسماً من الليل، وكان الناس يقفون في الصف قرب القسطل منذ الساعة السادسة مساء ينتظرون مجيء المياه التي قد تأتي في العاشرة صباحاً أو في منتصف الليل لتقطع من جديد في الرابعة صباحاً، وكان على ٣٥ ألفاً من السكان أن يحصلوا على مياههم خلال تلك

الساعات القليلة، وأكثر المنتظرين قرب القساطل كانوا من العجائز والأطفال لانشغال بقية السكان بتوفير مستلزمات المعارك الدائرة باستمرار.

كان الانعزاليون يعرفون مصدر الماء، وقد جعلوا منه مصيدة للناس، في إحدى الليالي جاؤوا بعشرين شهيداً مرة واحدة من الذين ينتظرون نقطة الماء.

من ناحية العدس اكتشفنا مخزناً للعدس في معمل غزة وأخذته الجماهير وبقينا نأكل منه، لكن العدس يحتاج إلى مياه ليسلق ولم يكن باستطاعة الناس أن يأتوا بالماء فيقضون ذلك اليوم بلا شرب وبلا أكل، توفي أكثر من خمسين طفلاً نتيجة اختفاء الحليب والماء.

بالنسبة إلى الطبابة كان هناك مركز الهلال الأحمر ومستوصف الجبهة الشعبية، ولعب الهلال دوراً عظيماً في إنقاذ أرواح الجرحى والتخفيف عنهم، وأود أن أخص بالذكر والشكر الدكتور عبد العزيز اللبدي والدكتور يوسف العراقي وكل الفريق الطبي الذي لم يكن يرتاح أبداً، كان يشتغل في ظروف يستحيل تصورها بالإضافة إلى النقص في الشاش والأدوية وكل الأجهزة اللازمة.

أما مستوصف الجبهة الشعبية فقد استقبل جرحى كثيرين بفضل موقعه بين الدكوانة وتل الزعتر وبعد اشتداد الأزمة، توقف الأطباء السويديون عن العمل، لأنهم لا يجرؤون على معالجة الجرحى بلا تعقيم ولا أدوات ولا مياه، وهنا برز دور إلياس العشي فأجرى عمليات جراحية ناجحة، وهو ممرض فقط وليس طبيباً، ولما

أجلى الجرحى ورتب مستوصفه طالعته مجموعة من الانعزاليين فسأله أحدهم: ما اسمك؟ فقال: إلياس فكان الجواب: إلياس كمان؟ ومع الجواب رشقة رصاص غطّت جسده بالثقوب.

عشنا في تل الزعتر وحدة فعلية بين المقاتلين من كافة التنظيمات، عناصر الصاعقة كانت نقيض قائدها فقد اتحدت معنا وقاتلت بشراسة، أذكر من عناصر الصاعقة أبو نوال الذي قاتل في معركة المكلس كما لم يقاتل أحد واستشهد مع بعض عناصر الصاعقة يوم كان يرد الهجوم الانعزالي على بناية في أطراف المخيم، كان بلال يسكن في أحد طوابقها.

٣) احمد حمزة:

في اليومين الأولين للمعركة قاتلت في تلة المير-محور الجرفي، وكان القتال ضارياً إذ أوقعنا خسائر عديدة في صفوف الانعزاليين وسقط أربعون شهيداً من القوات المشتركة.

وفي اليوم الثالث حوّلني صالح زيدان إلى الدير قرب جورج متى، وفي معارك استرداد المعامل جرحت وجرح مفيد حمزة واستشهد محمود قهاوش وثلاثة رفاق منهم موفق كويدر.

بتاريخ ٢٣ تموز تمت مجزرة رهيبة بسقوط البناية على من فيها نتيجة القصف، وهناك كانت عائلتي المؤلفة من ٥١ شخصاً من آل حمزة واستشهدوا

جميعاً داخل الملجأ.

٤) سليمان أحمد:

كنت في منظمة الصاعقة أثناء الهجوم على تل الزعتر، وشاركت مع بعض زملائي في الدفاع عن المخيم، وفي المدة الأخيرة لاحظت أن بلال حسن مسؤول الصاعقة في المخيم يقوم بتصرفات شاذة، منها الاتصال بالانعزاليين، والعمل على تهجير العائلات اللبنانية منه، بالإضافة إلى إخفائه الذخيرة والأسلحة التي كانت بحوزة الصاعقة.

٥) صالح زيدان:

مما جاء في شهادته: مسؤول الصاعقة بلال حسن طالب باجتماع للمنظمات لأن المخيم سقط ولا داعي للمقاومة، والمطلوب البدء بالمفاوضات لتأمين الانسحاب، وتمّ الاجتماع وانتصر تيار الصمود. وفي مجرى القتال تبين أنّ تنظيمين أساسيين هما القادران على حماية المحاور والدفاع عنها، وأقصد حركة فتح والجبهة الديمقراطية، فبدأنا بعقد الاجتماعات المشتركة بيننا وبصورة يومية داخل غرفة العمليات.

بعد احتلال تلة المير شنّت القوى الانعزالية هجومها على القلعة لما تمثله من عمق استراتيجي ولأبنيتها العالية المشرفة على الدكوانة والمخيم، بدأ الهجوم في الحازمية مستهدفاً محور الصاعقة الذي سقط سريعاً، وبسقوط مواقع الصاعقة أصبحنا نحن -زيدان يمثل الجبهة الديمقراطية- وفتح مكشوفين للانعزاليين حيث دخلوا القلعة من الخلف، فقاتل رفاقنا ببسالة وأبادوا كل الذين تمكنوا من

دخول القلعة، ولكثافة الهجوم استشهد جميع رفاقنا.

وتنبهنا بعد سقوط النبعة إلى أهمية الجبهة الداخلية، وضرورة رصّ الصفوف لتطويق الصاعقة واتجاهها الاستسلامي، واستطعنا بعرق المقاتلين ودمهم من بناء التحصينات، ورفع شعار التموين الموحد وتطبيقه والمساهمة في ابتكار أنواع جديدة من الخبز، وذلك بخلط العدس المطحون مع النّشا، ويسجل للمرأة دورها في القتال المباشر إلى جانب الرجل بالإضافة إلى دورها في تجميع أكياس الرمل وإغلاق الطرقات والإشراف على الجرحى وجلب المياه.

ثانياً: شهادات الجهاز الطبي والجرحى:

١) الدكتور عبد العزيز اللبدي:

بلغ عدد الجرحى ثلاثة آلاف جريح والشهداء ألفان ٩٠ ٪ منهم من الأطفال والمدنيين، وهناك عائلة بكاملها نكبت بسبب شربة ماء، إذ أرسلت إحدى بناتها إلى البئر فقتلت، وفي اليوم الثاني أرسلت العائلة الفتاة الثانية فقتلت، وفي اليوم الثالث ذهبت الفتاة الثالثة ولم تعد.

٢) جان هوفليغر:

عندما دخلنا المخيم شاهدنا العديد من النساء والأطفال والعجزة مصابين بالغرغرينا والكزاز، كما شاهدنا أطفالاً كثيرين فقدوا الحياة بسبب عدم وجود المياه.

٣) الدكتور لاري سميدمان:

جهاز توزيع الماء في المخيم أعطب كلياً، وإذا لم يتحقق عمل شيء فإننا جميعاً سوف نموت خلال ثلاثة أيام.

٤) الدكتور يوسف العراقي:

ارتكب الأعداء جريمة بشعة بحق البعثة الطبية حيث أعدموا كل الذكور من الممرضين رمياً بالرصاص في حين فُقدت اثنتان من الأخوات الممرضات، ولم يعرف مصيرهن.

عند أحد الحواجز تعرف إليّ أحد عناصر الكتائب وكنت قد أجريت له عملية

في وقت سابق من العام الماضي، فأخذني إلى الداخل وتركت إخواني العشرة الممرضين الذين صفوا اثنين اثنين، ومن الداخل سمعت زخات رصاص وصراخ، ثم سكت كل شيء.

في الداخل التقيت ضابطاً سورياً، فساعدني هو الآخر للوصول إلى مكتب جريدة العمل، وذلك بأن أقول إذا سئلت أنني أنتمي إلى الصاعقة، وهكذا وصلت إلى مكتب الجريدة حيث التقينا بالدكتور حسن صبري الخولي الذي أصرّ على اصطحابي مع الدكتورين إلى المنطقة الغربية.

٥) فاديا سالم:

ربما لإدماننا حالات الموت البطيء، لا أجد ما أقوله عن الجرحى كممرضة في الهلال، منظر واحد ارتسم في مخيلتي إلى الأبد، وسأنقله إلى أولادي وربما يُحكى ذات يوم كقصة من قصص المنفى وحكايات العذاب الفلسطيني.

شاهدتُ أماً لها خمسة أطفال يتلاحقون في العمر والطول حيث سقطت قذيفة بالقرب منهم، وأصيب اثنان وتملكت الأم حالة فزع شديد، واكتفت بأن احتضنت الأطفال وظلت تبكي وتستنجدني لإنقاذ أطفالها.

ركضت نحوها محاولاً النجدة، حينها سمعت أمي من ورائي تحذرني من الكتائب الذين صاروا على مقربة منا، والمرأة سمعت صوت أمي أيضاً، فتحجر الدمع من عيونها وجحظت وهي تتفحص الأولاد الثلاثة غير المصابين وتضع الاثنين الآخرين بين رجليها، يبدو أنها اختارت إنقاذ الثلاثة، فوقفت وشخَص

الجريحان نحوها، وقالا وهما يبكيان: «يا خذينا معك» تطلعت الأم نحو الطفلين وغصَّت بالبكاء، وأطلقت ساقيها للريح وهي تحمل الثلاثة وأنا أعدو خلفها وبين يدي ابن أخي الصغير.

٦) جميلة محمد العينا:

لا شيء نقدمه لوالدي الجريح سوى الماء والملح، كنا نحاول خداعه، لكنه كان يدرك أن العلاج غير متوفر، وأنه هالك لا محالة، فاستشهد متأثراً بجراحه، ولم تلتئم جراح الحزن حتى اغتيل أخي وهو في الطريق إلى البيت.

عند حواجز الخروج، تقدم شاب فاشيستي من امرأة تحمل ابنها الرضيع وأمرها بقطع رأسه، ناولها الخنجر فابتلّ وجهها بالدموع وصارت عيونها كمرجل من الغضب، لكنه لم يتراجع، وظل السكين يرتعش داخل يد الأم، ويصفر لونها حتى سقطت ميتة، فأطلق النار على الطفل وأوقف صراخه، ولم ينته الفاشي من جريمته حتى مرت طفلة عمرها ثماني سنوات وكانت تسير بجوار أمها، فادعى أنها تحملق به كالمقاتلين، وقام بقتلها.

٧) حسن كامل:

أُخلي جرحى تل الزعتر على ثلاث دفعات، الدفعة الأولى وشملت ٩١ جريحاً في ٣ آب ١٩٧٦ والثانية ضمت ٢٤٣ جريحاً في الرابع من آب، والثالثة كانت ٧٤ جريحاً... من آب عبر قوافل للصليب الأحمر الدولي.

الكتائب ماطلت في خروج الجرحى وأعادت للمرة الثانية عربيات الصليب

الأحمر في الثاني والعشرين من تموز والتي توجهت من الكورال بيتش إلى التل.

اتفاق السادس والعشرين من تموز، الذي توصلت إليه بعثة الصليب الأحمر الدولي مع القيادة الفلسطينية من جهة ومع طرفي القيادة الانعزالية من جهة ثانية، تعرض إلى عرقلة كتائبية-شمعونية بإطلاق النار على قوافل الصليب الأحمر، ولم ينفذ إلا في الثالث من آب تحت زخات الرصاص وعشرة حواجز للتفتيش والتدقيق والسرقة والضرب.

٨) جبران:

قاتلت في محور سماه المقاتلون باسمي، كان الانعزاليون في الغرفة المجاورة ولا يفصلنا سوى الحائط، حين شعرت بشلل في يدي، وحاولت إمساك البندقية فلم أستطع، ثلاثة أيام وأنا فاقد الوعي، هكذا أبلغوني عندما صحوت، وقيل لي أن دير الراعي سقط، وتلة القيادة العامة سقطت، فأرسلت زوجتي وأخي وابن خالي في مهمة إتلاف أوراقي في البيت، وأبلغوني لاحقاً أن ثلاثتهم استشهدوا وهم في الطريق نتيجة القذائف الصاروخية.

المستوصف يخص الجبهة الشعبية، وبه طبيب سويدي وممرضة سويدية، وكانت عمليتي آخر عملية فيه، عندما خرجت من المستشفى إلى المحور رقم واحد محور الشهيد حسن توفيق، دهشت لأنني لا أعرف سوى المفوض السياسي المقاتل حسن أرمسلي، فسألت عن الآخرين، وقيل لي: «إنهم استشهدوا جميعاً».

مرة أخرى استوقفونا أمام مخفر تل الزعتر، وتعرضنا لزخات من الرصاص

فوق رؤوسنا، وما لفت نظري وقوف النساء -يعني المسيحيات- المتشحات بالسواد على شرفات المنازل لشتمنا ونحن نمر في الشوارع، مما يدل على جسامة خسائر الانعزاليين.

ثالثاً: شهادات أمهات الشهداء:

١) زهية محمود عراقي:

إذا أحضرنا الماء أكلنا العدس المغلي، وإذا فشلنا بقينا دون طعام، وكأن التل تحول إلى زنزانة يحرسها ويدكها السجان الكتائبي، ومن خلفه عربي يحرسه حتى لا يخطئ في التنشين.

٢) مريم رضوان عمر:

ذبحوا زوجي أمام عيني، وذبحوا أولادي الثلاثة، قلت لهم: «إني سورية ولست فلسطينية أو لبنانية، ولكنهم لم يتراجعوا».

٣) خيزرانة عصام احمد:

اختارت امرأة مارونية تريد الثأر لأولادها رجلاً من بيننا، ونحن في الفندقية، فكان أحمد حميد من علما، أخذت تضربه بالخنجر على رأسه حتى سقط، ثم تناولت مسدساً من كتائبي وأجهزت عليه.

٤) ليلى:

حاولت جاهدة تحريك ذراعي أو قدمي تحت الركام ولكن دون جدوى، على بعد أمتار مني سمعت امرأة لبنانية تستغيث، ومن صوت الرجل عرفت أنه أبي، فصرخت: «أنا ليلى يا أبي» وكان أبي منهمكاً بإخراج المرأة ثم عاد وانتشلني، رجع مرة أخرى ليبحث عن عمي فوجده جثة هامدة، وكذلك ابن عمي وابنته زينب وعمرها ثماني سنوات.

٥) فاطمة قدورة:

ألقت الكتائب القبض على ابني حسن كامل قدورة وهو يحمل جريحاً، أنزلوا الجريح عن ظهره وطعنه أحدهم بالسنجة في ظهره، قام وحاول الهرب، فأطلقوا عليه النار وأجهزوا على الجريح، أخي استشهد عند بئر الماء، ابن أخي استشهد وهو يقاتل، أولادي الآخرون لا أدري ماذا حلّ بهم؟

٦) نايفة شحرور:

أخذوا أولادي الأربعة ووصلت وحيدة إلى بيروت الغربية.

الفصل الثاني

مجازر عام ١٩٨٢

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الاجتياح الإسرائيلي للبنان.

المبحث الثاني: مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢.

المبحث الأول

الاجتياح الإسرائيلي للبنان

كانت الأجواء السياسية في منتصف عام ١٩٨٢ تنذر بحرب ما بين إسرائيل من جهة، ومنظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها من جهة أخرى، لأنّ العمل الفدائي لم يتوقف رغم كل ما وضع في طريقه من معوقات، وكانت قيادة المنظمة ترصد استعدادات إسرائيل، وكما هو معتاد في بلادنا، فقد قالت بأنها أعدت لكل شيء عدته، وسوف تلقن العدو درساً لن ينساه.

وفي [٤/ ٦/ ١٩٨٢] بدأت القوات الإسرائيلية في اجتياحها للبنان، فالطائرات المعادية سيطرت على أجواء لبنان كله، وتبعتها بعد يومين القوات البرية التي يزيد عددها على [٢٠ ألف] جندي. وبسرعة خاطفة اجتاحت هذه القوات جنوب لبنان، ثم واصلت سيرها نحو بيروت، وعلى مشارف العاصمة استقبلتها القوات المارونية بحفاوة بالغة، وأمدتها بالنصائح وكافة المساعدات التي تحتاج إليها.

قصفت قوات الجيش الصهيوني بيروت الغربية -أي القسم السني من بيروت الذي يضم اللبنانيين والفلسطينيين- براً وبحراً وجواً، ومنع الماء والغذاء والدواء والمحروقات والكهرباء عن بيروت الغربية وحدها دون الشرقية، بل شاركت الأخيرة في هذا الحصار، ومن الأمثلة على شدة القصف ما نقلته وكالات الأنباء عما حدث يوم الأحد [١/ ٨/ ١٩٨٢] قالت: استمر القصف هذا اليوم براً وبحراً

وجواً أربع عشرة ساعة متواصلة، سقطت خلالها ١٨٠ ألف قذيفة أي بمعدل يزيد على ٢١٤ قذيفة في الدقيقة الواحدة، وتكرر مثل هذا القصف يومي الثالث والرابع، ثمّ العاشر والثاني عشر من الشهر نفسه. لقد هدموا المنازل على قاطنيها، وروّعوا الأطفال، وثكلوا النساء، وعاش سكان بيروت الغربية أياماً من الرعب لا تنسى، وامتزج دماء اللبنانيين السنة بدماء إخوانهم الفلسطينيين -وكلهم من السنة-، وكانت الخسائر فادحة جداً.

الموقف العربي:

عقدت جامعة الدول العربية مؤتمراً طارئاً لوزراء خارجية البلدان العربية بعد ثلاثة وعشرين يوماً من الاجتياح الإسرائيلي، وتفرقوا دون أن يتخذوا قراراً مناسباً بسبب ما وقع بينهم من خلافات. أما [ن.ب.س] الذي دخل لبنان من أجل حماية الثورة الفلسطينية -كما زعم-، فقد خاضت قواته معركة هزيلة وسريعة مع قوات العدو الصهيوني، انتهت بتدمير صواريخه في البقاع وسقوط عدد من الطائرات، وعلى إثر ذلك انسحبت قواته إلى البقاع، وصدر عن القيادة المركزية للجبهة الوطنية في دمشق [١٩/ ٦/ ١٩٨٢] البيان التالي:

«إن ما جرى في لبنان ليس نهاية معاركنا، وسنناضل لطرد الغزاة..».

وأضاف البيان:

«لا يعقل أن نترك الجولان، ونعلن الحرب على إسرائيل من لبنان».

وفي [٢٥/ ٦/ ١٩٨٢] عقد وزير الخارجية السورية عبد الحليم خدام مؤتمراً

صحفياً، قال فيه:

«إن سوريا حاولت تجنب الحرب نظراً لحدوث اختلال التوازن العسكري في المنطقة نتيجة خروج مصر على الصف العربي بعد التزامها باتفاقية كامب ديفيد».

وفي كلمة لحافظ أسد من دمشق [٢٠/ ٧/ ١٩٨٢] قال:

«إن القوات السورية دخلت إلى لبنان لأداء مهمة محددة، هي إنهاء الحرب الأهلية التي فرقته خلال عامي: ٧٥، ٧٦ ولم تذهب لتحارب إسرائيل من هناك».

هذا ما قاله الأسد عبر أجهزة الإعلام، أما ما قاله لمبعوث عرفات في لقاء مغلق:

«أريد أن تهلكوا جميعاً لأنكم أوباش».

أما ليبيا فقد زعمت أن أسباباً جغرافية حالت دون القيام بعمل عسكري ليبي مباشرة على الجبهة الشمالية في لبنان.[1]

وبقية الدول العربية كانت تتمسك بلقاءات وزراء خارجية دولها في جامعة الدول العربية، وما صدرت عنها من تصريحات، وتناشد مجلس الأمن ليتدخل، كما تناشد أمريكيا وغيرها من الدول الكبرى.

الموقف اللبناني:

في لقاء للرجل الثاني في فتح ومنظمة التحرير صلاح خلف مع مجلة المجتمع

---

(١) الوكالات: ١٥/ ٦/ ١٩٨٢.

الكويتية بين فيه سبب وصول القوات الإسرائيلية إلى مشارف بيروت بسرعة خاطفة، قال:

«إن عدم وجود عمق لساحة القتال في الجنوب شكّل عائقاً لنا، فقد كان المدى الأرضي أحياناً لا يزيد في الجنوب عن أربعين متراً، ونحن محاطون بالعدو من البر والجو والبحر، وبعد صيدا حُرمنا من أن نضع مدفعاً واحداً من قبل الدروز، ورئيس الحركة الوطنية بالذات، أما القوات السورية في الجنوب فحسب ادعاء السوريين ليست للقتال».

وأضاف صلاح خلف مفنداً موقف الدروز بشكل عام:

«أنا لا أستحي أبداً من الحقيقة.. الأخ وليد جنبلاط رئيس الحركة الوطنية، ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني، رفض أن تتواجد أو تنقل أسلحة إلى منطقة نفوذه في الشوف.. قال لنا: إن عنده أسلحة كافية وسيقاوم في الشوف، ونحن نعلم أنه كان عنده فعلاً سلاح جيد، لكن الذي حدث أن الأخ وليداً وإخواننا الدروز لم يقاتلوا خلال الغزو الأخير.. ورأينا مجيد أرسلان، وفيصل أرسلان وجماعتهما بعد أن وعدوا المسلمين بالقتال معهم ضد بشير الجميل والكتائب، تخاذلوا أمام الأموال، بينما انحشرنا نحن في شريط ساحلي ضيق من صور لصيدا لبيروت، والمعركة الوحيدة التي دارت على مدى خمسة أيام في الشريط الساحلي كانت معركة

[خلدة] البطولية التي استشهد فيها خيرة رجالنا والتي كنا فيها وحدنا».[١]

مثال آخر على موقف جنبلاط وشخصيته: قال بسام أبو شريف في كتابه [ياسر عرفات]:

«عندما أحكم الإسرائيليون طوقهم على بيروت، واستقر شارون في فندق ألكسندر في بلدة برمانا في المتن، قام مسؤولون إسرائيليون بزيارة وليد جنبلاط في قصر المختارة في بلدة المختارة في جبل الشوف.

بعد ذلك استُدعي وليد جنبلاط للقصر الجمهوري -حيث فيليب حبيب المبعوث الأمريكي لمتابعة حرب لبنان- واعتذر عندها وليد جنبلاط بسبب عدم سلامة الطريق، فقرر فيليب حبيب إرسال سيارة السفير الأمريكي المصفحة ضد الرصاص والقذائف، وذات الحصانة أمام الحواجز الإسرائيلية لتحضر وليد جنبلاط للاجتماع الذي اعتبر آنذاك هاماً جداً. علمنا في بيروت أنّ فيليب حبيب اقترح تشكيل لجنة استشارية مكونة من أربعة أشخاص: ماروني، سني، شيعي، ودرزي والدرزي المقترح كان بطبيعة الحال وليد جنبلاط.

بعد أن أنهى وليد جنبلاط الاجتماع الذي عقد في القصر الجمهوري في بعبدا توجه إلى بيروت الغربية نحو منزل آل جنبلاط في المصيطبة الغربية من كورنيش المزرعة. كان وليد كمال جنبلاط متوتراً جداً وقلقاً. جلس على المقعد الذي كان

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية: ٣٠/ ١/ ١٤٠٣.

يجلس عليه والده المرحوم كمال جنبلاط وهو يهز ساقيه بتوتر.

كان يفكر فيما العمل. من أين عليه أن يبدأ؟ فقد حمل رسائل غاية في الخطورة لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ولرئيسها ياسر عرفات. استمرت هذه الحال بوليد قرابة نصف ساعة. كان غارقاً في التفكير والقصف ينهال على المنطقة من كل الاتجاهات. وأخيراً هبَّ واقفاً وطلب من مرافقه أن يتصل بالأخ محسن إبراهيم أمين سر المجلس الأعلى للقوى الوطنية اللبنانية الذي اتفق معه على الحضور فوراً للشأن الهام الذي حمله وليد جنبلاط من بعبدا.

وما أن وصل محسن إبراهيم مقر جنبلاط في المصيطبة حتى أسرع صاعداً الدرج القديم المؤدي إلى غرفة مكتب جنبلاط الفسيحة والتي تملأ جدرانها مئات الكتب والمجلدات القديمة.

حيّاه وليد ودعاه للجلوس وتهاوى إلى ذلك المقعد الجلدي الطويل. وعادت ساقاه الطويلتان تهتزان بتوتر، وبدأ يروي لمحسن إبراهيم قصة ما جرى منذ أن زاره الإسرائيليون في المختارة إلى أن وصل بيته في المصيطبة. أطرق محسن إبراهيم مفكراً، ثمّ قال على عجل: يجب أن تدعو لاجتماع طارئ للقيادة المشتركة كي تطرح عليهم مباشرة كل ما دار وماهية الرسالة والاقتراحات المتصلة بوضع بيروت.

ودّع محسن إبراهيم وليد جنبلاط على أن يتصل به خلال ساعة لإبلاغه بما تم بالنسبة لدعوة القيادة المشتركة اللبنانية-الفلسطينية لاجتماع طارئ لإبلاغهم بما حصل. توجّه محسن إبراهيم فوراً نحو غرفة عمليات جديدة اتخذ منها الأخ أبو

جهاد مقراً مؤقتاً بسبب القصف المستمر لغرف العمليات الأخرى أو محيطها.

كانت غرفة العمليات تلك قبواً لبناية قرب ثكنة الحلو اللبنانية والتي كانت مقراً لقوات الفرقة ١٦. وهي فرقة أمن للتدخل ضد الشغب!!

كنت هناك أتحدث مع الأخ أبو جهاد حول الوضع وتوقعات محاولة شارون اقتحام بيروت، والاحتمالات الأرجح لخيارات شارون لموقع الاقتحام. وكانت وجهة نظري في ذلك الحديث مرتكزة على تلك الخرائط التي حملها لنا، فايز. انقطع الحديث عندما دخل محسن دخولاً صاعقاً. جلس إلى تلك الطاولة التي كنا نجلس إليها، وشرح للأخ [أبو جهاد] وللموجودين مضمون حديث وليد جنبلاط، وأنه -أي محسن- اقترح عقد اجتماع طارئ للقيادة المشتركة، لأنّ الأمر يتطلب أن تتحمل القيادة المشتركة مسؤوليتها التاريخية باتخاذ القرارات المناسبة، والتي تخدم المصلحتين الوطنيتين اللبنانية والفلسطينية.

هزَّ أبو جهاد رأسه مؤيداً، والتفت حوله ليرى مَنْ مِنْ مساعديه أو مرافقيه أقرب إليه، وأشار لأحدهم بالاقتراب. كتب أبو جهاد بعض الكلمات على ورقة صغيرة موجهة للأخ [أبو عمار] ثمّ توقّف قليلاً ناظراً إلى محسن إبراهيم وسائلاً:

أين نقترح عقد هذا الاجتماع؟ نريد مكاناً غير معروف.

فطلب محسن دقائق للتفكير ثم رسا رأيه على مكان قريب من ثكنة الحلو هو مخزن للسجاد العجمي يملكه صديق له. وشرح للأخ [أبو جهاد] بشكل دقيق خريطة الموقع ومداخله. وافق أبو جهاد ودوّن ذلك في رسالة للأخ [أبو عمار].

وحدد موعد الاجتماع بعد أربع ساعات لتتسنى الفرصة لإبلاغ الجميع الذين كانوا تحت ظروف أمنية غاية في التعقيد. وبعد أربع ساعات كنت أدخل مخزن السجاد، وبدأ أعضاء القيادة المشتركة يتوافدون تباعاً حتى اكتظ المكان. جلست إلى جانب محسن إبراهيم الذي لم يشرح طبيعة الموضوع الذي دعوا للاجتماع من أجله، لكنه قال بوضوح: إن وليد جنبلاط يحمل رسالة موجهة للقيادة من الإسرائيليين والأمريكيين، وأنه يريد أن يطرحها على القيادة.

وصل وليد جنبلاط إلى المكان محيياً الجميع برفع يده، ولم يجلس بل راح يتمشى في المخزن ذهاباً وإياباً والتوتر الشديد بادٍ عليه. كان بالفعل متوتراً جداً لدرجة أنه كان يقهقه بالضحك مع نفسه وهو يتمشى وكأنه يضحك على هذا الوضع. ثم وصل الأخ الرئيس أبو عمار الذي جلس -بعد أن حيا الجميع- في رأس الطاولة. ومرة أخرى تهاوى وليد على مقعد قرب الرئيس. أوشك الاجتماع أن يبدأ لولا مقاطعة محسن إبراهيم، الذي طلب الانتظار قليلاً لحين حضور الدكتور جورج حبش الذي رأى محسن حضوره أساسياً لأن القرارات ستكون تاريخية، ولها أبعادها على كل القوى الوطنية وتاريخ الأمة العربية.

أيد أبو عمار كلام محسن إبراهيم، لكنها لحظات تلك التي مرت قبل أن نرى الحكيم يهبط درج المخزن متعكزاً على عصاه، أسرع أبو عمار ليمسك بيد الحكيم بحنان ليساعده على هبوط الدرج. وما أن جلس الحكيم حتى بدأ الاجتماع.

التفت أبو عمار إلى وليد جنبلاط دون أن يتفوه بكلمة وكأنه يدعوه للحديث.

كان وجه وليد محمراً من الغضب والتوتر. أمسك أبو عمار بقلم رصاص كان موضوعاً أمامه على الطاولة وراح يحدق به ويبرمه بيديه الاثنتين منتظراً كلام وليد جنبلاط. الصمت إذ استمر دقيقة بدا طويلاً. اخترقه صوت محسن إبراهيم الذي قال لوليد جنبلاط: الجميع يصغي إليك وليد بيك.

قال وليد بصوت متهدج جداً: باختصار، مطلوب مني أن أطلق عليكم رصاصة الرحمة. قال هذا وانهار بالبكاء. ثم انفجر بالضحك ثم تماسك نفسه وشرح ما حمّلوه إياه: يريدون من الفلسطينيين الخروج من بيروت دون شروط وتحت علم الصليب الأحمر. وإنهم إذا لم يوافقوا فإن الطيران والمدفعية والبحرية الإسرائيلية ستدمر بيروت وتقتحمها.

وساد صمت مرة أخرى، هذه المرة صمت دام دقائق وقلم الرصاص بقي هادئاً بين يدي [أبو عمار] الذي لم تفارق عيناه القلم.

وكسر ذلك الصمت [الحكيم] رافعاً يده اليسرى غير المشلولة ليستأذن بكل أدب ولياقة من الأخ [أبو عمار] بالحديث. فأجاب أبو عمار فوراً: تفضل يا حكيم.. تفضل.

قال الحكيم بهدوء المصمم وبعمق تاريخي نضالي:

«أرجو من الإخوان قيادة القوى الوطنية اللبنانية، أن يسمحوا لنا أن نستشهد على أرضهم، دفاعاً عن فلسطين والأمة العربية وأول عاصمة عربية يحاصرها

الإسرائيليون»، واكتفى بذلك.

تتابع الكلام وأكد معظم قيادات الحركة الوطنية اللبنانية وقوفهم إلى جانب الثورة الفلسطينية واستعدادهم للاستشهاد دفاعاً عن بيروت. نظرت إلى وجه وليد جنبلاط الذي كان يصغي لما يدور فرأيت هدوءاً بدأ يحل محل التوتر. وكان وجود هذا الحشد من القيادات والتعبير عن إرادتهم في مقاومة الغزو قد أعاد لنفسه بعض الثقة. الأخ أبو عمار بقي صامتاً عندما انتهى الكلام. عبر الكل عن موقفه. وراح الجميع ينتظرون تعليقاً من [أبو عمار]، عندها رفع رأسه وفارقت عيناه ذلك القلم. وقال بثبات:

«أشكر إخواني على هذا الموقف القومي الرائع، نحن سوياً سنمنع إسرائيل من احتلال أول عاصمة عربية، طريقنا واحد، وسيسجل التاريخ وقفة العز هذه، لا تنسوا أننا نقاتل وحدنا أقوى جيش في الشرق الأوسط بأسلحة خفيفة، هذه هي معجزة الإرادة. أما بالنسبة لأخي وليد فأريد أن أقول إننا معاً وسوياً لمواجهة هذا الغزو الغاشم، وإن العمل السياسي ضروري أيضاً، وسنكون جنباً إلى جنب بعض».

ووقف أبو عمار منهياً الاجتماع قائلاً:

يجب أن نعود لغرفة العمليات فنحن نتوقع محاولات اقتحام[1] لا بدَّ من التخطيط للتصدي لها». ا.هـ

---

(١) كتاب [ياسر عرفات] المؤلف بسام أبو شريف.

تعليق:

١) هذا الموقف الدرزي الذي يشمل آل جنبلاط وآل أرسلان لم يكن موقفاً نشازاً ولا شاذاً، وقادة المنظمة يعلمون ذلك جيداً.. ومع ذلك فصلاح خلف وزملاؤه لا يثنون على أحد في لبنان كما يثنون على كمال جنبلاط، ثم يعترفون -ولكن على استحياء- بأنه ورطهم في أمور كانت تخدم أطماعه ولا تخدم قضية فلسطين في شيء.

٢) يقول خلف بأن مجيد أرسلان وفيصل أرسلان وجماعتهما وعدوا المسلمين بالقتال معهم ثم نكثوا بوعدهم، وهذا اعتراف من خلف بأن الذين كانوا يقاتلون هم المسلمون دون غيرهم، لكنه يصر في كتابه [**فلسطيني بلا هوية**] على أنه علماني وكذلك الحركة الفلسطينية التي لم تصب بالمكروب الطائفي أبداً -على حد قوله-، وأنها لا تعرف التمييز بين المسلم والمسيحي.

أما الشيعة فمثلهم كمثل الدروز أي لم يقاتلوا في الجنوب. قالت وكالة رويتر في تقرير لها من النبطية [١/ ٧/ ١٩٨٢]:

«إن القوات الصهيونية، التي احتلت البلدة (أي النبطية) سمحت لمنظمة أمل بأن تحتفظ بالميليشيات الخاصة التابعة لها، وبحمل جميع ما لديها من أسلحة، وصرح حسن مصطفى أحد قادة ميليشيا أمل: إن هذه الأسلحة ستستخدم في الدفاع عنا

ضد الفلسطينيين».[١]

نشرت مجلة (الأيكونومست) في عددها الصادر في نهاية الشهر السابع من عام ١٩٨٢:

«إنّ [٢٠٠٠] مقاتل من عناصر منظمة أمل الشيعة انضمت إلى قوات ميليشيا سعد حداد، وتوقعت المجلة أن ينضم عدد أكبر منهم إلى الحرس الوطني الذي ترعاه إسرائيل في جنوب لبنان».[٢]

وفي المؤتمر الدولي الأول للتضامن مع لبنان، الذي دعا إليه بشير الجميل في نيسان ١٩٨٢ في فندق البستان في بيت مري، صفق المؤتمرون لشجاعة المحامي الشيعي محسن سليم الذي جاء ليعلن تضامنه مع المقاومة المسيحية.. وكشف العميد الشيعي عباس حمدان المندوب العسكري إلى المفاوضات اللبنانية الإسرائيلية [١٩٨٢ - ١٩٨٣] أنهم كانوا [حركة أمل] يستعجلون نجاح المفاوضات؛ ففي بداية الاجتياح وعد قادة أمل الضباط الإسرائيليين بضبط الفلسطينيين. ولم ينضم الشيعة إلى عمليات المقاومة.

قصارى القول: لم يشارك الشيعة في المقاومة عام ١٩٨٢، وإن أصبحوا فيما بعد صاروا يحتكرونها، وينكرون مساهمة غيرهم بها.. ومن طريف ما يذكره أحد قادة

---

(١) وكالة رويتر: ١/ ٧/ ١٩٨٢.

(٢) مجلة [الأيكونومست] الصادرة في نهاية الشهر من عام ١٩٨٢.

منظمة التحرير العسكريين ممدوح نوفل أنّ قوات المنظمة غنمت مدرعة إسرائيلية بعد القضاء على طاقمها، وكان ذلك في منطقة شيعية، فتدخلت قوات أمل تريد أخذ المدرعة وبعد أخذ ورد تدخلت قيادة المنظمة وسمحت لقوات أمل بأخذ المدرعة، فقاموا بعرضها في ساحة أمام مكتب قيادة أمل في الضاحية الجنوبية من بيروت كغنيمة للحركة في قتالها المزعوم مع الجيش الإسرائيلي!!

الموقف الماروني:

كان الموارنة حلفاء لليهود منذ البداية: فلقد تدربوا في معسكراتهم، وقدم لهم الصهاينة كافة المساعدات العسكرية والتموينية وغيرهما، والهدف كان واضحاً: إخراج منظمة التحرير من لبنان، وهيمنة الموارنة على شؤون الحكم، ومن ذلك إقامة دويلة سعد حداد في جنوب لبنان.

يقول بسام أبو شريف في كتابه: [**ياسر عرفات**]:

«في بداية شهر آذار / مارس عام ١٩٨٢ جاءني من يقول لي: إن إسرائيل قررت غزو لبنان. كان شاباً في العشرين من العمر، لم يسبق لي أن رأيته. سألته عن اسمه فأجاب بسرعة وبتوتر[فايز]..».

وأضاف فايز:

«لدي معلومات أن إسرائيل ستغزو لبنان، وستصل إلى بيروت وتحاصركم وتقضي عليكم».

وحسب طلب بسام أبو شريف، فقد عاد فايز في وقت آخر ومعه بعض

الأوراق، وكانت عبارة عن صفحة كبيرة تحمل خريطة مليئة بالأسهم والإشارات، وورقة ثانية تحمل رسم خريطة ساحل بيروت الممتد من الكرنتينا حتى فندق الريفييرا ومجمع الجامعة الأمريكية، وكانت أيضاً محملة بالأسهم والإشارات.[١]

فايز هذا الذي جاء بهذه الخطة، كان يعمل لدى أحد قادة القوات اللبنانية، وهذه الأوراق كانت على طاولة مكتبه في المنزل، وبسام أبو شريف أبلغ رئيسه في الجبهة الشعبية جورج حبش، كما سلّم نسخة من المخطط لأبي جهاد -خليل الوزير-، ونسخة ثالثة للمخابرات السورية [اللواء علي دوبا، واللواء محمد الخولي].

والشاهد هنا الصلة الوثيقة بين القوات اللبنانية، ومخطط غزو بيروت.

وخلاصة القول: فإن إسرائيل خاضت حرباً ضروساً مع المسلمين السنة وحدهم دون غيرهم، وهذا ما أشارت إليه أجهزة الإعلام: المحلية والعالمية التي لا تتهم بأي ميول طائفية، وسوف أكتفي فيما يلي بنقل فقرات من دراسة قدمتها صحيفة [الأنباء] الكويتية تحت عنوان:

«الإسرائيليون جرّدوا المنظمات السنية من السلاح وحدها».

وكان ذلك في عددها الصادر بتاريخ [٣٠/ ٤/ ١٩٨٥] قالت الصحيفة:

«لقد حصر الإسرائيليون عملية التجريد من الأسلحة بالفلسطينيين أولاً ثم بالسنيين من اللبنانيين وحدهم دون سواهم».

---

(١) كتاب [ياسر عرفات] المؤلف بسام أبو شريف.

«لقد أصّر شارون على دخول بيروت الغربية لتجريد [المرابطون] بوصفهم فريقاً لبنانياً محسوباً على المنظمات الفلسطينية».

«لماذا أسلحة السنة وحدها تشكل خطراً على الإسرائيليين؟!. وهل [المرابطون] الخارجون على قاعدة الالتزام الإسلامي السني يستحقون مثل هذا المستوى من الاهتمام الإسرائيلي، وهم الذين عُدّوا بعد الاجتياح مجرد علَم ومحطة إذاعة؟!».

«بعض الناس صفق للمقاومين المغامرين مع أن معظم القيادات السياسية المحافظة، رأت في الإصرار على مواجهة الدخول الإسرائيلي ضرراً إضافياً يقع على أرواح الناس وممتلكاتها، في وقت رحلت فيه المقاومة الفلسطينية عن بيروت، وتجنب الاشتراكيون -الدروز- مواجهة الإسرائيليين في الجبل، وتوقفت حركة أمل عند مفترق تحييد الضاحية الجنوبية، وتحول الكتائبيون إلى شرطي مرور للقوات الغازية، وإلى برج مراقبة وحارس حاجز ورأس حربة أحياناً».

«وأدركت القيادات الإسلامية السنية، أنها في مواجهة إستراتيجية أوسع مما يرى بالعين المجردة، إستراتيجية ترتكز على النظرية الإسرائيلية المساوية بين السني اللبناني والفلسطيني المقيم في لبنان، من حيث إلغاء الدور، وتحطيم الفعالية، فالمناطق السنية كانت وستبقى الأرض الأخصب لنمو المقاومة الفلسطينية».

«إن مدرسة الزعامات السياسية خرجت أشخاصاً ولم تخرج مؤسسات

سياسية، مجموعة أسماء تتناوب على رئاسة الحكومة، بتنافس سطحي، لا يتعدى حدود الذات، وإن ابتعد، فإلى حدود المحلة أو المدينة».ا.هـ [١]

(١) فقرات من دراسة قدمتها صحيفة الأنباء الكويتية في عددها الصادر بتاريخ ٣٠/ ٤/ ١٩٨٥م.

المبحث الثاني

مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢

اغتيال بشير الجميل

اتفق المبعوث الأمريكي [فيليب حبيب] مع النظام الصهيوني من جهة، والأنظمة العربية المعنية من جهة أخرى على إخراج منظمة التحرير وقواتها التي تربو على أحد عشر ألفاً من لبنان. وهذا الذي من أجله اجتاحت إسرائيل لبنان وحاصرت بيروت الغربية ودمّرت البنى التحتية والفوقية فيها وحولتها إلى ما يشبه الأنقاض.

خرج عرفات وزملاؤه من قادة فتح، كما خرج قادة الفصائل الأخرى في مشهد صورته وسائل الإعلام العربية على أنه انتصار!! خرجوا جميعاً وتركوا وراءهم النساء والأطفال والشيوخ في مخيماتهم البائسة يحيط بهم الأعداء من كلّ جانب.. تركوهم بعد حصولهم على ضمانات بسلامتهم من الولايات المتحدة الأمريكية، وجهة عربية أخرى صديقة للولايات المتحدة.

فهل كانت أمريكيا [وهي يهودية أكثر من اليهود] أمينة على دماء وأرواح سكان المخيمات الفلسطينية؟!

كانت أولى حلقات المؤامرة بعد خروج قوات المنظمة اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل، وتوجهت أصابع الاتهام باغتياله لكل من سورية وإسرائيل:

فسورية لأنه يصّر على إخراجها من لبنان ولا يحمل لها أي ود، وإسرائيل لأنه نكث بالوعود التي أعطاها لرئيس الوزراء الإسرائيلي [مناحيم بيغن]، فرفض تحويل لبنان إلى [كانتونات]، وتمسك بوحدة جميع الأراضي اللبنانية.

ثبت فيما بعد أن الحزب القومي السوري الاجتماعي هو من ارتكب هذه الجريمة، وهذا الحزب أصبح بعد تولي الأسد شؤون الحكم في سورية يقف معه في خندق واحد، حيث رد له اعتباره، وبرّأه من اغتيال عدنان المالكي، وصار الأسد يردد -ولكن بطرق باطنية- شعار سورية الكبرى وهو الهدف الذي يسعى إليه حزب أنطون سعادة.. فهل كان نظام أسد هو من خطط لهذه الجريمة، والمنفذ كان [شرتوني] عضو الحزب السوري القومي؟! الأحداث التي تلت الحادثة تدل على ذلك.

وهل كان نظام أسد يجهل بأن الفلسطينيين في مخيماتهم سيتحملون الوزر؟! كيف يجهل وهو صاحب الاتصالات السرية مع الأمريكان وإسرائيل، وبموجب هذه الاتصالات أوكلوا إليه تنفيذ المهمة التي يريدونها في لبنان.

اقتحمت القوات الكتائبية مخيمي صبرا وشاتيلا في اليوم الثاني من اغتيال بشير الجميل، أي مساء يوم الأربعاء.

شهود المجزرة كما ترويها

مجلة اليوم السابع

مجلة اليوم السابع معنية بالشأن الفلسطيني، وهي وثيقة الصلة بقيادة منظمة التحرير، وهذه الصلة كانت تمكنها من الانفراد بنشر أخبار وتصريحات تعجز وسائل الإعلام الأخرى من الحصول عليها.

بعد احتلال لبنان من هذه الدولة أو تلك اتخذت [اليوم السابع] من باريس مقراً لها. في هذا الجزء سننشر أهم ما ورد في هذه المجلة من أقوال شهود المجزرة، وفي الجزء الثاني سننقل عنها الكثير من الوثائق التي نشرتها عن المجزرة التي تعرضت لها المخيمات على أيدي حركة أمل و[ن.ب.س] من ورائها.

الشاهد الأول: قال سلمان الخليل المسؤول عن دفن الموتى قرب صبرا وشاتيلا:

«وقعت المجازر يوم الأربعاء، وفي المساء أخذت الجرافات تدفن الضحايا بدون صلاة ولا تكفين ولا غسيل. الدفن الجماعي.

ولم يعرف أحد أي شيء عن الجثث، لم يتعرف يومها أحد على جثة كان قسم منهم لونه أسود، وقسم آخر منفوخ بفعل الشمس. كان الآباء والأمهات يأتون إليّ بصور أبنائهم وذويهم كي أتعرف عليهم لكني لم أكن أفلح في ذلك.

دفنت في يوم واحد عدداً إجمالياً ١١٣ جثة في سبعة خلجان حفرتها الجرافات، وفي إحدى المرات كان شاهداً على الدفن السفير الفرنسي، وكان

حاضراً أيضاً الصليب الأحمر والجيش اللبناني والدفاع المدني وكشافة الرسالة والمقاصد. كان السفير الفرنسي يبكي. رأيته يبكي بعيني. كنت في حالة صعبة كالضائع، أذهلني المنظر.[1]

وعندما دخلت إلى المخيم رأيت [اللحم ملزق على الحيطان]. وتستطيع أن تقول كل أساليب القتل قد استخدمت الساطور، البارودة، الرصاص، العصي، كاتم الصوت، هناك مساحة لاحظتها وهي عبارة عن ٢٠٠م فيها كثافة دماء حوالي ٢-٣ ملم مع آثار شعر وأحذية، قيل لي أنه في هذه المساحة قد تجمعت حوالي ٤٠ جثة، نقلت جميعها قبل يوم واحد بالجرافات.

والذين هربوا صوب الغبيرى أو صوب الشرق نجوا من القتل، والذين هربوا صوب المدينة الرياضية أو صوب القرى قتلوا أو اعتقلوا والدليل على ذلك أننا دفنا ٧٠ جثة قتل أصحابها في محلة الرمول بالقرب من المدينة الرياضية كان يوجد هناك قوة كبيرة جداً من المسلحين.

يوم الاثنين التالي والأيام اللاحقة للمجزرة، كنت أصلي على الجنازات من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة السادسة مساءً. كانوا يزودوننا بكميات تفادياً للروائح الكريهة، ساعدتنا شركة [أوجيه لبنان] بتقديم الآليات والجرافات.

---

(١) لا أشك أن السفير الفرنسي غامر بنفسه عندما أشرف على دفن القتلى، ولم يُشاهَد أحد من السفراء العرب قرب المخيمات أو عند دفن شهداء المجزرة، ولا أظن أنّ أحداً منهم كان مستعداً لمثل هذه المغامرة.

كان عمق الخليج الذي نحفره مترين ونصف المتر، وطوله حوالي ثلاثين قدماً، وكنا نضع كل خمس جثث فوق بعضها البعض، ونرمي فوقها الكلس والتراب خوفاً من انتشار الروائح المنبعثة منها، ووضعنا أيضاً الأطراف المقطعة من الجثث. أما الأسماء فإنها كانت موجودة مع الصليب الأحمر، ولم تنشرها الصحف لأن الصليب الأحمر كان يخشى من إثارة الرأي العام.

لقد صليت وحدي على ٦٠٠٠ جثة، وهناك ألفا جثة دفنتها الجرافات دون أن أصلي عليها، والجثث المدفونة جماعياً موجودة في مقبرة على مدخل شاتيلا مسورة، ومساحة المكان تبلغ ما يقارب ١٥٠٠ متر مربع.

لقد ذهلت عندما صليت على ١١٣ جثة يوم الأحد بعد المجزرة في مكان واحد، بعدها صرت كالضائع لا أقوى على مخاطبة أحد، تأثرت كثيراً عليهم لأول مرة في حياتي أرى ١١٣ جثة، لم أكن قادراً على البكاء كي أموه عن نفسي.

لقد كان عدد الرجال أكثر من عدد النساء، وكان بين الضحايا من كان عمره ٩٠ سنة، وما زالت صورته حتى الآن في ذهني، كانت ذقنه طويلة، ومن بين الذين دفناهم أطفال أعمارهم بين ٦-٧ سنوات، ونساء من مختلف الأعمار، كانوا يقتلون كل شيء يتحرك قدامهم».

الشاهد الثاني: فاطمة، عمرها ٣٠ سنة، فقدت في المجزرة أهلها.

- أين كنت عندما وقعت المجزرة؟

- بالقرب من المدينة الرياضية، رأيتهم بعيني ينزلون، كانوا مثل الجيش اللبناني، وكانت إسرائيل وراءهم، على زنودهم شارة الكتائب اللبنانية، كانوا شباباً تتراوح أعمارهم بين ٢٧-٢٠-٢٥-٣٠.

تكمل روايتها: بعد قليل تفاقمت الضجة وخرجنا تحت الرصاص، وتركت منزلي وفيه أغراض بـ ١٥ ألف ليرة كلها راحت.. صاروا يضربون علينا هاون صغير، وأنا لا أخاف من الهاون انبطحنا في الأرض، فأصيب زوجي بشظايا الحجارة فحملته على ظهري، وركضت صوب مستشفى غزة، وبقيت معه في المستشفى.. هناك بدأت أفواج الجرحى تتوافد. رأيت ولداً صغيراً جسمه مليء بالشظايا، وغيره كثيرون.. خفت على أولادي، فعدت إلى المنزل، وما أن وصلت حتى أطلقوا النار عليّ فلم أصب، لكني سرعان ما غادرت البيت إلى (زاروبة) مجاورة صوب منزل أهلي فوجدتهم كلهم مقتولين وجيران أهلي وغيرهم كثيرين.. امرأة حامل فتحوا بطنها، وامرأة أخرى في شهرها الرابع قتلوها على باب الملجأ.. ناس لبنانيين حاملين أعلام بيض قتلوهم.. نسوان إخوتي قتلوهم.. أخي الكبير كان يحمل القتلى والجرحى، ويساعد الناس قتلوه.. أمي كانت تحمل ٧٨ ألف ليرة قتلوها.. نسوان قطعوا لهم أياديهم من أجل أساور الذهب وقتلوهم.. كانوا مخدرين يأخذون إبر مورفين في عروقهم».

الشاهد الثالث: فهمية محمود السعدي، عمرها ٢٤ سنة متزوجة فلسطينية من مخيم صبرا، وزوجها من بيت القاضي، وقد نكبت عائلة القاضي، وقتل منها عدد

كبير في مخيمي صبرا وشاتيلا.

تتحدث فهمية كيف تم اعتقالها مع عدد مع أهلها؟ وما تعرضت له من تعذيب وإهانة؟ وكيف تم فرز الناس؟.. وتمضي في حديثها فتقول: النساء اللبنانيات ذهبن إلى مكان يقع بالقرب من السفارة الكويتية، وكان المسلحون هناك [ينفلون نفل وكأنّ القيامة قائمة]، وقالت لي فيما بعد إحدى الأخوات اللبنانيات أنّ المسلحين كانوا [شربانيين].. بعد ذلك جاؤوا بهنّ إلى تجمعنا، وقالوا لنا: كلّ شيء سيسير على ما يرام، فمن له علاقة بالمنظمات سنعتقله، والذين لا علاقة لهم سنتركهم.. في هذا الوقت جاؤوا بامرأة وزوجها من صبرا، وكان حالتها [بتوقف شعر الرأس] سألناها عن الأمر. فقالت: «قتلوا كلّ الشباب الواقفين في أولِ صف في صبرا» عندها ارتفع العويل والصراخ بين النساء وسادت حالة من الهستيريا.. فهجم علينا أحد المسلحين. وقال: التي تريد أن تكمل الصراخ فلتأت إلى هنا وستصبح عاطلة (ما بدي ولا كلمة. اسكتوا كلكم) وسألنا من أخبركم بالأمر. فلم نجب، لأنه قد يقتلها خصوصاً بعد أن قتل زوجها وثلاثة من أولادها أمام عينها. الساعة السابعة مساءً قالوا لنا: الآن يمكنكم أن تنصرفوا، لكن شرط ألا تذهبوا إلى منازلكم [دبروا حالكم في الشوارع والطرقات].

وصلنا إلى حاجز للجيش اللبناني. فقال لنا الجنود: «شو القصة يا أختي، ليش ماشين حافين ومبهدلين». فروينا لهم الأمر. قالوا: «غير معقول» فأكدنا لهم فقالوا: إلى أين ستذهبن؟ قلت: «إلى أي شارع فيه بشر كي يعرف الجميع ماذا حلّ بنا؟».

الشاهد الرابع: حنان الخطيب، عمرها ١٨ سنة، لبنانية. تتحدث عن اعتقالها، فتقول:

كان عددنا حوالي ٢٠ بنتاً وولداً وشاباً واحداً عمره حوالي ١٦ سنة، نقلونا إلى المنطقة الشرقية بواسطة كميون شحن صغير، وكانوا قد استبقوا الرجال في الملجأ.. تجولوا بنا في المنطقة الشرقية كلها، ونزلونا في مقر لا أعرف لمن [المكان في بكفيا]، كانوا يومها في حالة حداد ويقفون على الشرفات ينظرون إلينا. بعد قليل تقدم أحد الضباط الموجودين هناك وسأل المسلحين: [شو جايبين معكم.. كلهم نسوان]. فأجابه مسلح: معنا شاب عمره حوالي ١٦ سنة. ودفعه إلى الضابط الذي خبطه في الأرض ثم حمله إلى مكان لا ندري أين هو؟ وعاد إلى المسلحين وقال لهم: «أرسلوا النساء وهاتوا الرجال».

وتمضي حنان في الحديث عما شاهدته:

في اليوم التالي وكان نهار الجمعة الساعة الرابعة أطلقوا سراحنا، فذهبت إلى مستشفى عكا كي أبحث عن أبي، فقيل لي يمكن أن يكون مع الأسرى في الرملة البيضاء، قصدت المكان فلم أجده، عدت إلى المخيم فلم أجد قتلى أو جرحى وصلت إلى الحرش فوجدت ٢٥ شخصاً مكومين فوق بعضهم بدون رؤوس، عدت إلى البيت فوجدت أبي مقتولاً، ورأسه على الحجر وعلا جسمه غطاء أبيض، بعد ذلك جمعت أغراضي من ذهب ومصاري، وقصدت الغبيري، وهم كانوا قد تجمعوا في المدينة الرياضية، بقيت في الغبيري حتى يوم الأحد حيث عدت

واهتميت بدفن والدي.

وعن الذين اعتقلوها تقول حنان: «كانت لهجتهم كسروانية وجنوبية ومعهم ناس بعلبكية».

الشاهد الخامس: صبحية حمد فارس: عمرها ٣٨ سنة، متزوجة قتل زوجها مع ثلاثة من أولادها.

- أين كنتم تسكنون أثناء المجزرة؟!.

- في مستديرة شاتيلا، ويوم الجمعة بعد المجزرة هربنا إلى الغبيري [حي لبناني ملاصق للمخيمات].

- هل تذكرين كيف دخل المسلحون إلى المخيمات يوم المجزرة؟!

- دخلوا من حي عرسال، كانوا يرتدون الزي العسكري الذي يرتديه الجيش اللبناني.

وعن محاولة هروبها مع زوجها وأولادها ثم عن اعتقال الكتائب لهم تقول:

أخذونا إلى المجلس الحربي الكتائبي، وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً نزلوا الشباب في ساحة الكرنتينا (وبطحوهم على الأرض) ثم أخذوا يضربونهم بالكرابيج على مرأى منا، أما نحن فإنهم كانوا يرمون علينا البيض ويرشقونا بالتراب والحجارة والبحص. المهم أنهم عصبوا أعين الشباب وأعادوهم إلى السيارات، وكنا كلما بكينا ينهالون علينا بالضرب ويطلقون النار فوق رؤوسنا ثم نقلونا بالسيارة بعد أن طردوا سائقها إلى حاجز البربارة، وهناك قالوا لنا اذهبوا ولا

تعودوا إلى هنا أبداً، وإذا سئلتم عمن فعل ذلك لا تأتوا على ذكر الكتائب، قولوا جيش لبنان الحر [سعد حداد] ونحن عرفناكم جيداً وعرفنا أسماءكم، وإياكم أن تنطقوا باسمنا وإياكم أن ترجعوا، إذا رجعتم إلى بيروت نذهب إلى منازلكم ونقتلكم فيها هناك.

- هل تعتقدي أن إسرائيل شاركت في المجزرة؟!.

- نعم شاركت في المجزرة لأنهم كانوا يرغمون الهاربين على العودة إلى المخيم ثم إن الجيش الإسرائيلي كان يحاصر المخيمات ولا يسمح بالخروج منها لأي شخص كان.

الشاهد السادس: يتيم صبرا، كريم عبد يوسف، فتى في الحادية عشرة من عمره، فقد عائلته خلال المجازر، يتحدث عما لقي من مصائب فيقول:

اعتقلوا معي حوالي ١٠٠ شخص معظمهم أولاد صغار.. بعد قليل طلبوا منا أن نركض في الملعب، أثناء ذلك فكرت بالهرب مع صبي كان يركض بجانبي واسمه حسن. قلت لحسن: هل تهرب معي فوافق. قفزنا من مكان فيه أسلاك شائكة وأصبنا بجروح.. لحقونا ولكن ما قدروا يلقطونا. قطعنا مسافة صغيرة فاصطدمنا بثلاثة مسلحين كتائب، خرطشوا علينا الكلاشنات وأعادونا إلى الملعب حيث ضربونا ضرباً مؤلماً، بقينا في الملعب طيلة النهار والليل، وفي صباح اليوم التالي أفرجوا عنا وقالوا فليذهب كل شخص إلى منزله.. توجهت إلى بيتنا فوجدت أبي مذبوحاً ومربوطاً بالحبال [هنا أجهش كريم بالبكاء].. عندما رأيت والدي ضاع عقلي ولم أعد أعرف ماذا أفعل، تذكرت والدتي وأخواتي بحثت عنهم فلم

أجدهم. هنا تصاعد إطلاق الرصاص فهربت وعلى الطريق صادفت اثنين [اختيارية] -أي شخصين كبار السن- ذهبت معهما إلى أحد المنازل، وهناك أيضاً طوقتنا الكتائب وأطلقوا علينا الرصاص.. لكننا استسلمنا لهم بعد أن رفعنا خرقة بيضاء، فأخذونا إلى مركز تجمع الإسرائيليين لكن هؤلاء رفضوا استلامنا فأعادونا إلى صبرا وقالوا: «الذي يدلنا على فدائي نتركه ونعطيه مصاري» التزمت الصمت فقال لي أحدهم: «هل تدلنا يا شاطر على فدائيين فنعطيك مصاري ونخلي سبيلك». كان هذا الشخص إسرائيلي لكنه يرتدي ثياب الكتائب. بعد قليل جاء ضابط إسرائيلي أصلع وقال: «امشوا خلفي».. على الطريق [صرنا نشوف القتلى مرميين على أرض. اللي مقطوع رأسه، اللي مقطعه اجريه، اللي منفوخ!! امرأة حبلى بقروا بطنها وعلقوها كما تعلق اللحمة عند الجزار].

- هل عثرت على أمك وأخواتك؟!.

- نعم. كانوا مقتولين. [وما شفتهم كيف انقتلوا] لكن أخبرني الناس في تلك اللحظة أصبت بالجنون. مات أبي وأمي وأخواتي. تأثرت كثيراً خصوصاً على موت أخواتي لأنني كنت أرى النور من عيونهن. كنت أحبهم أكثر من كل أهلي، بحثت عن إخوتي الشباب فعثرت على أحدهم وكان مشطوباً بالبلطة -أي الفأس- على رأسه، وأخي الثاني وجهه مهشماً من الضرب. أخي الثالث سمير لم يمت بل خطف، هكذا قيل لي، وهو الآن مفقود لا أعرف مصيره؟! دفن أهلي دون أن أراهم. والجميع الآن مدفونين في مكان قريب من مدخل شاتيلا، زرتهم يوم العيد

[عيد الفطر الماضي] مع بعضهم البعض.

- والآن ماذا تفعل، هل تشتغل؟

- أريد أن أشتغل على [طنبر الكاز] أبيع الكاز.

- أين نمت وأين تنام في هذه الأيام؟

- كنت أنام في كل منزل يستقبلني، وأقول يا رب ساعدني. نمت في مداخل البنايات في كوخ على حصيرة صغيرة يمكن أن أنام . هذا هو مصير الطفل الذي يفقد أهله. نزلت بعد المجزرة إلى سوق الخضرة وجمعت مصاري من البائعين.. في أحد الأيام لمحت فتاة تشبه أختي آمال [يمين الله تشبهها] فركضت نحوها كي أضمها فتبين لي أنها ليست هي.. كنت أحمل خضرة على كتفي وأنزلها من الكميونات الآتية من مدينة صور، أصبت بجرح في كتفي من جراء (الإنزال والتحميل) في سوق الخضرة. أرسل الله لي شخصاً اسمه عبده هو الذي جاء بي إلى هذا المنزل [المكان الذي أجريت فيه المقابلة في مخيم صبرا] وغداً سأباشر العمل على [طنبر الكاز]. العم أبو سعيد صاحب هذا البيت قال لي: انزل [على الطنبر] لك الربح ولي رأس المال، ووعدني بأن يشتري لي حصاناً نافعاً للشغل.

- هل أنت مرتاح الآن؟!

- لا، لست مرتاحاً لأنني بلا أهل، زهقت حياتي لا أحد يرعاني ويهتم بي.. إذا وجدت أخي المفقود يمكن أن يتغير كل مجرى حياتي وتصبح أحسن من الآن

بكثير. الناس هنا يهزؤون بي ويقولون لي: [يا مزفت] لأن ملابسي ممزقة ووسخة استعرتها من عند ناس من المخيم. لقد انتهت حياتي. الله يسامح الناس الذين كانوا يسخرون مني.[١]

(١) مجلة اليوم السابع [عن جريدة الأنباء الكويتية: ١٧/ ٩/ ١٩٨٤].

أشعر بالخجل.. لأني يهودي

بقلم: يوسي ميلمان

أشعر بالخجل العميق، وكمواطن إسرائيلي، ويهودي، فإنني لا أجد أن كلمات اللغتين العبرية والإنجليزية وكل لغات العالم قادرة على نقل مشاعر الرعب والخجل التي أحسست بها عندما سمعت التقارير الخاصة بمجزرة بيروت.

ومنذ أن سمعت الأخبار من الإذاعة في نهاية الأسبوع الماضي، عرفت بالبديهة أن إسرائيل لديها علم مسبق بالمجزرة، بالرغم من نفي مناحيم بيغن وشارون. ومع توالي الأنباء عن القتل والذبح، غرقت طوال الأسبوع الماضي في دوامة البحث عن الذات، ووجدتني أتساءل لأول مرة في حياتي عن دور ومستقبل الحلم الصهيوني.

ووجدت أن دولة إسرائيل ابتعدت كثيراً عن الطريق التي رسمها لها مؤسسوها. فقد كان الذين أنشؤوا إسرائيل يتصورون أنها ستكون دولة تسودها الروح الديمقراطية، وتكفل حرية الفكر والعمل.

وكان تيودور هيرتسل وهو مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة يحلم دائماً بدولة يهودية آمنة. ورئيس الوزراء الحالي مناحيم بيغن من أتباع جابوتنسكي الذي يناصر قضية التقدمية.

ومنذ تأسيس الدولة الصهيونية في عام ١٩٤٨، بذلت إسرائيل جهوداً مضنية لتحقيق الأحلام والطموحات والآمال التي وضعها الصهاينة القدامى.. واليهود

الآن، في كل أنحاء العالم، ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها وطنهم، وأنها تستحق كل الدعم المالي والسياسي.

ولكن شيئاً ما سار في الطريق الخاطئ. وأود هنا أن أذكر قصة شعبية تعود إلى القرن السادس عشر، تتحدث عن الحاخام يهود ليبا بن بازالد الذي بنى جسماً يشبه الإنسان من الطين، وذلك من أجل تشخيص فضائل المجتمع. وفجأة بثت الحياة في الجسم الطيني وانقلب على صانعه. وينبغي أن تكون المبادئ الأخلاقية واضحة أمام الإسرائيليين، وهذا تحذير موجه لأمة تُعوِّل كثيراً على تقاليدها.

وكانت تقف من وراء قيام دولة إسرائيل قوتان رئيسيتان، أولاهما مطالبة يهود الشتات في كل أنحاء العالم بتقرير المصير، وثانيتهما العمليات العسكرية التي كان اليهود يقومون بها ضد الانتداب البريطاني في فلسطين.. هذان الأمران جعلا دولة إسرائيل تبدو وكأنها واقع وحقيقة قائمة. والمجتمع الدولي وبخاصة تلك الدول التي لعبت دوراً بارزاً في الحرب العالمية الثانية، والتي شعرت بالذنب أو التعاطف مع اليهود الذين أبيدوا على يد النازية، قدمت الدعم للدولة الإسرائيلية.

وفي الوقت الذي انتقلت فيه من بولندا إلى إسرائيل عام ١٩٥٧ حيث كنت في السنة السادسة من العمر، كانت إسرائيل قد غرست جذورها بقوة. وبعد ذلك التاريخ بعشر سنوات، وبالتحديد عام ١٩٦٧ عندما خاضت إسرائيل حرب الأيام الستة، ألمحت الحكومة الإسرائيلية إلى أن معركة إسرائيل لم تنته بالنصر حتى الآن. ولكن تلك الحرب كانت ولا شك نقطة تحول في تاريخنا القصير، فقد وجدنا أنفسنا

بعدها، وبشكل مفاجئ نسيطر على حوالي ١.٢ مليون فلسطيني وعربي في الضفة الغربية وقطاع غزة. ولكن هذا الاحتلال شوه المبادئ الليبرالية. وكما أشار المؤرخ الإسرائيلي الكبير يعقوب تالمون، بأن الاحتلال يدمر من النواحي الأخلاقية والسياسية والاقتصادية، فإنه من غير الممكن أن يطالب اليهود بحق تقرير المصير لأنفسهم، ويحجبونه عن غيرهم. وظل هذا التناقض الأساسي جزءاً من نسيج حياة إسرائيل السياسية.

ومنذ حرب الأيام الستة ومشكلة الفلسطينيين هي الشغل الشاغل للحكومات الإسرائيلية المتلاحقة. وكل هذه الحكومات أخفقت في إيجاد حل للمشكلة يحظى بالقبول على الصعيد الدولي، ويرجع هذا الإخفاق، إما لضعف الحكومات أو لعجز حقيقي فيها.

والإسرائيليون كانوا يشعرون دائماً بأنهم مهددون من الدول العربية المجاورة لهم ومن رفض الفلسطينيين الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود. والإبادة الجماعية والشعور بالحصار تسبّبا في مخاوف دائمة اعترت العالم الخارجي. ولكن، وبشكل متزايد منذ ١٩٦٧، شعرت الحكومة الإسرائيلية بأنها قادرة على التصرف بشكل مستقل، وكان غزو لبنان امتداداً منطقياً لهذه السياسة.

ومجزرة بيروت زعزعت إيمان العديدين في إسرائيل الحديثة. الدولة يجب أن تعيش بالتأكيد، ولكن طريقها يجب أن يتغير.

وربما كان أهم درس يمكن أن تتعلمه الحكومة الإسرائيلية ومؤيدوها في العالم،

إنه يجب أن توضع حدود لاستخدام القوة وطموحاتها وأطماعها.

ونأمل من التاريخ أن يحكم في يوم من الأيام على مجزرة بيروت بأنها حد فاصل في سياسة إسرائيل.[١]

(١) الصنداي تايمز [ترجمة القبس الكويتية وغيرها من الصحف العربية ٣/ ١٠/ ١٩٨٢].

حول مجزرة صبرا وشاتيلا

تحقيق للصحفي: أمنون كابليوك

أمنون كابليوك: من مواليد القدس، كاتب وصحفي متخصص في الشؤون العربية. عضو في هيئة تحرير مجلة [نيو أوْت لوك] التي تصدر في تل أبيب، ومحرر في جريدة [لوموند] الفرنسية يقول عن كتابة: [تحقيق حول مجزرة صبرا وشاتيلا]:

«التحقيق الذي أقدمه في هذا الكتاب هو خلاصة عمل بدأته في اليوم الثاني لمجزرة صبرا وشاتيلا. وهو يستند إلى شهادات عشرات الإسرائيليين، من مدنيين وعسكريين. والفلسطينيين واللبنانيين والصحفيين الأجانب. كما استخدمت بكثرة الصحافة الإسرائيلية واللبنانية والدولية، والإفادات التي جمعتها لجنة التحقيق القضائية الإسرائيلية، ومحاضر الكنيست [البرلمان الإسرائيلي]، وأقسام التنصت والاستماع التابعة لإذاعات الشرق الأدنى، وبرقيات وكالات الأنباء الدولية، إلى جانب مستندات ووثائق إسرائيلية وفلسطينية ولبنانية. وقد دققت في المعلومات التي توافرت لدي وقارنتها وغربلتها، واستبعدت عمداً كل ما لم يتيسر لي التحقيق من صحته على نحو لا يقبل الشك».

تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٢

وتقول جريدة «لوموند» الفرنسية عن كتاب أمنون كابليوك:

«في هذا الكتاب الصغير حيث لا مكان لأي تعليق، وحيث الوقائع وحدها تتكلم، يروي كابليوك قصة المقتلة».

وهذه فقرات ننقلها عن هذا الكتاب:

الخميس ١٦/٩/١٩٨٢

يقول الناجون من القتل أن المجزرة اتخذت منذ اللحظة الأولى لبدايتها حجماً كبيراً. ففي الساعات الأولى وحدها، قتل الكتائبيون مئات الأشخاص. كانوا يطلقون النّار على كلّ من يتحرك، وكانوا يحطمون أبواب البيوت ويُجهزون على عائلات بكاملها وهي تستعد لتناول العشاء. كثيرون قُتلوا في أسرَّتهم وفي ثياب النوم، أطفال في الثالثة أو في الرابعة من أعمارهم، هم أيضاً في ثياب النوم، قتلوا في حراماتهم وأغطيتهم. وأحياناً لم يكتفِ القتلة بالقتل. بل كانوا يقطعون أعضاء ضحاياهم قبل أن يجهزوا عليهم، ويحطّمون رؤوس الأطفال والرضع على الجدران، ويغتصبون النساء والفتيات الصغيرات قبل أن يقطعوهنَّ بالفراعة.[1] وأحياناً يجرون الرجال إلى خارج المنزل ويطلقون عليهم النار في وسط الشارع.

زرع رجال الميليشيا الرعب، قتلوا بالفأس وبالفراعة وبالساطور. ولم يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ. وأحياناً كانوا يتركون واحداً من أفراد العائلة على قيد الحياة، ويقتلون الآخرين أمام عينيه ليذهب ويخبر ما عاش وما

---

(١) الفراعة: الفأس، وهي عامية.

شاهد. كما لم يفرقوا أيضاً بين مسلم ومسيحي، ولا بين لبناني وفلسطيني. كل من يعيش في المخيم يجب أن يلقى نفس المصير. صبيّة شيعية روت أن والديها ركعا أمامهم يستعطفانهم ويستحلفانهم: «لأننا لبنانيون». فكان جوابهم الوحيد: «لماذا إذاً عشتم مع هؤلاء الأوغاد؟ سيكون مصيركم مثل مصيرهم».ثم قتلوا كل أفراد العائلة، تاركين هذه البنت وحدها.

بين المفقودين تسعة نساء يهوديات، وهن من اللواتي تزوجن فلسطينيين في عهد الانتداب البريطاني، وتبعن أزواجهن عندما لجؤوا إلى لبنان عام ١٩٤٨. وقد نشرت الصحافة الإسرائيلية أسماء أربعة منهن.

في منطقة حرش ثابت، قتلوا عائلة المقداد بكامل أفرادها عند بداية المجزرة. فهذه العائلة اللبنانية هي من منطقة كسروان -الحقيقة أنها من منطقة بلاد جبيل [المترجم]-، وتملك مرآباً [غاراج] في شاتيلا، منذ أكثر من ٣٠ سنة. ويبلغ عدد أفرادها ٣٩ شخصاً. قتلوهم كلهم دون استثناء. ذبحوا البعض وبقروا بطون البعض الآخر، وأطلقوا النار على الباقين، ومنهم زينب -٢٩ سنة- وهي في شهرها الثامن. قتلوا أولادها السبعة، ثم بقروا بطنها وأخرجوا الجنين ووضعوه على ذراع أمه القتيلة. إحدى قريباتها، وفاء حمود -٢٦سنة- في شهرها السابع، قتلوها وقتلوا أولادها الأربعة.

اغتصبوا عدداً كبيراً من النساء في هذا الحي قبل أن يقتلوهن ويمددوا جثثهن العارية في شكل صليب. بنت اغتصبوها من بنات المقداد عمرها ٧ سنوات. ميلاد

فاروق -١١ سنة- جرح في ذراعه وفي ساقه، روى بعد وصوله إلى مستشفى غزة، أنهم قتلوا أمه وأخاه الأصغر، بينما كانا يتابعان برنامج التلفزيون. قال ميلاد: إن المهاجمين دخلوا البيت ودون أن ينطقوا بكلمة، أطلقوا النار على الجميع ثم خرجوا دون أن يقولوا شيئاً.

بعض سكان المخيم كان عندهم سرعة الخاطر ليهربوا بسرعة، وما أن سمعوا زخات الرصاص الأولى وصراخ الضحايا حتى غادروا بيوتهم، كما فعلت السيدة هاشم، مثلاً، التي حثت زوجها وأولادها على الإسراع في مغادرة تخشيبتهم، بعد أن سمعوا أصوات الرعب تتعالى من الناحية الجنوبية للمخيم. وغادروا شاتيلا باتجاه الشمال، وعندما وجدوا ملجأ، طلبت من زوجها أن يرجع إلى البيت ويعود بشيء من الأكل والحليب للصغار، لأنها لم تكن تتصور أنهم يرتكبون مجزرة مصممة ومخططة، ولن ترى زوجها حياً بعد ذلك. وعندما رجعت يوم السبت إلى المخيم عثرت على جثته في البيت ممزقة بالرصاص.

لم يكتف المهاجمون بالتعذيب والتقتيل، بل أعملوا النهب أيضاً: فقد عُثر على أيدي نساء مقطوعة عند المعصم ليستولوا على الجواهر. صحفي إسرائيلي روى الواقعة التالية على لسان أحد سكان مخيم شاتيلا: «ليل الخميس، دخل الكتائبيون إلى بيت أخي، وفرضوا عليه أن يعطيهم كل المال الذي في حوزته، فجاء لهم بأربعين ألف ليرة وبكيلوين من الذهب. لكن ذلك لم يشبعهم، فطلبوا منه أن يوقع لهم على شيك بقيمة ٥٠٠ ألف ليرة (زهاء ٧٥٠ ألف فرنك)، فانصاع لأمرهم.

وما أن وقع على الشيك حتى قالوا له: «الآن لم تعد تساوي شيئاً. وصرعوه وصرعوا أباه وشقيقيه الآخرين. ولم تنجُ إلا زوجته وابنتاه لأنهنّ هربن من البيت».

فلسطينية عمرها ١٣ سنة، وهي الناجية الوحيدة من عائلتها -قتل والدها ووالدتها، وجدّها، وكل إخوتها وأخواتها-، روت لضابط لبناني: «بقينا في الملجأ حتى ساعة متأخرة جداً، ليل الخميس. ثم قررتُ أن أغادر الملجأ مع رفيقتي، لأننا لم نعد نقدر على التنفس. وفجأة، رأينا الكتائبيين. فركضنا عائدتين إلى الملجأ، وأخبرنا الباقين. وخرج بعض الناس وهم يرفعون أعلاماً ومحارم بيضاء، وتقدموا من الكتائبيين قائلين: نحن مع السلام والوفاق. قتلوهم على الفور».

الجمعة ١٧ أيلول

والجنود الذين يطوقون هذا المخيم لم يتوقفوا عن سماع الطلقات النارية التي تلفظها الأسلحة الأوتوماتيكية، وهي طلقات لا تشبه في شيء أبداً الطلقات التي تسمع في المعارك، كما كانوا يسمعون صراخ الجرحى. فيما بعد، وعند حلول الليل، قامت وحدات إسرائيلية بإطلاق صواريخ مضيئة جديدة لإضاءة داخل المخيم وتسهيل مهمة المهاجمين.

مداخل المخيمات مسدودة، والجنود الإسرائيليون يحولون دون مغادرة اللاجئين الذين يحاولون الخروج منها، ويأمرونهم بالعودة إلى الوراء. ومن أكثر الحالات إثارة للدهشة هي حالة مجموعة من ٥٠٠ شخص كانوا قد لجؤوا إلى باحة مستشفى غزة في مخيم صبرا، ثم هرعوا في محاولة للفرار بعد الظهر، حين علموا أن

رجال الميليشيا يقتحمون المستشفيات ويقتلون ويجرحون ويغتصبون كل من يصادفونه. وقد رفع هؤلاء المساكين الرايات البيضاء وجدّوا في السير إلى أن وصلوا إلى كورنيش المزرعة، على الطريق الذي يقطع العاصمة من الشرق إلى الغرب، حيث استوقفهم جنود إسرائيليون، فتقدم أحدهم وشرح لهم ما يجري، وقال: إنّ رجال سعد حداد يقتلون كل الناس، غير أنهم تلقوا الأمر بالعودة إلى المخيم. وعندما أظهروا شيئاً من التردد، جاءت دبابة إسرائيلية وصوّبت مدفعها نحوهم وأجبرتهم على الرجوع.

صباح هذه الجمعة، دخلت قوات كتائبية جديدة إلى مخيم شاتيلا من البابين الجنوبي والغربي، مجهزة بسيارات جيب وشاحنات وجرافات (بولدوزر).

في بيروت، بدأت تنتشر الشائعات الأولى حول مذبحة في مخيمي صبرا وشاتيلا، وذلك على إثر إخلاء الأطباء والممرضين الأجانب العاملين في مستشفى عكا، والذين قادهم حتى باب مخيم شاتيلا رجال مسلحون يدّعون الانتماء إلى الكتائب، وعند الباب استقبلهم القائم بالأعمال النرويجي وقادهم إلى الصليب الأحمر الدولي في الحمراء. وسارع هؤلاء إلى إنذار الأصحاب والدبلوماسيين الأجانب والصحافة بأن ثمة حوادث خطيرة تجري في المخيمين. وفي اليوم التالي نشرت الصحف هذه المعلومات الأولية. وكتبت [السفير] في صفحتها السادسة، بناءً على تقارير من قوى الأمن الداخلي: إنّ «رجال ميليشيا سعد حداد دخلوا إلى مخيمي صبرا وشاتيلا واعتدوا على الفلسطينيين». وقالت [النهار] في صفحة

داخلية: إنّ «وحدة من القوات اللبنانية قد توقفت قرب مستشفى عكا، وجمعت السكان هناك وفصلت الرجال عن النساء، ثم أطلقت النار على الرجال. وأسفر الحادث عن مقتل خمسة وسقوط عدد من الجرحى».

وفي الساعة الخامسة والنصف، تلقّى الليوتنان كولونيل موشي هبروني، عضو مكتب رئيس المخابرات في هيئة القيادة العامة في تل أبيب تقريراً حول وقوع ٣٠٠ قتيل في المخيمين، وفي السابعة والنصف رفع هبروني التقرير إلى أحد وكلاء وزير الدفاع آفي دوداي.

الجمعة ١٧ أيلول

المجزرة مستمرة على أيدي الوحدة التي يأمرها إلياس حبيقة، ورجال سعد حداد والعناصر الجديدة. والرعب مسيطر على اللاجئين ومن تمكن منهم من الفرار روى أنه شهد أفعالاً بربرية وحشية رهيبة، كما روى كيف كان رجال الميليشيا يتوزعون في مجموعات تضم خمسة أو ستة عناصر أو أكثر أحياناً، ويلاحقون اللاجئين في الشوارع ملاحقة لا هوادة فيها، ويصطادونهم كالطيور، ويخرجون العائلات من مخابئها ويقتلونها في المكان نفسه. وكيف كانوا يغتصبون النساء ثلاث أو أربع أو خمس مرات على التوالي، ثم يقطعون لهن نهودهنّ قبل الإجهاز عليهنّ. وفي حين كان رجال الميليشيا قد استعملوا أمس الساطور والفأس والفراعة، فقد لجؤوا اليوم إلى وسائل أسرع بكثير: إطلاق النار.

من حين لآخر، كان يقوم رجال يرتدون الزي العسكري بمراقبة أكوام الجثث،

فإذا لاحظوا فيها جريحاً ما زال يتحرك، قتلوه فوراً. وكثيراً ما كانوا يرسمون بعد ذلك بالسكين صليباً على جثة الضحية.

وأضاف المؤلف:

اقتربت الدبابات الإسرائيلية من المخيم، مؤشرة بذلك إلى أنّ كل شيء قد انتهى. وأخذ رجال [القوات اللبنانية] يصعدون الواحد تلو الآخر إلى سياراتهم، وينسحبون من المخيم باتجاه قواعدهم.

وشيئاً فشيئاً، عاد السكان إلى الظهور. وبدأ الذين تمكنوا من الفرار بالعودة. وعمت فوضى رهيبة لا توصف عندما راح كل واحد يفتش عن أفراد عائلته وسط الأنقاض. وسرعان ما تحول الصراخ إلى عويل. وما كاد يحل الظهر، حتى بدأت طلائع الجيش اللبناني تصل إلى المكان، وتقفل المخيمين.

اللاجئون الذين تمكنوا من مغادرة المخيمين، والذين كانوا في حالة رهيبة من الرعب، أطلعوا العالم الخارجي على ما حدث وجرى. وأسرع مراسلو الصحف والإذاعات والتلفزيونات إلى مخيمي صبرا وشاتيلا. وقد كان للصور التي نشروها، وللوصف الذي أعطوه وقع هائل. وهذا نموذج عن اللهجة التي استعملها المراسلون في أولى تحقيقاتهم.

وصف مشهد المجزرة: كتب مراسل [الواشنطن بوست] يقول: «بيوت بكاملها هدمتها [البولدوزرات] وحولتها إلى غبار، في حين كان سكانها لا يزالون في داخلها. جثث مكدسة فوق بعضها أشبه بدمى لا حياة فيها، أُلقيت هناك لا أحد يعرف من

أين. وفوق هذه الجثث، تشير الثقوب التي تظهر في الجدران إلى أنهم أعدموا رمياً بالرصاص. في حديقة صغيرة، ترقد امرأتان كأنهما كيسان من القمح بالقرب من الركام يخرج من تحتهما رأس طفل ذي عيون متحجرة. وبالقرب منهم طفل آخر لا يزال مقمطاً، وقد هشم رأسه وأُلقي على ظهره. في الجانب الآخر، وفي شارع مسدود صغير، عثرنا على فتاتين، الأولى: عمرها حوالي ١١ سنة. والثانية: عدة أشهر. كانتا ترقدان على الأرض وسيقانهما مشدودة، وفي رأس كلّ منهما ثقب صغير.

السبت ١٨ أيلول

على بعد خطوات من هناك وعلى حائط البيت الذي يحمل الرقمين ٤٢٢ و٤٢٤ أطلقوا النار على ثمانية رجال. كل شارع مهما كان صغيراً يخبر قصته. في أحد الشوارع، تتراكم ١٦ جثة فوق بعضها البعض في أوضاع غريبة عجيبة. بالقرب منها، وفي ملعب صغير تابع لبناية من الحجر، تتمدد امرأة في الأربعين من عمرها، وهي ترتدي فستاناً من القطن، وقد أحاطت رأسها بمنديل، وعيناها مفتوحتان. بين نهديها رصاصة. وبالقرب من دكان صغير سقط رجل عجوز في حدود السبعين من عمره، ويده ممدودة في حركة استعطاف، ورأسه المعفر بالتراب يتطلع ناحية امرأة ظلت تحت الركام».

الصحفيون والدبلوماسيون الأميركيون والأوروبيون -بينهم سفير فرنسا بول مارك هنري- يتجولون الآن فيما تبقى من شوارع المخيم. ويكتشفون مئات الأجسام المبعثرة والأوصال والأعضاء المقطعة. أمّ تضم طفلها اخترقت رأس كل

منهما رصاصة واحدة. نساء عاريات قُيدت أيديهنّ وأرجلهنّ خلف ظهورهنّ. رضيع مهشّم الرأس في بركة من الدم وإلى جانبه رضاعة الحليب. على طاولة الكوي، بالقرب من أحد البيوت، قطعوا أعضاء رضيع وصفّوها باعتناء بشكل دائرة ووضعوا الرأس في الوسط. إحصائيات اليونسيف تشير إلى أن كل مقاتل سقط في حرب لبنان، قتل مقابله عشرة أولاد. أما في صبرا وشاتيلا فيسود الانطباع بأن القتلة استهدفوا وأمعنوا في تقتيل الأطفال بنوع خاص. قالت أم للصحفيين المتجمعين حولها وهي منهارة تماماً: «ترجّيتهم أن يعفوا عن ابني الذي عمره ٥ سنوات». فأجابوني: «عندما يكبر سيصير إرهابياً» وقتلوه.

تحت بعض الجثث وضع القتلة قنابل يدوية بعد أن نزعوا شكّتها كي تنفجر وتقتل أفراد عائلات الضحايا عندما يأتون لاسترجاع الجثث.

تحقيق حول المجزرة

كثيرون تعرضوا للتعذيب قبل القتل؛ آثار التشويه والتقطيع بعد الموت بادية بوضوح على عدد من الجثث.

مقابر جماعية حفرت بسرعة. ومن تحت التراب الذي لم يمضِ على قلبه وقت طويل تظهر أعضاء وأيدي ورؤوس وسيقان. الذهول يُخرس أصوات الصحفيين الذين يحصون الجثث كلّ بمفرده. وعندما يصل أحدهم إلى العدد [٨٠] يتوقف ويتقيأ، واحد آخر أحصى ١٥٠ قتيلاً في مجموعة واحدة من البيوت. إلا أن هذه الأرقام لا تعني شيئاً لأن عدداً كبيراً من الضحايا كان مطموراً تحت أنقاض البيوت المهدمة. بعضهم قُتل منذ صباح الخميس، وبعضهم لم يمض على قتله ساعات.

على جدار لا يزال واقفاً في بيت انهارت كل جوانبه، علقت صور بعض القديسين. لا شكّ أن سكان البيت مسيحيون. ولا شك أنهم هم أيضاً قتلوا.

جميلة ٣٥ سنة ترتدي الأسود، تقول جميلة للصحفيين: «عندما بدأ إطلاق النار، صباح الخميس، خرجت مع ابنتي. وكان القناصة يحولون دون الدخول والخروج، من وإلى مخيم شاتيلا. ومع ذلك تمكنت من أن أتسلل إلى مستشفى عكا».

ابنتها أمل -١٧ سنة- تقاطعها: «كانت جدتي قد غادرت المخيم لتشتري لنا الأكل، ورجعت، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى مستشفى عكا. ومنذ مساء ذلك

اليوم، سمعنا الناس يصرخون: إنهم يذبحونهم، إنهم يذبحونهم. ولم نصدقهم إلا عندما بدأ الجرحى بالوصول إلى المستشفى، عندها رأينا أنهم مصابون عن كثب. وقال لنا أحدهم: إن المهاجمين أوقفوا ٣٠ شخصاً إلى الحائط ورموهم بالنار».

السبت ١٨ أيلول

عادت جميلة إلى الكلام: «صباح الجمعة، عدت إلى المخيم لآتي بأمي. فاجأني أحد رجال الميليشيا، وأخذني بيدي واقتادني إلى منزل قريب من منزلنا. كان في داخله أربعة جنود. قال لي: «اقلعي ثيابك، واتركيهم يفعلون بك ما يريدون، وإلا... اغتصبوني». والتفتت جميلة إلى الصحفيين. وقالت: «أرجوكم أتوسل إليكم، لا تنشروا اسم العائلة ..تعرفون .. العار ..» وأضافت: إن رجال الميليشيا لم يقتلوها لأنها لبنانية. فقد كانت تحمل جواز سفرها وأبرزته لهم.

لكن أهلها وأبناء عمها وشقيقها فلم يسعفهم نفس الحظ. «عندما وصلت إلى بيتنا، رأيت جثة أمي في الطريق، فغطيتها بحرام. ثم عثرت على أبي جثة هامدة في سريره حيث قتل، وإلى جانبه كرسيه النقال، لأنه كان مشلولاً. والبيت تهدم جزء منه لا أعرف إذا كان [بالبولدوزر] أم بالديناميت. انظروا -مشيرة إلى ما تبقى من بيتها- لم يبق عندنا بيت، وليس لدينا مال ولا شيء آخر. ماذا أفعل؟».

في هذه الأثناء، وصلت ابنتها الثانية وصرخت: «عثروا على خالي». وأسرعت جميلة مع ابنتها إلى حيث رأت رجال الإسعاف التابعين للصليب الأحمر يخرجون جسداً من تحت الأنقاض. توقفت وانحنت على الجسد وتعرفت على شقيقها

وانهارت تصرخ وتبكي من الألم.

امرأة أخرى نجت من المذبحة تقف أمام ما تبقى من بيتها وتروي قصة جارتها: «جارتي التي تسكن في البيت المواجه، بقيت مع عائلتها في البيت لأنهم لم يعرفوا ماذا حدث. منذ زمن طويل ونحن نعيش مع ضجيج المعارك والقصف. عندما رجعنا، وجدناها مقيدة اليدين والرجلين ومذبوحة بالسكين. جردوها من لباسها الداخلي، وأعتقد أنهم اغتصبوها. لم نر أحداً من أفراد عائلتها». هل رأيت المهاجمين؟ «نعم، رأيتهم. لم يكونوا إسرائيليين».

الأحد ١٩ أيلول

(غوييم قتلوا غوييم[١]، ويتهمون اليهود).

صباح الأحد، لا تزال جثث الضحايا في الشوارع وتحت الأنقاض في مخيمي صبرا وشاتيلا. رائحة كريهة تنبعث من المخيمين وتصل إلى مئات الأمتار بعيداً عن المخيمين. بعض الجثث لا تزال في أرضها تحت أشعة الشمس المحرقة منذ الخميس. رجال الصليب الأحمر والجنود اللبنانيون يواصلون بحثهم، فيكتشفون تحت الردم وفي الساحات مزيداً من جثث الرجال والنساء والشيوخ والأطفال. يضعون على وجوههم أقنعة سوداء للوقاية ويرتدون كفوفاً من [كاوتشوك]، وينقلون الجثث إلى ساحة عند مدخل مخيم شاتيلا.

---

(١) غوييم: كلمة عبرية تعني الناس الآخرين غير اليهود.

الجثث مجمعة بالقرب من حفرة كبيرة. بعضها مغطى بحرام والبعض الآخر لا يسترها شيء. القسم الأكبر منها مشوه بحيث لم يعد يمكن التعرف عليه. يتدلى من رجلي إحدى الجثث الحبل الذي استخدم لتقييد صاحبها. بين الحين والآخر، تصل سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر، وينزل منها المسعفون شحنة أخرى من الجثث. امرأة فلسطينية شابة، في أشهر حملها الأخير، تنتقل من جثة إلى جثة، على أمل أن تعثر على زوجها أو على أحد أفراد عائلتها.

يخيل إلينا أنّ كل الذين نلتقي بهم خارجون لتوهم من الجحيم. بعضهم يبكي، وبعضهم ترتجف كل مفاصله، والبعض الآخر لا يزال مصدوماً ويسير بخطوات آلية. بعد قليل ارتفع الصراخ والعويل. صراخ وعويل هستيري رهيب تطلقه الأمهات عندما يعثرن على أولادهن، والنساء عندما يجدن رجالهنّ أو الأولاد عندما ينحنون على جثة أحد الوالدين، أو الوالدين معاً. وفور التعرف على صاحب الجثة، يسحبها المسعفون ويضعونها في كيس من [النيلون]، ثم يتناقلونها من واحد إلى آخر في صف طويل حتى تصل إلى حفرة كبيرة، حيث صفّت الجثث الواحدة قرب الأخرى. وبهدوء أعصاب غريب، وقف موظفو الصليب الأحمر يسجلون أسماء أصحاب الجثث في سجل خاص. ومن حين إلى آخر، تتقدم عائلة وتطالب باسترجاع جثة ضحيتها لتقوم بدفنها، بعد أداء الطقوس والفرائض الدينية، في المقبرة الإسلامية المجاورة.

زاد عدد الصحفيين كثيراً. يتجولون في المخيمين طولاً وعرضاً، بالقرب من

بيت تقف بنت عمرها ١١ سنة وأمها. نظراتهما زائغة ولا يتحرك فيهما عضل. إنهما الناجيتان الوحيدتان من عائلة تتألف من ثمانية أشخاص. لا أثر لحياة أو حركة حولهما. تقول الصبية بهدوء وبصوت خافت: «كلهم، كل الجيران ماتوا».

في المساء، يفرغ المخيمان، استبد الرعب بالقسم الأكبر من السكان، وظلوا أسبوعاً بكامله يفضلون العيش كل يوم بيومه، والنوم في مختلف أحياء بيروت في الحدائق العامة والمستشفيات والمدارس.

الفرق الطبية وفرق الإسعاف المكلفة بالبحث عن الضحايا وبالدفن الجماعي تضم، إضافة إلى الجيش اللبناني، أحد عشر تنظيماً وجمعية ومؤسسة، منها الصليب الأحمر الدولي والصليب الأحمر اللبناني والدفاع المدني والكشافة. والتنسيق بين كل هذه الجمعيات محدود جداً إن لم يكن معدوماً. ولهذا السبب، تختلف تقديرات عدد القتلى باختلاف المصادر، بل وتتناقض أحياناً، ولذلك يبدو أنه لن نعرف أبداً العدد الصحيح. وقد تضافرت عدة عناصر: تحركات السكان غداة المجازر، والعدد الكبير من الضحايا التي تُركت تحت الأنقاض، والضحايا التي دفنها الكتائبيون في القبور الجماعية التي حفروها، والعدد الكبير من المفقودين، تضافرت كل هذه العناصر لتجعل من الصعب جداً إجراء تقدير دقيق.

وتتلاحق الأرقام منذ نهاية المجزرة. ففي ٢٢ أيلول-سبتمبر، أشار بيان الصليب الأحمر إلى العثور على ٦٦٣ جثة ودفنها. وفي ١٤ تشرين الأول-أكتوبر، تحدثت الجريدة البيروتية [لوريان لوجور] نقلاً عن مصادر حكومية لبنانية، عن

٧٦٢ جثة عثر عليها في مخيمي صبرا وشاتيلا، وتوزعت على النحو التالي: ٢١٢ جثة دفنت في المقابر الجماعية، ولم يتمكن أحد من تحديد هويات أصحابها، ٣٠٢ جثة تم التعرف عليها وإحراقها على أيدي فرق الإسعاف المحلية، ٢٤٨ جثة أمكنهم التعرف عليها، وتم دفنها بفضل الصليب الأحمر الدولي. وتضيف المصادر ذاتها أن حوالي ١٢٠٠ جثة أخذتها عائلات أصحابها ووارو‌ها الثرى في مقابر خاصة، مما يصل بعدد الضحايا إلى الرقم ألفين.

وإضافة إلى الألفي جثة التي عثر عليها والتي دفنت أو أحرقت بعد المجزرة، يجب ألا نغفل ثلاث فئات من الضحايا:

الضحايا التي دفنها المهاجمون في المقابر الجماعية أثناء المجزرة. ويستحيل إحصاء هؤلاء الضحايا بدقة، لأن السلطات اللبنانية منعت نبش هذه المقابر. والتقديرات غامضة جداً، وتدور حول عدة مئات من الضحايا.

الضحايا التي لم تنتشل جثثها من تحت أنقاض زهاء ٢٠٠ بيت. والتقديرات هنا أيضاً صعبة جداً، وإن كانت تدور حول مئات من الضحايا، وقد أسفر اليوم الأول عن العثور على ١١٥ جثة، وعثر في اليوم الثاني على ٥٦ جثة. وبعد عدة أيام تخلوا عن هذا النوع من البحث نظراً لحالة التعفن التي أصابت الجثث.

ويعتبر كل الذين عالجوا هذه المسألة أن تقدير ضحايا هاتين الفئتين بعدة مئات هو تقدير معقول.

تبقى أخيراً، الفئة الثالثة: فئة المفقودين. وقد قدرت عددهم وكالة الصحافة

الفرنسية بأكثر من ألفين، في ٢٣ أيلول-سبتمبر. والمفقودون هم كل الذين اقتيدوا بالشاحنات إلى جهة مجهولة. ولا يشهد على ذلك الناجون وحدهم. فهناك صحفي دنمركي يؤكد أنه شاهد شاحنة مليئة تغادر مخيم شاتيلا مساء الجمعة في ١٧ أيلول-سبتمبر. وكتبت جريدة [نيويورك تايمز] تقول: إن الأوساط الدبلوماسية الأمريكية تخشى أن يكونوا نقلوا إلى الجنوب ليذبحوا هناك.

وبالرغم أن عدداً من الذين اعتبروا مفقودين قد عادوا إلى الظهور فإنه يمكن الاعتبار بأن تقدير عدد المفقودين بعدة مئات هو تقدير معقول.

وهكذا، فإذا جمعنا ضحايا كل الفئات مجتمعة، فإننا نصل، استناداً إلى المعطيات الآنفة الذكر، إلى حوالي ٣٠٠٠ ضحية.

بين ٣٠٠٠ و٣٥٠٠ رجل وطفل وامرأة قتلوا في حوالي ٤٠ ساعة بين ١٦ و١٧ و١٨ أيلول-سبتمبر ١٩٨٢، من أصل ٢٠ ألف نسمة كانوا في المخيمين عشية بدء المجزرة. ومن أصل ٣٠٢ جثة التي تمكنت السلطات من التعرف عليها وتحديد هويات أصحابها، كان هناك ١٣٦ لبنانياً. ويسود الاعتقاد أنّ حوالي ربع الضحايا من اللبنانيين. أما الباقون فهم من الفلسطينيين.

في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الأحد، وصل الجيش اللبناني بدباباته وناقلات الجنود، وتمركز بقوة داخل مخيمي صبرا وشاتيلا، وسيطر على منطقة المخيمين بكاملها. وعند وصولهم، انسحب الجيش الإسرائيلي من القطاع بأكمله، ومن مباني المدينة الرياضية حيث كان يدقق في هويات كل الذكور من سكان المنطقة.

الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يغتنمون أية فرصة منذ اندلاع هذه الحرب، للتحدث إلى الصحفيين، أصيبوا فجأة بالخرس والبكم. وقد كتب المراسل العسكري لجريدة [معاريف] يقول: «لم أشاهد جنوداً صامتين مثل هذا الصمت منذ اندلاع الحرب. فقد كانوا يصغون إلى أسئلتنا ولا يجيبون». صف ضابط وحيد قال بهمس: «إيلي جيفا كان على حق»، وإيلي جيفا كما تذكرون، هو ذلك الضابط الشاب الذي اختار أن يستقيل من الجيش الإسرائيلي قبل ستة أسابيع، لأنه اعتبر أن اقتحام بيروت سيؤدي حتماً إلى كارثة لا يريد أن يكون له نصيب فيها.[١]

(١) تحقيق نشره أمنون كابليوك الصحفي المتخصص بالشؤون العربية حول مجزرة صبرا وشاتيلا.

تغطية روبرت فيسك لأخبار المجزرة

من روبرت فيسك؟

قال ناشر كتاب [**ويلات وطن**] لمؤلفه روبرت فيسك:

«روبرت فيسك واحد من أبرز المراسلين الصحفيين في الشرق الأوسط، وحائز على أكبر عدد ممكن من الجوائز البريطانية الكبرى عن مقالاته عن الشرق الأوسط، وكان بين أربعة صحفيين ظلوا في لبنان طوال سنوات الحرب... وفي اليوم الذي ظهر فيه آخر مقال من السلسلة -التي يتألف منها هذا الكتاب- نظم الاتحاد الصهيوني مظاهرة خارج مكاتب التايمز في لندن، حمل خلالها بعض الأنصار يافطات تقول: بأن الجريدة **سلاح عربي سري جديد** وبأن منظمة التحرير ستكون المالك لجريدة التايمز».

والذي أقوله: روبرت فيسك صاحب ضمير حيّ، ينقل الحقيقة كما هي، ويقتحم ميادين القتال ليرى بعينيه ماذا يحدث على الأرض؟ ولا يبالي بمن يغضب أو يرضى، أول مرة سمعت باسم هذا الصحفي الحر أثناء مجزرة مدينة حماة في شهر شباط عام ١٩٨٢، وبعد أن قطع [ن.ب.س] جميع الاتصالات البرية والإعلامية حتى لا تنقل أخبار مجازرهم إلى خارج سورية. كان بإمكان الصحفيين الأجانب السفر إلى دمشق، ولكن ليس بإمكانهم زيارة المدينة المنكوبة إلا روبرت فيسك فقد

ضحّى بنفسه، وكان الموت أقرب إليه من شراك نعله، ووصل إلى حماة بطريقة معقدة لا يعلم عنها النظام شيئاً، ثمّ نقل إلى العالم عبر جريدة [التايمز] حقيقة ما يجري فيها من مجازر دموية، قال: إن القتلى والجرحى أكثر من عشرة آلاف وليسوا مئات كما يدعي النظام، وتحدث عن المجاعة التي يتعرض لها أهل المدينة، وعن انضمام بعض الجنود إلى المتمردين، ثمّ أشار إلى الانفجار الذي ألحق أضراراً فادحة بمبنى وزارة الأعلام.

شجبت الإذاعة السورية تقرير روبرت فيسك واعتبرته مجرد أكاذيب، غير أنّ جريدة التايمز تمسكت بصحة رواية فيسك، وشرحت كيف دخل إلى المدينة؟ وعبّرت عن دهشتها من إنكار الإذاعة السورية لما كتبه روبرت فيسك.

إذاً، فمنذ عام ١٩٨٢ وأنا أتابع ما يكتبه روبرت فيسك، ومن ذلك تقديري لما كتبه عن حرب أفغانستان التي أطاحت بدولة طالبان، وكذلك تغطيته لأخبار اجتياح إسرائيل للبنان، واجتزأت صفحات من كتابه [**ويلات وطن**] لأنني أرى بأنها من أجود ما كتب عن المجزرة التي ارتكبتها القوات المارونية بالتنسيق مع القوات الإسرائيلية في مخيمي صبرا وشاتيلا ... كان فيسك يتحرك ويرصد الأحداث مع عدد من المراسلين والدبلوماسيين، ومن أشهرهم: [بل فولي] مراسل الأسوشيتد برس، ودبلوماسي نرويجي من زملاء آن كارينا، ومراسل رويتر، وجنكنز الذي يتحدث عنه كثيراً كصحفي صاحب ضمير حيّ، وزميله في العمل [تفايت].

روبرت فيسك تحدث في تقريره عن مجازر إسرائيلية أخرى في غير مخيمات صبرا

وشاتيلا وبرج البراجنة، وفيما يلي مثالان على ذلك:

مجزرة صيدا:

ففي تقرير له عن صيدا قال:

«بدا القطاع الجنوبي من صيدا وكأن إعصاراً قد اجتاح بناياته السكنية وشققها، وأطاح بالشرفات والأعمدة التي تقوم عليها السقوف فانحسرت بعض الأجساد بين الركام، واستولى الذهول على أهل صيدا، وهم يرون الجرافات الإسرائيلية تحفر الأرض وتجرف الركام».

وأضاف:

«كانت الجثث مسجاة إحداها فوق الأخرى إلى علو يبلغ نحو ستة أقدام، والأذرع والأرجل متشابكة في أحضان الموت بطريقة غريبة غير طبيعية. وكان المدنيون الذين لقوا حتفهم في الغارات الجوية الإسرائيلية على صيدا كثيرين إلى حد أن الصليب الأحمر لم يكن قد فرغ بعد من دفنهم. ولهذا رشوا مسحوق الحامض على الجثث في المدرسة الصغيرة الواقعة إلى جانب طريق جزين، فخفف الغبار الأبيض الجميل من تعاسة المكان، وحوّل أجساد الرجال والنساء والأطفال إلى تماثيل تشبه سكان مدينة بومبي القديمة عندما صب بركان فيزوفيوس عليهم حممه، وحّول أجسادهم إلى كتل متفحمة».

مجزرة بيروت:

كان ذلك في شهر حزيران من عام ١٩٨٢، وفي شهر تموز تحدث عن مجازر أخرى وقعت في بيروت ومحيطها باستثناء بيروت الشرقية، وعن انتهاك حرمة المستشفيات واستخدام القنابل العنقودية، والقذائف الفوسفورية، وينقل عن الطبيبة أمل الشماع في مستشفى البربير:

«..لم يكن بين أطباء بيروت من سبق له أن عالج جروحاً فسفورية سوى قلة. وكان أكثرهم يلجؤون إلى حرق كريم يخلع على البشرة لوناً أحمر فاقعاً... وأخذ حسين وزوجته عند دخولهما المستشفى إلى وحدة التوليد ليغسلهما الأطباء باستمرار في أحواض الحمامات. صدمت الجروح الهيئة الطبية في مستشفى البربير. فعندما أحضرت العائلة في آخر تموز إلى غرفة الطوارئ، وجدت الدكتورة شماع أن توأمين يبلغان من العمر خمسة أيام قد توفيا، وأنهما مع ذلك كانا لا يزالان يحترقان. كانت قصة شماع مروّعة واختنق صوتها وهي ترويها.. قالت:

كان عليّ أن آخذ الطفلين وأضعهما في دلو ماء لأطفئ اللهب. وعندما أخرجتهما بعد نصف ساعة، كانا لا يزالان يحترقان، وحتى في غرفة الموتى ظلا يحترقان طوال ساعات». وفي صبيحة اليوم التالي أخرجت أمل شماع الجثتين الصغيرتين من قاعة الموتى لدفنهما. واستولى عليها الذعر والخوف عندما اندلع اللهب مرة أخرى من جثتيهما».

الإرهابيون

«سوف تلد الحوامل إرهابيين، وسيصبح هؤلاء الأطفال إرهابيين عندما يكبرون».

كتائبي متورط في مجازر صبرا وشاتيلا لدى استجوابه من قبل الجنود الإسرائيليين في بيروت الغربية ١٧ أيلول ١٩٨٢

«إننا نعرف (ما يجري) لا نحبه. ولا تتدخلوا فيه».

رسالة قائد كتيبة إسرائيلية إلى رجاله عندما بلغه خبر ذبح الفلسطينيين.

١٧ أيلول ١٩٨٢

إن الذي أبلغنا هو الذباب. إذ كان طنين الملايين منه أبلغ من الرائحة، هذا الذباب الأزرق الكبير تهافت علينا في البداية وكأنه لا يفرق بين الأحياء والأموات. ولو بقينا في أماكننا ندون الملاحظات في كراساتنا، لتداعت جحافل الذباب على أوراقنا وأيدينا وأذرعنا ووجوهنا، وخصوصاً حول أفواهنا وأعيننا، متنقلة من جسم إلى آخر، من طوابير الأموات إلى الفئة القليلة من الأحياء، ومن جثة هامدة إلى مراسل، وأجسامها الصغيرة الخضراء تتلهف على لحم جديد تقع عليه وتنعم به.

كان علينا أن نتحرك بسرعة قبل أن يلسعنا. إذ أحاط برؤوسنا كأنه سحابة رمادية، وأخذ ينتظر أن نتكرم عليه بأن نلعب دور الأموات. على أن الفضل يعود

إليه في أنه كان الصلة الملموسة الوحيدة بيننا وبين الضحايا من حولنا، الصلة التي تذكرنا بأن هناك حياة في الموت. ولا بدّ من القول بأن ذلك الذباب لم يعرف التحيز. فلم يكن يأبه إطلاقاً بهوية الجثث حتى ولو كانت لضحايا المجازر الجماعية. وكان سيتصرف بالطريقة ذاتها لو كانت الجثث لضحايا أي مجتمع آخر. ولا بدّ أن الأمر كان كذلك خلال أيام الوباء الكبير في أوروبا.

في البدء لم نستخدم كلمة مجزرة ولم نتكلم كثيراً لكي لا يجد الذباب طريقه مباشرة إلى أفواهنا. ولهذا السبب أيضاً وضعنا المناديل فوق أفواهنا ومناخيرنا. وفي حين أنّ رائحة الموتى في صيدا سببت لنا الغثيان، فإنّ رائحتهم في شاتيلا جعلتنا نتقيأ. وكانت تنفذ من خلال أسمك المناديل إلى مناخيرنا. وبعد دقائق رأينا الموتى.

كانوا في كل مكان، في الطريق، في الأزقة، في الساحات الخلفية، في الغرف المحطمة، بين الركام وفوق النفايات. وأما القتلة فهم رجال الميليشيا المسيحية الذين سمحت لهم إسرائيل بدخول المخيمات. وكان الدم في بعض الأماكن لا يزال رطباً. وبعد أن أحصينا مئة جثة، توقفنا عن العد. وكانت جثث الشبان والنساء والأطفال والمسنين ممدَّدة في الزواريب حيث طعنوا بالسكاكين أو قتلوا بالرصاص. وكان كل دهليز في الركام يكشف عن المزيد من الجثث. واختفى مرضى أحد المستشفيات الفلسطينية بعد أن أمر المسلحون الأطباء بالخروج. ووجدنا في كل مكان معالم قبور جماعية حفرت على عجل. وقد بلغ عدد ضحايا المجزرة ألفاً وحتى ألفاً وخمسمائة.

وحتى في الوقت الذي كنّا فيه داخل المخيمات -وسط هذه الأدلة الوحشية الفظيعة- كنّا نستطيع رؤية الإسرائيليين وهم يرقبوننا. واستطعنا رؤيتهم كذلك على سطح البناية الثانية في جادة كميل شمعون من الناحية الغربية، وهم يجولون بأنظارهم من خلال مناظير الميدان بين صفوف الجثث التي تغصّ بها الشوارع. وكانت عدسات المناظير تلمع أحياناً تحت أشعة الشمس وهم يصوبونها على هذا القسم أو ذاك من المخيم. وأخذ [لورن جنكنز] يسبّ ويلعن. لقد كنّا جميعاً نشعر بالغثيان. كنّا نتنشق رائحة الموت ذاته، من خلال تحلل الجثث المحيطة بنا. وأدرك جنكنز في الحال أنّ لشارون وزير الدفاع الإسرائيلي ضلعاً في هذه الفظاعة المرعبة. فصاح قائلاً:

«شارون ابن الزانية. هذه دير ياسين ثانية».

إنّ ما شاهدناه في مخيم شاتيلا الفلسطيني في العاشر من صباح ١٨ أيلول ١٩٨٢ لا يستعصي على الوصف فحسب، وإنما يجعل من الأسهل نقل الصورة بلغة الفحص الطبي الذي لا يرحم. لقد حدثت مذابح من قبل في لبنان، ولكنها نادراً ما كانت بهذا الحجم أو بإشراف جيش نظامي يفترض فيه الانضباط. لقد قتل عشرات الآلاف في هذا البلد في خضم معارك الذعر والكراهية، ولكن أصحاب المئات من الجثث المتناثرة حولي، كانوا من العزّل الذين لا سلاح معهم. لم يكن هذا مجرد حدث -وما أسهل استخدام هذا التعبير في لبنان- بل قتلاً جماعياً أو مجزرة تجاوزت كلّ ما كان يصفه الإسرائيليون في ظروف مشابهة بأنه إرهاب وحشي. لقد

كان من أبشع الفظائع.

أصابنا -أنا وجنكنز وتفايت- ما شاهدنا في شاتيلا بذهول لم نتمكن معه في بادئ الأمر من ترجمة الصدمة إلى كلمات. أمّا [بل فولي] مراسل الأسوشيتد برس الذي رافقنا فاقتصر ما كان يقوله وهو يدور حولنا على الشكوى إلى الله من فظائع البشر. كان بوسعنا أن نتقبّل منظر بعض جرائم القتل وحتى مشاهدة عشرات القتلى في ميادين المعارك. لكنّ الذي كنّا نشاهده شيء آخر: جثث نساء في بيوتهنّ مزّقت ثيابهنّ حتى الخصر في حين انفرجت سيقانهنّ، وأطفال ذبحوا وقطعت رقابهم، وطوابير من الشبان أطلقت النار عليهم من الخلف، وأطفال اسودّت أجسادهم لأنّهم ذبحوا قبل أربع وعشرين ساعة، وألقيت ممزقة مشوهة في أكوام القمامة بجانب علب الطعام والزجاجات الفارغة وبقايا المواد الطبية الإسرائيلية.

أين كان القتلة؟ أو بلغة الإسرائيليين أين كان الإرهابيون؟ بينما كنّا نتجه بالسيارة إلى شاتيلا، شاهدنا الإسرائيليين من أعلى البنايات في بولفار كميل شمعون، ولكنهم لم يحاولوا إيقافنا. والواقع أننا ذهبنا أولاً إلى مخيم برج البراجنة لأن أحدهم ذكر لنا أنّ مجزرة وقعت فيه، لكننا لم نشاهد سوى جندي لبناني يطارد سارق سيارة في الشارع. وعندما عدنا ووصلنا إلى مدخل مخيم شاتيلا قرّر جنكنز أن نوقف السيارة. وقال: «لا أحب هذا. أين ذهب الناس؟ وما هذه الروائح؟».

كان المرء في الماضي إذا اجتاز مدخل شاتيلا يرى صفاً من البيوت الصغيرة التي يتألف كل منها من طابق واحد. وفي أواخر عام ١٩٧٠ أجريتُ هناك عدداً من

المقابلات الصحفية. أما هذه المرة فعندما اجتزنا المدخل الموحل وجدنا أن البيوت قد نسفت، وتناثرت كبسولات الرصاص على الطريق الرئيسي، ورأيت بعض القنابل الضوئية الإسرائيلية وهي لا تزال مشبوكة بمظلاتها الصغيرة. هذا في حين كانت أفواج الذباب تغير على الركام وكأنها تشم رائحة النصر.

رأينا الجثث مكومة في زاروب إلى اليمين وعلى بعد خمسين ياردة فقط من مدخل المخيم. وكانت هناك أكثر من اثنتي عشرة جثة لشبان صغار التفت أرجلهم وأيديهم بعضها حول بعض، وهم يعانون آلام الموت. وكان كل منهم مصاباً برصاصة أطلقت على صدغه واخترقت مخه. وبدت على الجانب الأيسر من رقاب بعضهم ندوب قرمزية أو سوداء، وخُصي واحد منهم بعد تمزيق بنطلونه، والذباب يتداعى على أحشائه.

كانت عيون هؤلاء الشبان مفتوحة، وأصغرهم لا يتعدى الثانية أو الثالثة عشرة من عمره، وكانوا يرتدون الجينز التي ضاقت عليهم بعد أن انتفخت أجسادهم بسبب الحرارة. ويبدو أنهم لم يُسرقوا فقد كانت حول رسغ مسودّ لأحدهم ساعة سويسرية تشير إلى الوقت الصحيح، وكانت مدلاة، وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وشاهدنا في زاروب مغمور بالأنقاض، ويتفرع من الطريق الرئيسي جثث خمس نساء متوسطات العمر وعدد من الأطفال فوق كوم من الركام. وكانت جثة إحداهنّ ممدّدة على ظهرها وقد تمزق ثوبها وبرز من ورائها رأس طفلة شعرها

قصير أسود وأجعد، وعيناها تحدقان فينا بغضب. ولكنها كانت قد فارقت الحياة.

ورأينا طفلة أخرى لا تتجاوز الثالثة من عمرها ملقاة على الطريق، وكأنها دمية مطروحة، وقد تلوّث ثوبها الأبيض بالوحل والدم والتراب. وكانت قد أصيبت برصاصة طيرت مؤخرة رأسها واخترقت دماغها. ورأينا جثة امرأة تضم طفلة إلى صدرها. وكانت الرصاصة قد اخترقت صدرها وقتلت الطفلة أيضاً. وتبين أنّ أحدهم بقر بطنها ومزّقه. وربما كان يحاول قتل الجنين الذي لم ير النور بعد. وكانت عيناها جاحظتين ووجهها الأسود قد تجمّد بسبب الذعر والهلع.

حاول تفايت أن يسجل بصوته كل الوقائع على شريط باللغة النرويجية. وتكلّم ببطء ومن غير انفعال. قال: «وجدت جثتين لامرأة وطفلها، وجثث ثلاثة نساء غيرهما». وأخذ من حين إلى آخر وهو يسجل يضغط على الزر ويوقف آلة التسجيل كالمريض، ويميل نحو جانب الطريق للتقيؤ فوق الروث. واكتشفنا أنا وجنكنز وفولي شعاراً ضيقاً وسمعنا صوت عربة مجنزرة على الطريق. نظر إليّ جنكنز باهتمام وقال: «إنهم لا يزالون هنا». وبالفعل كانوا هناك. كان القتلة المجرمون لا يزالون في المخيم. وكان هاجس فولي أن يأخذ رجال الميليشيا المسيحيون فيلمه، وهو الدليل الوحيد الذي يعرّفه على ما حدث. وأسرع يجري في الزقاق.

وكانت مخاوفنا أنا وجنكنز أكبر من ذلك. فإذا كان القتلة لا يزالون في المخيم، فإنّ رغبتهم في التخلص من الشهود ستفوق رغبتهم في الحصول على الصور. ورأينا بوابة معدنية بنية اللون شبه مفتوحة، ففتحناها وأغلقناها وراءنا بسرعة،

واندفعنا نحو الباحة. وسمعنا صوت جنازير العربة وهي تصطدم بركام الأسمنت والحجارة. فاستولى علينا أنا وجنكنز الخوف، وأخذ أحدنا ينظر إلى الآخر. ثمّ شعرنا أننا لسنا وحدنا وأن حولنا شخصاً آخر. وتبيّن لنا أننا بجانب شابة جميلة مستلقية على ظهرها.

كانت مستلقية كأنها تستحم بأشعة الشمس الدافئة. لكنّ الدم الذي نزف من ظهرها كان لا يزال رطباً. كان القتلة قد غادروا المكان قبل دخولنا بقليل. وكانت الضحية قد ضمت قدميها وفتحت ذراعيها وكأنها قد شاهدت منقذها. وكان وجهها هادئاً وعيناها مغمضتين وفوق رأسها حبل غسيل عليه سراويل أطفال وجوارب مثبتة بالملاقط. وكانت هنالك ثياب متناثرة على الأرض. ولا بدّ أنها كانت تنشر ثياب عائلتها حينما دخل المجرمون القتلة. فلمّا وقعت، تناثرت الملاقط من يدها فكونت حول رأسها دائرة خشبية صغيرة.

وكان المفتاح لمعرفة طريقة قتلها هو خرق في صدرها وبقعة متزايدة الاتساع على الأرض. ولم يكن الذباب قد اهتدى إليها. وظننت أن جنكنز يصلي، ولكنّه كان يشتم ويلعن ويتمتم بين اللعنة والأخرى: «يا إلهي». وشعرت بحزن شديد على هذه المرأة. ويبدو أنّ حزن الإنسان على الميت يشتدّ إذا عرف أنه شاب بريء لم تبدأ جثته بالتحلل. وظللت أتأمل في وجهها وفي الطريقة اللائقة التي استلقت بها تحت حبل الثياب كما لو أنني كنت أنتظر أن تفتح عينيها.

لا بدّ أنها كانت مختبئة في بيتها حين سمعت إطلاق الرصاص في المخيم، ولعلها

استطاعت أن تفلت من المسلحين الذين يدعمهم الإسرائيليون حتّى صبيحة ذلك اليوم، وعندما خرجت إلى ساحة البيت ولم تسمع صوت إطلاق النار ظنّت أنّ الخطر الداهم قد زال فعادت إلى مشاغلها اليومية. ولم يكن باستطاعتها أن تعرف ما حدث. ولابدّ أنّ باب الباحة قد فتح بسرعة كما فتحناه نحن، فدخل القتلة وراءها، وغادروا المكان قبل دخولنا إليه بدقيقة أو دقيقتين.

مكثنا في الباحة بضع دقائق أخرى. وكنا وأنا وجنكنز نشعر بالخوف. لكننا نجحنا مثل تفايت الذي اختفى مؤقتاً في البقاء على قيد الحياة. وكان وجودي مع جنكنز يشعرني بالاطمئنان. لقد اغتصب الجناة من رجال الميليشيا -أي قاتلو هذه الفتاة- النساء في شاتيلا، وقتلوهنّ بالسكاكين، ثم أطلقوا النار على الرجال. على أنني كنت أظن بأنهم سيتردّدون في قتل جنكنز لأنه أمريكي يعرف كيف يخاطبهم. قال: «دعنا نخرج من هنا» ثمّ غادرنا وألقى نظرة على الشارع قبل أن ينطلق فتبعته، وأغلقت الباب ببطء شديد حتّى لا أزعج الشابة الجميلة النائمة التي تحيط برأسها هالة من ملاقط الثياب.

كنا لا نزال في مخيم شاتيلا. وعاد فولي إلى الشارع القريب من مدخل المخيم. وكانت العربة المجنزرة قد اختفت مع أنني كنت لا أزال أسمع صوت جنازيرها وهي تصطك بالشارع الرئيسي في طريقها إلى الإسرائيليين الذين ظلوا يراقبوننا. وسمع جنكنز صوت تفايت قبل أن يتوارى عن نظره وراء كوم من الجثث. وفجأة وجدت نفسي أمام شاب مال على عامود بيت ويداه خلف رأسه.

وكنت أسمع جنكنز وتفايت وهما على بعد مئة ياردة تقريباً وعلى الجانب الآخر من متراس عالٍ مغطى بالرمل والتراب، ويرتفع نحو ١٢ قدماً. وكان من الواضح أن إحدى الجرافات أقامته قبل ساعات وصعدتُ بصعوبة على إحدى جوانبه وقدماي تنزلقان فوق كتل القذارة الإنسانية. وفقدت توازني عند القمة، فاستندت إلى عامود من الحجر المسودّ الناتئ من الأرض، وسرعان ما تبين أنه ليس حجراً لأنه كان دافئاً ولزجاً ولصق بيدي. وعندما أمعنت النظر إليه وجدت أنه كوع إنسان مغروس في الأرض.

يا لهول ما رأيت! وجدت نفسي ألقي بالكوع بذعر وهلع وأنفض لحم الميت عن سروالي، وأقفز الخطوات الأخيرة نحو قمة الحاجز. لكنّ الرائحة كانت مرعبة. وفجأة رأيت تحت قدمي وجهاً ينظر إليّ وقد طار نصف فمه. وكان من الواضح أنه أصيب برصاصة أو طعن بسكين. أما النصف الثاني من فمه فكان يعجّ بالذباب. وحاولت أن أنظر إليه. ورأيت جنكنز وتفايت يقفان بعيداً بجانب بضع جثث تكوّمت أمام أحد الجدران. ولم أستطع أن أصرخ طالباً مساعدتهما خوفاً من أن أصاب بمرض إذا فتحت فمي.

مشيت على قمة الحاجز، وأخذت أبحث كاليائس المستميت عن مكان أقفز منه إلى الجانب الآخر، لكن وجدت أنني كلما تقدمت خطوة، ارتفع التراب أمامي، وأخذ الحاجز كله يهتز اهتزازاً مخيفاً تحت قدمي. وعندما نظرت إلى الأسفل تبين لي أن الرمل لم يكن إلا غطاء رقيقاً وضع لإخفاء الوجوه والأطراف البشرية عن

الأعين. ورأيت شيئاً كالحجر، فإذا به معدة إنسان. ورأيت رأس رجل وصدر امرأة عارياً وأقدام طفل! يا للفظاعة! كنت أسير على عشرات الجثث التي كانت تهتز تحت قدمي.

كان أحدهم قد دفن الجثث والذعر يستولي عليه. ثمّ جرفت كلها إلى جانب الزاروب. والواقع أنني عندما رفعت رأسي شاهدت جرافة بلا سائق تشهد على الجريمة البشعة.

وعبثاً أخذت أحاول بكل طاقتي ألّا أطأ على الوجوه بقدمي. فنحن جميعاً نشأنا على احترام الموتى حتّى على هذا الحاجز وفي تلك اللحظة، وظللت أقول لنفسي بأنّ هذه الجثث المرعبة ليست جثث أعداء وأنّ أصحابها يوافقون على وجودي بينهم، وأنهم يريدون أن يشهد تفايت وجنكنز هذا كله، وعليه فلا مبرر لخوفي من الوقوف فوق جثثهم. على أنه لم يسبق لي أن شاهدت كلّ هذا العدد من الجثث.

قفزت إلى الأرض وركضت باتجاه جنكنز وتفايت. وأظن أنني كنت أئنّ بشكل سخيف لأنّ جنكنز أخذ ينظر حوله باستغراب. ولم أكد أفتح فمي لأتكلم حتى دخل إليه الذباب. وكان تفايت يبدو مريضاً وهو ينظر إلى الجثث التي بدت كالأكياس بجانب الجدار. وكانت جثث شبان وفتيان ممدّدة على الأرض في صف واحد. وكانوا قد أعدموا رمياً بالرصاص وأطلقت النار عليهم من الخلف وهم يقفون صفاً واحداً ووجوههم إلى الحائط. وبقي كلّ منهم حيث وقع.

إنّ هذا الجدار ومجموعة الجثث يذكرنا بشيء كنا رأيناه جميعاً من قبل. ولم ندرك

إلا فيما بعد؛ كم كان هذا المشهد مشابهاً لتلك الصور الفوتوغرافية للإعدامات التي جرت في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. وعندما انحنيت لأنظر عن كثب إلى هذه الجثث التي تبلغ بين اثنتي عشرة إلى عشرين جثة لاحظت وجود الجرح ذاته على الجهة اليسرى من حلوقهم. ومعنى هذا أنهم كانوا يجرحون حلوق الإرهابيين الذين كانوا يحكمون عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص.

في تلك الأثناء سمعنا أحدهم يصيح بالعربية: «لقد رجعوا». فاستولى علينا الخوف وركضنا نحو الطريق. وأعتقد أنه إذا عدنا بالذاكرة إلى ما حدث ندرك أنّ الغضب هو الذي منعنا من مغادرة المكان، لأننا انتظرنا آنذاك قرب مدخل المخيم علّنا نلمح وجوه الذين يتحمّلون وزر ما حدث. لا بدّ أنهم دخلوا المكان بإذن الإسرائيليين، ولا بدّ أنّ الإسرائيليين هم الذين أمدّوهم بالسلاح. وكان الإسرائيليون يشاهدون بوضوح وعن قرب ما يجري. وهم الإسرائيليون الذين كانوا يراقبوننا بمناظيرهم.

وسمعنا صوت عربة مدرعة إسرائيلية أو كتائبية تتحرك وراء جدار يقع إلى الغرب. غير أنّه لم يظهر أحد. فواصلنا السير. وتكررت المشاهد أمامنا. فقد كانت الأسر في شاتيلا قد أوت إلى فراشها في غرف النوم عندما اقتحم المسلحون أكواخهم. ورأينا جثثهم ممدّدة على الأرض أو متكوّمة تحت الكراسي. وبدا أنه قد جرى اغتصاب كثير من النساء. وكانت ملابسهنّ مبعثرة على الأرض، وألقيت أجسادهن فوق أجساد أزواجهنّ وكلهم متشحون بسواد الموت.

وكان في المخيم زقاق جانبي آخر على أوحاله آثار جرافة أخرى. وقادتنا تلك الآثار حين تتبعناها إلى قطعة أرض مساحتها نحو مائة ياردة مربعة. ولاحظنا أنها حفرت قبل وقت قصير. وكانت أفواج الذباب متجمعة عليها وتنبعث منها الرائحة الرهيبة المألوفة. وداخلنا الشك في أمر المكان، وخطر ببالنا أن يكون فيه قبر جماعي حفر بسرعة.

وقويت شكوكنا عندما أخذت أحذيتنا تغوص في أرض طرية، ورأينا على الأرض سائلاً شبيهاً بالماء، فتراجعنا وقد تملكنا الهلع إلى موضع آثار الجرافة.

وكان دبلوماسي نرويجي من زملاء آن كارينا قد حضر بسيارته عبر الطريق ذاته قبل بضع ساعات، وشاهد جرافة تحمل في مغرفتها الحديدية نحو اثنتي عشرة جثة تدلّت منها الأذرع والأرجل. من الذي حفر الأرض بهذه المهارة؟ من الذي كان يسوق الجرافة؟ شيء واحد كنا متأكدين منه وهو أنّ الإسرائيليين يعرفون ما حدث، وأنهم شهدوا حدوثه، وأنّ حلفاءهم من الكتائبيين ومسلحي سعد حداد أُرسلوا إلى شاتيلا فاقترفوا جريمة القتل الجماعية هذه.

إنه أفظع عمل إرهابي في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وهو الأكبر حجماً وزمناً، وارتكبه أفراد يعرفون تمام المعرفة أنهم يذبحون أناساً أبرياء.

ومن أغرب وأفضل الصدف أن بعضهم نجا من المجزرة. إذ نادانا ثلاثة أطفال كانوا على سطح أحد المنازل، وقالوا: إنهم اختبؤوا خلال المذبحة. وصرخ عدد من النساء اللواتي كنّ ينتحبن وقلن بأنّ رجالهنّ قتلوا. وقال جميعهنّ بأنّ الذين اقترفوا

الجريمة هم رجال حداد والكتائب، ووصفن بدقة شارات كل من الفريقين.

وكانت على الطريق الرئيسية جثث أخرى. وأشارت إحدى النساء إلى جثة رجل وقالت: «هذا هو جاري السيد نوري الذي يبلغ التسعين من عمره». ورأيناه ممدّداً فوق القمامة على الرصيف، بلحيته الرفيعة وقبعته الصوفية التي كانت لا تزال على رأسه. وشاهدنا رجلاً مسناً آخر ممدّداً أمام بيت وعليه بيجامته. ويبدو أنهم أمسكوا به وذبحوه وهو يحاول النجاة بنفسه. والأمر الذي يصعب تصوره وتصديقه هو أنه كانت هناك خيول مقتولة بجانب أحد الأكواخ. وكان حافر أحدها على الجدار مما يدل على أنه قتل وهو يحاول الهرب.

كان قد دار قتال داخل المخيم. فالطريق قرب جامع صبرا كانت زلقة، وعليها علب الرصاص وأنواع الذخيرة وبعض التجهيزات السوفييتية من النوع الذي كان يستخدمه الفلسطينيون. وحاول قليلون من رجال المخيم كانوا لا يزالون يحتفظون بأسلحتهم أن يدافعوا عن عائلاتهم. لكن لا سبيل الآن إلى معرفة ما فعلوه. ترى متى عرفوا أنّ أهلهم كانوا يذبحون؟ وكيف تسنّى لهم أن يقاتلوا بذلك السلاح القليل؟

وكان في وسط الطريق كلاشينكوف خشب يلعب به الأطفال. وحتى هذا كان قد انشطر.

أخذنا نذرع المخيم مرة بعد أخرى. وكنّا في كل مرة نشاهد في الخنادق المزيد من الجثث الذين صُفّوا قبل إطلاق النار عليهم. وبدأنا نتعرف على الجثث التي سبق لنا أن رأيناها. فهناك المرأة والطفلة التي تطل من وراء كتفها. وهناك السيد

نوري الذي ألقيت جثته فوق القمامة. وفي إحدى المرّات نظرت إلى المرأة والطفلة كمن يتوقع أن يجدها قد تحركت أو في وضع مختلف. كأنّ الموتى قد أصبحوا في نظرنا أناساً أحياء.

وإلى الشمال في صبرا جاءت النساء اللواتي استولى عليهنّ الخوف باكيات يطلبن المساعدة. كان رجالهنّ وأبناؤهنّ وأزواجهنّ وآباؤهنّ قد أخرجوا من بيوتهم ساعة المجزرة. بعضهم وجدت جثثهم، وبعضهم لم يعثر لهم على أثر. وشاهد مراسل لوكالة رويتر رجالاً تحت حراسة الجنود الإسرائيليين بين أطلال المدينة الرياضية. وحضر المزيد من الصحفيين ومصوري الصحف اللبنانية والدبلوماسيين. وكان بينهم مندوبان سويسريان للصليب الأحمر الدولي، أرشدناهما إلى مكان القبور الجماعية. وكان بينهم كذلك مراسل للإذاعة السويدية.

وجدنا في المدينة الرياضية المئات من الأشخاص المفقودين الذين ذكرهم لنا مراسل رويتر، وكانت غالبيتهم من اللبنانيين الذين كانوا يعيشون في صبرا. وكان المسلحون قد ساقوهم إلى هناك لاستجوابهم. وكانت تحرس الجانب الغربي للمدينة الرياضية قوات من الجيش الإسرائيلي ورجال من الاستخبارات الإسرائيلية [شين بت] بملابسهم العادية ونظاراتهم الشمسية ورشاشات أوزي. وكان هناك أيضاً مسلحون من رجال الميليشيات. ورأيت ثلاثة منهم يسوقون رجلاً استولى عليه الذعر. ومن الواضح أن الإسرائيليين هم الذين سمحوا للمسلحين بالقيام بذلك. وذكر لنا الإسرائيليون أنفسهم أنّ ما يجري هو عملية

بحث عن«الإرهابيين». الإرهابيون مرة أخرى.

إن كلمة [إرهابيون] ذاتها أصبحت من الكلمات القذرة. صارت تدل على الإجرام. وهي التي أدت إلى اقتراف تلك الفظائع. وشاهدت أنا وجنكنز مئات من السجناء الذين وقفوا أو جلسوا على التراب بجانب الجدار. وسرت نحوهم متجاهلاً الإسرائيليين. وكان من الواضح أنهم ظنوا أننا أنا وجنكنز من رجال مخابراتهم فلم يوقفوني. فنزلت إلى غرفة في الطابق السفلي من المدرج كانت تستخدم كزنزانة. فصاح أحدهم: «ساعدونا». وعندئذ ظهر أحد الجنود الإسرائيليين، فقلت: «صحافة» فقال: «اخرج من هنا، هؤلاء إرهابيون».

لكنهم لم يكونوا إرهابيين. فعلى بعد بضعة أمتار رأى مراسل لرويتر في إحدى الزنزانات لبنانياً من كورنيش المزرعة كان يعمل عنده على التلكس. فذهبنا إلى ضابط إسرائيلي برتبة كولونيل اسمه تات ألوف وأخبرناه أننا وجدنا موظفاً لدى رويتر يعمل على التلكس، وأنه من الواجب إطلاق سراحه. وبعد أخذ ورد وكثير من الرجاء سلم الرجل إلينا. فسار به موظف رويتر البريطاني وذراعه حول كتفيه.

وقال لنا سجين كان في زنزانة أخرى: «إنهم يأخذوننا واحداً بعد آخر للاستجواب. وهم من ميليشيا حداد. وهم في العادة يعيدون السجناء بعد استجوابهم ولكن ليس دائماً. فمنهم يؤخذ ولا يرجع». وظهر كولونيل إسرائيلي آخر وأشار إليّ وطلب مني الرحيل. وأردت الاستمرار في الكلام ولكنّ السجناء لاذوا بالصمت. فسألت الكولونيل: «لماذا لا يستطيعون الكلام؟». فأجاب:

«يستطيعون ذلك إذا أرادوا. ولكن ليس لديهم ما يقولونه».

كانت أقرب الجثث تقع على بعد ٥٠٠ ياردة، وكانت رائحتها قوية في المكان الذي كان يقف فيه الجنود الإسرائيليون ورجال الشين بت لكنهم استمروا يتحدثون عن الإرهابيين. وهذا بالطبع إنكار بشع للواقع. والتقى جنكنز بضابط كان قد تعرف إليه. قال هذا: «هؤلاء موقوفون للاستجواب. إذ يشتبه في أنهم إرهابيون». ولم يكن لما قاله أي صلة بالواقع. فقلت: «اسمح لي بكلمة. ما الذي يجري هنا؟ الجثث في كل مكان. إنها هناك. انظر، هناك أكوام منها». قال: «لا أدري». فقلت: «يمكنك أن تشم رائحتهم». فقال: «آسف، لا معلومات لدي».

كان هذا الإسرائيلي ممتلئاً طويل القامة، قوي البنية، له شعر قصير أسود وسحنة سمراء. قلت له: «اسمح لي أن أقول لك بأن هذه المشاهد تبدو مشابهة بعض الشيء لما في معتقل الإبادة النازي تربلنكا». وكانت هذه هي أول مقارنة خطرت ببالي. ولم أقل تربلنكا لأنّ اليهود قتلوا هناك، بل لأنه كان معتقل إبادة. فنظر إلي الإسرائيلي بدون أي تأثر.

كنت أحاول أن أصور له فظاعة ما حدث، وأنه ليس مجرد تجاوز بل مجزرة اقترفها حلفاء إسرائيل أمام سمع الإسرائيليين وبصرهم. وسألته: « ألا تشم رائحة الهواء؟» وكنت أتوقع أن يجادلني أو أن يقول بأنه لا وجه للمقارنة بين ما حدث وبين تربلنكا. لكنه لم يفعل. إذ كان عليه أن يتظاهر بأنه لا يعرف ما بداخل مخيم شاتيلا.

وقال له جنكنز بغضب: «لماذا لا تقول لنا ما حدث؟ قل لنا: ما الذي حدث؟

هل سمحتم بالأمس للميليشيا المسيحية بدخول هذا المكان؟» قال الإسرائيلي: «لم أكن هنا البارحة. ولم أصل إلا هذا الصباح».

فزوى جنكنز ما بين عينيه وثارت ثائرته، وصاح قائلاً: «أنت تكذب. لقد كنت هنا البارحة، ورأيتك بعينيّ، وأوقفت سيارتي عندما كنت متجهاً إلى شاتيلا. لقد تحدثت معك البارحة. كنت هنا. إنك تكذب».

كان من الواضح أن الإسرائيلي تذكر جنكنز فرفع يده قائلاً: «ظننت أنك تسألني عن شيء آخر. لا أتذكر وليس لدي أية فكرة عمّا كان يحدث هنا».

وشاهدنا صفاً من دبابات الميركافا على الطريق الرئيسي، ورجالها يجلسون على أبراجها يدخنون ويتفرجون على الناس، وهم يساقون من الملعب فرادى أو كل اثنين معاً، وبعضهم يطلق سراحه والبعض الآخر يسوقه رجال المخابرات الإسرائيلية أو اللبنانيون الذين كانوا يرتدون بدلاً خاكية فضفاضة.

ثمّ عدنا إلى المخيم حيث أقبلت عليّ امرأة فلسطينية على فمها ابتسامة قاسية، وقالت: «هل حصلت على صور جيدة؟ وهل لديك ما يكفي للكتابة؟ هل تسير أمورك على ما يرام؟ إنه يوم جميل، أليس كذلك؟». وظننت أنها ستصب لعناتها على رأسي، ولكنها واصلت سخريتها المقصودة، فقالت: «أنتم رجال الصحافة تلتقطون صوراً جيدة. آمل أن يسير كلّ شي معك على ما يرام، طاب يومك».

ذهب جنكنز ليتصل مع مكتبه بالتلكس. وانطلق تفايت بسيارته إلى أوتيل الكومودور لاستخدام التيلفون. وعدت أدراجي عبر المخيم وأنا أضع منديلي فوق

وجهي. ومررت بالسيد نوري وبالرجل المسن الآخر، وسرت إلى يسار جدار الإعدام فحاجز الجثث، والجرافة الخاوية، والخيول المقتولة، والمرأة التي تضم الطفلة من فوق كتفها. وعندما دنوت من باب المخيم، عند الممر الذي يؤدي إلى الطريق الرئيسية بين السفارة الكويتية ومنطقة الفاكهاني، أدركت أنني كنت المخلوق الحيّ الوحيد في هذا الجزء من المخيم.

وسمعت هدير محركات على الطريق. وعندما نظرت فوق الجدار الواقع خلف الأشجار شاهدت صفاً من الدبابات الإسرائيلية، وطرق سمعي صوت ضابط إسرائيلي يصيح من مكبر على السيارات المصفحة: «ابتعدوا عن الشوارع. إننا نبحث فقط عن الإرهابيين. ابتعدوا عن الشوارع. سوف نطلق النار».

تجاوز ما كان يجري كلّ حدود البشاعة. فالإسرائيليون يأمرون الأموات بأن يبتعدوا عن الشوارع. هل هناك ما هو أكثر سخافة وغرابة ووحشية؟ وسرت إلى البوابة ومنديلي على فمي وأنفي. ورأيت خلف جدار المخيم صف الدبابات الإسرائيلية يتبعه صفان من المشاة الإسرائيليين. وحينما بلغوا مدخل شاتيلا اندفعوا إليه بأقصى سرعة، وبنادقهم بأيديهم وتمركزوا في الداخل، وكل منهم يحمي الآخر من شبح الإرهابيين.

وسرت في الشارع، فتقدم مني ضابط صغير وقال: «ليس مسموحاً لك بالدخول إلى هنا، اخرج». فقلت له: «صحافة». ورفضت لأنني كنت قد شاهدت بما فيه الكفاية. فقال: «إنني آمرك بالرحيل في الحال». فهززت رأسي ولم أتحرك.

وشعرت بالغثيان. فالرائحة النتنة كانت تنبعث من ثيابي. أجل، كانت تفوح مني رائحة الأموات. لم أعد آبه للأوامر بعد كل ما شاهدت. وجعلني أولئك الجنود أتسمر في مكاني. وكانوا لا يزالون يتراكضون عبر مدخل المخيم لتحاشي [الإرهابيين] الوهميين.

تقدم الضابط مني وحملق في وجهي فقلت له: «لا أحد هنا». فما كان منه إلا أن صرخ في وجهي قائلاً: «أمرتك بأن تغادر المكان، افعل ما تؤمر به». قلت: «أنت لا تفهم، كل شخص هنا مات، ماتوا جميعاً، ولن تجد سوى الأموات». وكان إلى جانب الضابط ثلاثة جنود إسرائيليين ينظرون إليّ كما لو كنت مجنوناً. فنظرت إلى الضابط لأنني اشتبهت بأنه مصاب بشيء من الجنون وقلت: «لا، لن اذهب». ووضع أحد الجنود يده على ذراعي، وقال: «في المخيم إرهابيون، وسوف يقتلونك». فقلت له : «هذا غير صحيح. كل من في هذا المخيم قضى نحبه. ألا تشم رائحتهم؟». فنظر إليّ غير مصدق لما أقول. فأضفت: «تأكد أن النساء والأطفال قد قتلوا هناك، وبينهم رضع». فأشار إليّ الضابط بدون اهتمام بما قلت. وقال قبل أن يتابع سيره: «سوف يقتلونك».

أخذت أشعر بأنني ممثل في فيلم بوليسي يقوم بالإبلاغ عن جريمة قتل، فيُتّهم باختلاقها. ولعلني إن رجعت إلى شاتيلا عندئذ لوجدت أن الجثث قد اختفت، والشوارع قد نظفت، والأكواخ قد أعيدت، وأنّ سكانها الأموات يطهون طعامهم أو ينعمون بالقيلولة في غرف النوم الخلفية التي أشرنا إليها.

فعبرت الطريق باتجاه أحد صفوف المشاة الذين كانوا يقتربون من مدخل المخيم. وسرت بمحاذاة جندي طويل، بدت على وجهه علامات الدماثة، فسألته:

ماذا يجري؟ فأجاب:

لا يسمح لي بأن أتحدث معك. فقلت له:

صدقني أنني جاد فيما أقول.ما الذي يجري؟

وأحسست بأنه يحاول أن يكون لطيفاً معي. وكان يرتدي بذلة متسخة ويحمل بندقية من بنادق الجليل الهجومية ولكن بدون توتر. وبدا لي أنه جندي محترف يشعر بالتعب وبالحاجة إلى أصدقاء. فقلت له:

لن تجد هنا سوى الأموات. لقد قتل الأطفال والنساء.

فسأل:لماذا؟

وكنت أحاول أن أكتشف إذا كان على علم بما جرى. فأضاف يقول:

لقد كان المسيحيون هنا. ولا أدري لماذا. لا أدري لماذا ولا علاقة لي به. لم أكن هناك.

وما أن وصلنا إلى بوابة المخيم حتى وقف على أهبة الاستعداد للقتال.

وحتى هذا الرجل الأليف الجذاب كان مستعداً لقتال الأشباح. وسرت باتجاه مدخل شاتيلا. ووقفت في وسط الطريق. وعجبت من الكابوس الذي يسيطر على هؤلاء الجنود الشبان. فكم كانت دهشتي كبيرة عندما جثموا هم أيضاً عند جانب

من المدخل، ثم ركضوا نحو ثلاثين قدماً إلى الجانب الآخر، ثم جثموا مرة أخرى على مقربة مني وهم يصوبون بنادقهم نحو المخيم. وتصورت أنهم زمرة من المجانين. ولا بد أنهم تصوروني كذلك. إذ كانوا يؤمنون بصورة لا تقبل الشك بأن [الإرهابيين] كانوا في شاتيلا.

هل كان باستطاعتي أن أوضح لهم بأن الذين يبحثون عنهم ذهبوا، وأن الإرهابيين الحقيقيين قد ارتدوا زيًّا إسرائيليًّا، أرسلهم الضباط الإسرائيليون إلى شاتيلا، وأنّ ضحايا الإرهابيين لم يكونوا إسرائيليين بل فلسطينيين ولبنانيين؟ لقد حاولت ذلك.

سرت بمحاذاة أولئك الجنود وأخبرتهم بأنني صحفي وأخذت أسألهم عن أسمائهم. وما هي إلا دقائق حتى اعتادوا على وجودي بجانبهم. وهكذا تسنّى لي معرفة موشي ورفائيل، وبني. وظلوا طوال الطريق إلى شاتيلا يحملون بنادقهم الثقيلة وهم في فزع من الإرهابيين.

إرهابيون! إرهابيون! إرهابيون!

لم تخل جملة واحدة قالوها من كلمة إرهابي! وكأنها علامة وقف داخل الكلام. وبدا وكأنه لا يمكن لأي عبارة أن تستقيم ولأي معتقد أن يصح بدون كلمة إرهابي. قال بني:

الإرهابيون في كل مكان. كن حذراً.

كان بني في عسقلان ويريد العودة إلى بيته وزوجته. وكان غرضه من المجيء إلى لبنان هو التخلص من الإرهابيين. ومتى تمّ ذلك عاد إلى إسرائيل. قلت له: لكن منظمة التحرير رحلت عن بيروت. ألم تشاهد رحيلها؟ ألم تقرأ عنه في الصحف. قال:

إنهم لم يرحلوا. ولا يزال الكثيرون منهم هنا. ولهذا السبب تجدني في هذا المكان.

قلت: لكن الناس هنا في شاتيلا قتلوا.

قال: ذلك ما لا أعرفه. لكني أعرف أن الإرهابيين في كل ناحية من هذا المكان. هذا مكان خطر جداً. ألم تسمع إطلاق النار؟

فأخذت أشرح له كيف أن رجال الميليشيا اللبنانيين هم الذين يطلقون النار على الإسرائيليين لأنّ هؤلاء غزوا بيروت، وأن بعض الفلسطينيين أطلقوا النار للدفاع عن أنفسهم ضد المسلحين المسيحيين الذين اقتحموا مخيمهم. إلا أن شرحي ذهب سدى.

زحفت طوابير الإسرائيليين وعبرت ضواحي بيروت الجنوبية إلى غاليري سمعان مقابل خطهم الأمامي الذي كانوا يحاصرون منه بيروت. وهناك وأخيراً ظهر لهم إرهابي عقد العزم على مقاومتهم وأطلق النار. واستدللت من صوت الرصاص أن مصدره كان أحد الشوارع المتفرعة من بولفار العريس، لكن الإسرائيليين اعتقدوا أنه أطلقها من بناية مهدمة.

لم تكد تُطلق النار حتى ألقى الجنود الإسرائيليون بأنفسهم في القاذورات

بجانب الطريق. وألقيت أنا بنفسي في خندق قريب فإذا بي بجوار رائد إسرائيلي.

وفي تلك الأثناء أقبلت عربة جند مصفحة وأخذ من فيها يطلقون النار من مدفع فولكان مزق البناية المهدمة وحولها إلى قطع صغيرة تناثرت كقصاصات الورق. وظللت أنا والرائد رابضين في الخندق مدة خمس عشرة دقيقة. وعندما سألني عن شاتيلا أخبرته عما رأيت. فقال:

أود أن أقول لك بأنه كان من المفروض أن يكون رجال حداد معنا. وقد اضطررنا بالأمس إلى إطلاق النار على اثنين منهم. فقتل أحدهما وجرح الآخر. وألقينا القبض على اثنين آخرين. وكان هؤلاء قد أساؤوا التصرف. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك. وعندما سألته إن كان ذلك قد حصل في شاتيلا وإذا كان عندئذ هناك. فلاذ بالصمت.

وفيما بعد اكتشفت أن جانباً واحداً فقط من قصته كان صحيحاً. وفي تلك الأثناء زحف نحوي عامل الراديو الذي كان يصحب الرائد. وكان شاباً صغيراً. فأشار إلى صدره. وقال: «نحن الإسرائيليين لا نقوم بمثل تلك الأعمال. إنهم المسيحيون».

إذاً، هل كنا نعرف نحن الصحفيين ماذا حدث بالضبط حتّى بعد أن سمعنا ما سمعناه، وبعد كل تلك الشواهد، وبعد أن تجاهلنا جميع غرائزنا الصحفية، وبعد أن شاهدنا بأعيننا ما شاهدناه في شاتيلا؟

عندما عدت إلى مكتب الأسوشيتد برس وجدت أنّ خطوط التلكس والكمبيوتر والتيلفون معطلة. وكان ستيف هندي [وهو من مكتب الأسوشيتد

برس في القاهرة] يدير المكتب في غياب تاترو الذي كان في عطلة. وكان هندي يتحدث مع لابل وفولي عما رأياه. فسألهما:

هل أنتما متأكدان من أنها كانت مجزرة؟ فأجابه فولي الذي كان يلوح بالصور أمامه:

انظر إليهم. فأنت لم تذهب بعد إلى هناك. فقال هندي:

وكم عدد الموتى؟ فأجاب فولي:

وما أهمية الأعداد أيها المغفل؟ إنها مجزرة. فقال هندي:

مجزرة! تقول مجزرة؟ ألم ترتكب مجازر في لبنان؟

كنت في زاوية الغرفة استمع إلى هذا الجدل. وكانت رائحتي عفنة. وكان اليوم يوم سبت ومعنى ذلك أن التايمز لم تكن ستطبع قبل ليلة الأحد. وكان باستطاعتي أن أذهب إلى منزلي إذا شئت. لكن الحديث كان جزءاً من المأساة ذاتها التي كنت قد شاهدتها صباح ذلك اليوم. على أي حال كان لا بد من الإجابة على عدد من الأسئلة.

متى يكون القتل من الفظائع؟ ومتى تصبح الفظائع مجزرة؟ كم قتيلاً يجعل الأمر مجزرة؟ ثلاثون، مائة، ثلاثمئة؟ أو بعبارة أخرى: متى لا تكون المجزرة مجزرة؟ ومتى لا تكون الأرقام كافية لاعتبارها مجزرة؟ وهل تكون مجزرة إذا قام بها حلفاء إسرائيل لا أعداؤها؟

هذا ما تصورت أن الجدل يدور حوله . فلو دخل الجنود السوريون إلى إسرائيل

وحاصروا إحدى المستوطنات الجماعية المعروفة باسم [الكيبوتز]، وسمحوا لحلفائهم الفلسطينيين أن يذبحوا سكانها اليهود، لما ترددت أي وكالة من وكالات الأخبار الغربية في تسمية ما حصل بالمجزرة. لكن الضحايا في بيروت كانوا من الفلسطينيين.

لا ريب في أنّ المجرمين كانوا من المسلحين المسيحيين الذين لا نزال نجهل الجهة التي ينتمون إليها، لكن إسرائيل كانت طرفاً في الجريمة. فإذا صح أن الإسرائيليين لم يشاركوا في قتل الفلسطينيين، فإنهم-من غير شك- هم الذين أرسلوا المسيحيين إلى المخيم، ودرّبوهم وزوّدوهم باللباس، ووجبات الطعام التي توزع على الجنود الأميركيين والأجهزة الطبية الإسرائيلية. ثم أخذوا يراقبون القتلة في المخيمات وأمدوهم بالمساعدة العسكرية. فقام الطيران الإسرائيلي بإسقاط كل تلك القنابل الضوئية لمساعدة المسلحين الذين كانوا يقومون بقتل أهالي صبرا وشاتيلا. هذا بالإضافة إلى أن الإسرائيليين أقاموا جهاز ارتباط مع المجرمين في المخيمات.

كل ذلك عرفناه قبل عصر يوم السبت. ومع هذا كان هندي يجادل في أمر تسمية ما حدث بالمجزرة.

كان فولي لا يزال يصيح مرة بعد أخرى: «اذهب وتحقق بنفسك». وأخذ يرفع صورة بعد أخرى لجثث الأشخاص التي التصقت كل منها بالأخرى. وكانت بين الصور صورة طفل بلا دماغ، وصورة امرأة اخترقت الرصاصة صدرها. ثم أخذ يصيح بصوت مشحون بالعاطفة وعصبية ظاهرة. كما لو كان يبيع صوراً فاضحة لأحد الزبائن على شاطئ البحر:

وهذه الصورة، وهذه ...وتلك. قل لي بالله عليك أليست هذه مجزرة؟

عدت إلى منزلي وأنا أشعر بأنني مريض بسبب رائحة ملابسي. وقضيت أكثر من ساعة في الحمام أغسل جسمي لعلي أزيل الرائحة النتنة فلم أستطع. وبعد أن أويت إلى فراشي بأربع ساعات أفقت وأنا أتصبب عرقاً، وتقيأت. وكنت مقتنعاً بأن جثث شاتيلا مكومة على الملاءات والبطانيات في فراشي، وأنني كنت مستلقياً بينها، وأنها كلها وحتى السيد نوري ذاته في الغرفة. وفي الصباح رفضت السيدة عائشة التي تنظف البيت أن تغسل ملابسي، وقالت إنها نتنة.

وما أطل اليوم التالي حتى كان اسم شاتيلا قد أصبح عاراً في جبين المجرمين، وغص بمراسلي الصحف والمصورين والدبلوماسيين. وللمرة الأولى منذ المذبحة فاق عدد الأحياء عدد الموتى. ولما كانت الجثث معرضة لحرارة الشمس فإنها أخذت تتمدد وتلتوي متخذة أشكالاً مختلفة، وانتفخ بعضها إلى حد ضاقت معه الألبسة والأحزمة عليها، وغاصت أشرطة الساعات في لحمهم. وكانت تظهر عليها الفقاقيع وهي تحترق بأشعة الشمس، وينز منها سائل أسود لزج تجمع حول جدران الإعدام.

ولم يكن في وسع أحد أن ينشر صور هذه المشاهد أو أن يصفها في الصحف.

عاد الكمبيوتر بمكتب الأسوشيتد برس إلى العمل ظهر يوم الأحد. فأرسلت تقريراً مطولاً للتايمز عن كل ما شاهدته في صبرا وشاتيلا، وعن رجال الميليشيا المسيحيين حلفاء إسرائيل، وعن الانسحاب الشائن للجنود الإسرائيليين من محيط

المخيمات،وعن انهيار مهمة توطيد [القانون والنظام] في بيروت الغربية التي ألزمت إسرائيل نفسها بالقيام بها، وأخذ الإسرائيليون ينحون باللائمة على الأمريكيين.

واجتمع الفلسطينيون والإسرائيليون ولو لمدة وجيزة على سياسة واحدة وهي لوم الولايات المتحدة. وقد يكون للفلسطينيين بعض الحق في ذلك. إذ أبلغ فليب حبيب منظمة التحرير بأن الإسرائيليين لن يدخلوا بيروت إذا رحل عنها المقاتلون. على أنّ المارينز غادروا في وقت مبكر -بعد قدومهم بسبعة عشر يوماً- وغزا الإسرائيليون بيروت الغربية. فأي جدوى بقيت للضمانات الأمريكية؟

كان عرفات في دمشق عندما شاهد شريط فيديو للجثث، فقال: إنّ فليب حبيب نفسه وقّع على تعهد كتابي بحماية الفلسطينيين الذين يبقون في بيروت الغربية. وكان ما قاله صحيحاً.

وفي خريف ١٩٨٧ وبينما كنا حول مائدة قرب إكسفورد، اعترف فليب حبيب بأنّ عرفات كان محقاً.قال:

«إن ما قاله عرفات هو الحقيقة بعينها. فقد وقّعت الوثيقة التي تتضمن عدم إنزال الضرر بالفلسطينيين في بيروت الغربية. وحصلت على ضمانات محددة من بشير ومن الإسرائيليين- أي من شارون-، وكنت جالساً على شرفتي التي تطل على خليج سان فرانسيسكو عندما سمعت بما حدث، واتصل بعضهم بي بالتيلفون يستفسرون عما جرى، واتصلت بدوري بالرئيس ولا أذكر ما قلته له. وقد أقلقني ما جرى. لم أتصل بعرفات فيما بعد. فلم يكن هناك داع لذلك. فقد كان

الفلسطينيون يعرفون حقيقة شعوري».

اعتبر الفلسطينيون الإسرائيليين أصحاب الدور الرئيسي. ولموقفهم هذا ما يبرره. فإسرائيل هي التي بعثت بالقتلة إلى المخيمات. ولكن السلطات الإسرائيلية ألقت اللوم في الحال على الولايات المتحدة. فحتى الجنرال رفائيل إيتان -رئيس الأركان الإسرائيلي- عقد مؤتمراً صحفياً عاجلاً قرب المدينة الرياضية اتّهم خلاله موريس درابر مساعد نائب وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط بأنه رفض إقامة اتصال بين الجيش الإسرائيلي واللبناني. وقال: إن تقاعس الأمريكيين عن تسهيل الاتصالات بين الإسرائيليين واللبنانيين لم يمكّن الإسرائيليين من أن يطلبوا من الجيش اللبناني دخول بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل، وبالتالي كان عليهم اصطحاب الميليشيا المسيحية ليقوموا بهذه المهمة.

وحتى لو أخذ كائن من كان هذا التفسير مأخذ الجد فإنّه لا يفوته أن يلاحظ أنّ الإسرائيليين سيطروا على الكثير من ثكنات الجيش اللبناني خلال الأسابيع الثلاثة السابقة، وأنّهم بالتالي كانوا على اتصال وثيق مع السلطات العسكرية اللبنانية بدون مساعدة من الأمريكيين. والواقع أنّ الجنود اللبنانيين كانوا دائماً يؤدون التحية للجنود الإسرائيليين عندما كان هؤلاء يمرون بمراكز مراقبتهم.

وبعد ظهر الأحد دبّ الذعر والهلع في شاتيلا من جديد عندما سرت شائعات بين من بقي على قيد الحياة من أهله أنّ الكتائب وميليشيا الرائد حداد ينوون العودة إلى المخيم ليكملوا جريمتهم. فاندفع مئات منهم نحو المخرج في حين أنّ رجال

الصليب الأحمر كانوا يقفون أمام القبور الجماعية التي فتحت قبل ذلك بقليل. حتى أنّ عدداً من الفلسطينيين طالبوا بقدوم الجنود الإسرائيليين لحمايتهم. على أنّ موقفهم هذا كان سيختلف لو أنّهم استمعوا إلى إيتان وهو يعلن في مؤتمره الصحفي أنّ جيشه لا يستطيع أن يمنع رجال الميليشيا المسيحيين من دخول المخيمات «لأنهم لبنانيون، وهذه أرض لبنان، وهم أحرار في أن يتحركوا كيفما شاؤوا في بلادهم» ومن الواضح أنّ هذه العبارة لا تصمد أمام النقد لأنّ الجيش الإسرائيلي لم يكن ليسمح إطلاقاً للميليشيات المسلمة بدخول بيروت الشرقية، مع أنهم أيضاً لبنانيون -وعليه فإنّ القول بأنّه كان من حقّ الميليشيات دخول شاتيلا كان يعني إغماض العين عن الجريمة.

وبالرغم من تزويد رجال الدفاع المدني الذين كانوا يجمعون الجثث بأقنعة الأوكسجين لحمايتهم من الروائح العفنة، فإنّ كثرة من الرجال والنساء واصلوا البحث عن أقربائهم وليس لديهم ما يضعونه على أنوفهم سوى المناديل. وفي ٢٠ أيلول اكتشف الصليب الأحمر مقبرتين جماعيتين ثانيتين وأخرج ١٢٠ ضحية أخرى. واستمر الناجون يصرون على أنّ ميليشيا حداد لعبت الدور الرئيسي في عمليات القتل. وعندما سارت ناقلتان مدرعتان -كانت إسرائيل قد قدمتها لحداد- في شارع الحمراء. دبّ الذعر ثانية بين من بقي من الفلسطينيين.

كنا كل يوم نقضي ساعات في المخيمات نحصي الجثث ونتحدث إلى المزيد من الشهود الذين اختبؤوا خلال المجزرة. واستمعنا من هؤلاء إلى قصص مرعبة عن

المذبحة. وذكر كثيرون أنهم سمعوا رجال الميليشيا ينادون على بعضهم بأسماء مسلمين شيعة. وزعم الإسرائيليون أنّ غالبية رجال حداد كانوا من الشيعة. على أنّ الأحياء وصفوا بدقة وبالتفصيل الشارات التي كانت على أزياء القتلة، فجاءت مطابقة لشارات رجال حداد.

وعرفت أنا وتفايت أنّ وحدات الجيش اللبناني قرب المطار شاهدت رجال الميليشيا وهم يتحركون حول صبرا وشاتيلا بين ١٦و١٨ أيلول. وفي ٢٠ أيلول أخبرنا أربعة ضباط من الجيش اللبناني وأحد رجال الدرك اللبناني المتمركزين في حي السلم إلى الشمال تماماً من مدارج المطار، أنهم شاهدوا وصول رجال ميليشيا لبنانيين إلى مطار بيروت على متن طائرة نقل إسرائيلية من طراز هيركوليز وذلك قبل المجزرة بأربع وعشرين ساعة. وكانوا يشعرون بالخوف لأنهم كانوا يعرفون المصير الذي ينتظرهم إذا اشتبه الكتائبيون في أنهم يفشون السر.

وفي قاعة الوصول بالمطار، علمنا أنا وتفايت أنه في الخميس السابق الواقع في ١٦أيلول، هبطت طائرتا هيركوليز-١٣٠ على المدرج الأول ونزل منهما مسلحون وسيارات جيب. ووقفت الطائرتان على مسافة كبيرة من قاعة الوصول لا تسمحان لموظفي المطار بالتعرف عليهما على أنهم لاحظوا أنّ إحدى الطائرتين غادرت في الحال باتجاه الجنوب، في حين أنّ الطائرة الأخرى بقيت على المدرج عدة ساعات. لكنّ الإسرائيليين لم يظهروا أي استعداد للتعاون. فقال أحد موظفي الأمن في النقطة العسكرية قرب المطار: إنّه لا يتذكر وصول طائرات في ١٦ أيلول.

على أننا -أنا وتفايت- وجدنا خمس إشارات مرور معدنية تبدأ بالمعسكر الإسرائيلي في المطار، وتنتهي عند تقاطع طريق كفرشيما في الطريق الخلفي إلى شاتيلا مكتوب على كل منها بالعربية [الشرطة الحربية الكتائبية].

وشاهد ضابط في منظمة مراقبة الهدنة التابعة لهيئة الأمم المتحدة في ١٦ أيلول مسلحين يغادرون منطقة المطار. وقال: إنّ بعضهم كان يعلق شارات كتائبية، في حين كان الآخرون يرتدون زي ميليشيا سعد حداد[١]. وفي المخيم، قيل لنا أن جرائم القتل الأولى ابتدأت صباح الخميس حينما وصل المسلحون في ثلاثين شاحنة. وأخذ القتلة يذبحون بالسكاكين رقاب النساء والأطفال في شاتيلا، وبعدها أخذوا يطلقون النار على كل من يتحرك خارج الأبواب. ولكن المجزرة الحقيقية -كما قالوا- بدأت يوم الجمعة بعد الظهر.

وأعددتُ تقريراً للتايمز ذكرت فيه أنه قد أخذت تظهر أدلة على أنّ «الجيش الإسرائيلي أبعد ما يكون عن الجهل بوجود الميليشيا اليمينية في شاتيلا أبان مجزرة

---

(١) كان من السهل تحديد هوية المسلحين من الطرفين، فالكتائبيون كانوا يضعون الشارة التي تحمل شجرة الأرز المثلثة وعليها كلمتا [الكتائب اللبنانية] على جيب السترة. أما رجال حداد فكانوا يضعون شارة عليها سيف ذهبي فوق أرزة -حقيقية بخلاف أرزة الكتائبيين المثلثة- وعليها ثلاث كلمات وهي [جيش لبنان الحر]. وأشارت الصحف عندئذ إلى أن الإسرائيليين أدخلوا رجال حداد إلى المخيم وعليهم زي الكتائب؛ وذلك لتشويه سمعة أمين الجميل المرشح للرئاسة من أجل توفير النجاح لكميل شمعون، الذي أصبح عندئذ المدافع السياسي عن إسرائيل في لبنان، فالمؤامرة كانت لا تزال حية.

الفلسطينيين خلال الأسبوع المنصرم وأنه في الواقع قام بنقل بضع مئات من مسلحي سعد حداد من الجنوب إلى بيروت يوم الخميس وسمح للميليشيات بالسيطرة على مدخل مخيم شاتيلا بضع ساعات قبل الشروع في عملية القتل ...».[١]

(١) كتاب: [ويلات وطن] لمؤلفه روبرت فيسك.

الباب الثاني

الاحتلال السوري للبنان وأبعاده

الفصل الأول

التدخل السوري في لبنان

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تصريحات واضحة الدلالة.

المبحث الثاني: كيف تغيرت المواقف؟

المبحث الثالث: السياسة الباطنية المحيرة.

المبحث الأول

تصريحات واضحة الدلالة

أدرك الموارنة أن الحبل يقترب من أعناقهم، فارتفعت أصواتهم تنادي بتدخل الفاتيكان وفرنسا وإسرائيل، وتقدم رئيس الجمهورية سليمان فرنجية بخطاب رسمي للولايات المتحدة الأمريكية يطلب منها التدخل في لبنان كما تدخلت عام ١٩٥٨، فردَّت بالرفض، لكنَّ شيئاً ما كان يجري في الخفاء، ونستطيع كشف معالمه من خلال التصريحات التالية:

التصريحات الإسرائيلية:

- في ٢/ ٦/ ١٩٧٦ أدلى وزير الخارجية الإسرائيلي [آلون] بالتصريح التالي:

- التدخل العسكري السوري فتح صفحة جديدة في الحرب اللبنانية، وهو يهدف مبدئياً لإنقاذ المسيحيين.

- بالنسبة للمبادرة الفرنسية، فالعالم العربي أجمع على رفضها، وهي مسألة تجاوزها الزمن.

- وفي اليوم نفسه ٢/ ٦/ ١٩٧٦ أصدر وزير الدفاع الإسرائيلي شمعون بيريز التصريح التالي:

- التدخل حالياً موجه ضد عرفات وحلفائه.

- القوات السورية كافية لوقف إطلاق النار لكنها لا تستطيع احتلال لبنان.

- القوات السورية دخلت الشمال والوسط وليس الجنوب.

وأضاف:

«إلا أن هذا الوضع يمكن أن يتغير في أي لحظة، وهذا يتطلب أكبر قدر من الحذر».

- رئيس الحكومة الإسرائيلية إسحاق رابين قال في ٢/ ٦/ ١٩٧٦:

- التدخل العسكري السوري قد أخذ حجماً يمكننا معه توقع إعادة لأيلول الأسود الأردني في لبنان.

- [١٤/ ٦/ ١٩٧٦] قال إسحاق رابين: «إسرائيل رسمت خطاً أحمر للقوات السورية... وهي ستتدخل في لبنان إذا ما عبرت القوات السورية نهر الليطاني».

- [١٤/ ٤/ ١٩٧٦] قال وزير الدفاع الإسرائيلي شمعون بيريز:

«هدف إسرائيل الحالي هو الحيلولة دون دخول لبنان في الهلال الخصيب وأن يصبح خطراً على أمتنا».

- [١٢/ ٤/ ١٩٧٦] قالت صحيفة الواشنطن ستار:[١]

«سوريا تشاورت مع إسرائيل عن طريق السفارة الأمريكية في كل من دمشق وتل أبيب للتأكد من أنَّ أعمالها العسكرية في لبنان لن تؤدي إلى أعمال انتقامية

---

(١) الواشنطن ستار: ١٢/ ٤/ ١٩٧٦.

إسرائيلية... وهذه المشاورات مستمرة منذ كانون الثاني الماضي».

- [٢/ ٦/ ١٩٧٦] نقلت إذاعة إسرائيل عن رئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين البيان الآتي:

«إن إسرائيل لا تجد سبباً يدعوها لمنع الجيش السوري من التوغل في لبنان، فهذا الجيش يهاجم الفلسطينيين، وتدخلنا عندئذ سيكون بمثابة تقديم المساعدة للفلسطينيين، ويجب علينا ألا نزعج القوات السورية أثناء قتالها للفلسطينيين فهي تقوم بمهمة لا تخفى نتائجها الحسنة بالنسبة لنا».

- [٥/ ٦/ ١٩٧٦] «إن على إسرائيل أن تظل في موقف المراقب حتى لو غزت القوات السورية بيروت واخترقت الخط الأحمر، لأن غزو القوات السورية للبنان، ليس عملاً موجهاً ضدَّ أمن إسرائيل».

- [٢٩/ ٩/ ١٩٧٦] نقلت وكالة الصحافة الفرنسية[1] عن وزير الدفاع الإسرائيلي شمعون بيريز قوله:

«إن هدف اليهود هو نفس هدف دمشق بالنسبة للمسألة اللبنانية... ويجب أن نمنع وقوع لبنان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية».

التصريحات الأمريكية:

- [٢١/ ١/ ١٩٧٦] نقلت وكالات الأنباء عن ناطق رسمي باسم البيت

---

(١) وكالة الصحافة الفرنسية ٢٩/ ٩/ ١٩٧٦.

الأبيض ما يلي:

«إن الرئيس فورد تخلى عن معارضته لتدخل عسكري خارجي في لبنان، وإن الولايات المتحدة كان من الضروري أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة مآرب سوريا ونواياها».

- [٢٩/ ١/ ١٩٧٦] نقلت وكالات الأنباء عن متحدث رسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية ما يلي:

«إن الولايات المتحدة تعترف بأهمية الدور الذي تقوم به سورية، بالنسبة لتسوية الأزمة اللبنانية».

- [٢٧/ ١/ ١٩٧٦] نقلت وكالة [اليونايتد برس][1] من واشنطن ما يلي:

إن وزارة الخارجية الأمريكية أكدت بأنها تقوم بنقل الرسائل من إسرائيل إلى سورية، حول الوضع في الجنوب اللبناني». وقال [فردريك براون] المتحدث باسم الوزارة في تصريح للصحفيين:

«إننا على اتصال مع حكومة سورية وإسرائيل ولبنان، وإننا نراقب الوضع عن كثب». وقالت الصحف الإسرائيلية:

«إن اتصالات من هذا النوع قد جرت». وأضافت:

---

(١) وكالة اليونايتد برس من واشنطن ٢٧/ ١/ ١٩٧٦.

«إن سورية أكدت لمسؤولين أمريكيين بأن وجود قواتها في الجنوب، إنما يستهدف المقاومة واليساريين اللبنانيين».

- [١٥/ ٤/ ١٩٧٦] رويتر[١] والوكالات، قال كيسنجر أمام لجنة الاعتمادات بالكونجرس:

«إن الولايات المتحدة تلعب دوراً رئيساً في لبنان، وإننا شجعنا المبادرة السورية هناك، وإن الوضع يسير لصالحنا ويمكن رؤية خطوط تسوية».

- [١٤/ ٤/ ١٩٧٦] كيسنجر أمام لجنة فرعية للميزانية في مجلس الشيوخ الأمريكي:

«الولايات المتحدة وإسرائيل متفقتان على أن التدخل السوري لا يهدد إسرائيل ... وأمريكا قد أقنعتها بعدم التدخل عسكرياً في لبنان ... وواشنطن تدرس إنشاء [كونسورتيوم] دولي لإنقاذ لبنان بمشاركة السعودية».

- [٢٢/ ٤/ ١٩٧٦] أدلى كيسنجر في واشنطن بالتصريح التالي:

«براون أدى دوراً رائعاً في لبنان... والأحداث قد تتطور على نحو لا رجعة فيه... وهو على استعداد لمناقشة ما يمكن أن تلعبه فرنسا من دور في لبنان مع الرئيس ديستان في ٧ أيار المقبل في باريس».

---

(١) رويتر والوكالات: ١٥/ ٤/ ١٩٧٦.

التصريحات المارونية:

- [٨/ ٦/ ١٩٧٦] وجه سليمان فرنجية رئيس الجمهورية رسالة إلى الملوك والرؤساء العرب يدافع فيها عن المبادرة السورية المرفقة بقوة ردع، ويتساءل عن أهداف الفلسطينيين في لبنان.

- [٨/ ٦/ ١٩٧٦] بيار الجميل في تصريحه اليومي يؤيد مجدداً المبادرة السورية لأنها: «نابعة من تفهم سورية للواقع اللبناني». وبعد أن تمنى ألا تتحول الأرض اللبنانية إلى ساحة دامية للصراعات العربية، ردّ أسباب التأزم إلى«انحراف المقاومة عن خطها الصحيح» وختم تصريحه قائلاً: «إنّ ما أعلنه رياض الصلح... وما يفعله الرئيس الأسد اليوم هو المدخل الصحيح لإنقاذ لبنان من الخوف والقلق، ولكن الحوار المنطقي الرصين يبقى الطريق الأقوم لحل كل المشاكل في لبنان».

- [١٤/ ٦/ ١٩٧٦] كميل شمعون:

«اتفقنا والسوريون على خطة ولا نريد أي مبادرة أخرى، وسيرفض لبنان قرارات الجامعة».

- [١٦/ ٦/ ١٩٧٦] كميل شمعون:

«لقد اتفقنا مع سورية على خطط تُرضينا».

- [٩/ ٨/ ١٩٧٦] «وصل كميل شمعون زعيم الوطنيين الأحرار وزير الداخلية

اللبنانية إلى دمشق بطائرة [هيلوكبتر] للتباحث مع حلفائه السوريين، ولتنسيق العمل العسكري في لبنان ضد المقاومة والقوات اليسارية، وأعلن شمعون أنه يثق ثقة كاملة بالرئيس السوري، أما بيار الجميل فقد صرح في بيروت بأن سورية هي الدولة الوحيدة التي يمكنها أن تفرض السلام في لبنان».

- [٤/ ٦/ ١٩٧٦] الآباتي شربل قسيس:

«نحن مع التدخل السوري إن لم يكن من حلّ سواه».[١]

(١) هذا التصريح وأمثاله مما لم أضع له رقماً في الهامش مصدره كتاب «يوميات الحرب اللبنانية» الجزء الثاني، والصحف ووكالات الأنباء.

المبحث الثاني

كيف تغيرت المواقف؟!

تشير هذه التصريحات إلى موافقة كل من: الولايات المتحدة الأمريكية، وإسرائيل، والموارنة على التدخل العسكري السوري في لبنان، فكيف غيرت هذه الجهات الثلاث موقفها الذي كان يمنع أي تدخل عسكري في الشؤون اللبنانية سواء كان سورياً أو غيره؟!

قبل الإجابة عن هذا السؤال أدعوك أيها القارئ الكريم إلى أن تتابع معي تسلسل الأحداث وفي ذهنك الحقيقة التالية التي أكرر الحديث عنها في مؤلفاتي:

الباطنيون يؤمنون«بالتقية»، والتقية تعني أن يعلنوا أمام الملأ موقفاً من المواقف وفي سرِّهم يفعلون نقيضه، وتشتد حاجتهم إلى هذه التقية، عندما يكون هدفهم معادياً لمشاعر وتطلعات الأمة التي يعيشون في كنفها. فإذا كانوا يريدون القضاء على الثورة الفلسطينية، وإخراج منظمة التحرير من لبنان خدمة لأمريكا وإسرائيل، قالوا: لقد ضحّينا بقواتنا من أجل حماية الثورة الفلسطينية واستمرارها في نضالها المسلح ضد العدو الصهيوني.

وللأمريكان تقية تشبه تقية الباطنيين من بعض الوجوه؛ فهم في علنهم يرفعون شعار الديمقراطية ويطبقونها في بلدهم، ويدافعون عن حقوق الإنسان، ويهاجمون الاستبداد والمستبدين الذين يستعبدون شعوبهم ويقيدون الحريات العامة،

ويعتقلون المواطنين لأتفه الأسباب. وفي سرهم يحتضنون المستبدين ويقدمون لهم المساعدات ويعقدون معهم الاتفاقيات، ويمدونهم بالسلاح الذي يُستخدم لحماية الطغاة وكبت الحريات،وكمّ الأفواه، وفتح أبواب السجون لكل من يقول: لا، ولو كانت لاؤه حقاً، أما عن توزيع الاختصاصات فالعلني موكول بوزارة الخارجية، والسري من اختصاص المخابرات الأمريكية [C . I . A] وأحياناً تتداخل هذه الاختصاصات.

أخي القارئ:

إذا كانت هذه المسألة واضحة عندك، فدعنا نناقش بروية هذه التصريحات:

١) كل من إسرائيل، والموارنة، والولايات المتحدة الأمريكية، رفضوا دخول القوات العسكرية السورية إلى لبنان، وهذا واضح ومن حقهم اتخاذ مثل هذا القرار، لأن دخول جيش عربي بالإضافة إلى قوات منظمة التحرير والقوات الوطنية وجيش لبنان العربي.. سيشكل خطراً على أمن إسرائيل وأمن الموارنة وهذا ما لا يمكن أن ترضى به الولايات المتحدة الأمريكية فضلاً عن إسرائيل والموارنة.

٢) الرئيس السوري وأجهزة إعلامه يصدرون التصريح تلو الآخر الذي ينددون فيه بالمؤامرة المشبوهة ضد الثورة الفلسطينية، ويتوعدون الذين يمدّون أيديهم للعدو الصهيوني، ويحذرون من مهمة المبعوث الأمريكي براون، وليعد من شاء إلى الصحف السورية الصادرة بتاريخ [١٤/ ٤/ ١٩٧٦] فسيقرأ فيها هجوماً على براون، وأنّ مبادرته تختلف عن المبادرة السورية، مؤكدة أن هدفه ضرب وحدة

النظام السوري مع الفلسطينيين.

أما الحديث عن القومية العربية، والوحدة المنشودة، ودور قلب العروبة النابض سورية، وما إلى ذلك من شعارات جوفاء فكانت ترددها وسائل الإعلام السورية صباح مساء.

٣) هذه الشعارات المعادية لإسرائيل وحلفائها من المفترض أن تستفزهم، ويزداد رفضهم للتدخل العسكري السوري، لكنهم كانوا مطمئنين إلى أن ما سيحدث على الأرض يخالف ما تجعجع به أجهزة الإعلام السورية، فإسرائيل كانت تجزم بأن هدفها هو نفس هدف دمشق في لبنان، وتؤكد بأنها رسمت خطاً أحمر، ولا تسمح للقوات السورية بتجاوزه، أما الموارنة والولايات المتحدة الأمريكية فكانوا يتحدثون عن لقاءات ومحادثات مع السوريين، وتوصلوا معهم إلى اتفاقات مرضية ومطمئنة.

هل كانت الدول العربية تدري؟ هل كانت دول الجامعة العربية تدري بالاجتماعات والاتفاقيات المشبوهة بين سورية من جهة، وكل من إسرائيل، والموارنة والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لكل دولة أجهزة أمنية وأخرى دبلوماسية تطلعها بتقارير دورية على ما تستطيع الحصول عليه من معلومات وأسرار.

الوجه الثاني: بعض الدول العربية كان وسيطا بين سورية من جهة، والموارنة والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، وهذا يمكننا من معرفة كثير مما يجري.

الوجه الثالث: دأبت الولايات المتحدة الأمريكية على زيارة عواصم عربية وإطلاعها على الغرض الذي جاءت من أجله، وتطلب منها التعاون معها، و في هذه الحالة، لابدَّ أن تطلع أصدقاءها العرب على الموقف الإسرائيلي من جهة والموقف السوري من جهة ثانية، وأطراف النزاع اللبناني من جهة ثالثة، ولا بد أن تحتفظ لنفسها ببعض الأسرار.

الوجه الرابع: للبنان وضعية خاصة في المنطقة، والبلاد العربية لا يرضيها تغيير الصورة المتفق عليها، وبخاصة عندما تسيطر القوات اليسارية والدرزية والفلسطينية على لبنان وتنتزع الحكم بالقوة العسكرية، وتقصي الموارنة وحلفاءهم النصارى، وكذلك لا ترضى الدول الغربية، والولايات المتحدة وإسرائيل بذلك، والنظام الباطني في سورية يعرف ذلك، وقد جاءته الفرصة المناسبة التي طال انتظاره لها.

الوجه الخامس: وافق العرب على التدخل السوري، ثمّ شارك بعضهم بقوات ردع عربية وإن كانت رمزية، لكنني أستبعد أن يكونوا يتوقعون ارتكاب القوات السورية لمجازر فظيعة تارة بالتنسيق مع الموارنة، وأخرى مع حليفتها حركة أمل الشيعية.

الرئيس اللبناني إلياس سركيس، كان مثقفاً، مسالماً، يريد هيمنة قومه الموارنة على جبل لبنان، لكنّه لم يكن راضياً عن مواقف: الجبهة اللبنانية، والقوات

السورية، والقوات اليسارية والدرزية والفلسطينية، وفي إطار البحث عن حلّ أدهشته الصلات الأمريكية السورية حتّى أصبحت لغزاً لا يعرف أوله من آخره، يقول مستشاره كريم بقرا دوني:

«... وعندما تطرق الرئيس إلى العلاقة مع سورية وموقف دمشق من الولايات المتحدة الأمريكية، وأخبرنا أن الرئيس السوري أبدى تحفظات وشكوكاً تجاه واشنطن، ولكن الأمريكيين يتخذون من سورية موقفاً مختلفاً كل الاختلاف ويتصرفون وكأنه يوجد اتفاق سري بين البلدين، فالإدارة الأمريكية تبدي اهتماماً خاصاً بسورية، وتدعم الدور السوري في لبنان، وتعامل الرئيس السوري بعناية وبطريقة متميزة».

وتأفف قائلاً:

«إنها طلاسم متعبة حقاً، وكأن العلاقات السورية-الأمريكية سر مغلق أو كلمات متقاطعة: سورية تتصرف كما لو كان هناك نزاع حقيقي مع الولايات المتحدة الأمريكية، بينما تعمل هذه كأن هناك مصالح مشتركة مع دمشق».

ثمّ تساءل سركيس إذا كانت سورية تعرف تحديداً ماذا تريد، وأضاف:

«دمشق تدوخني تارة تؤيد الجبهة اللبنانية بلا تحفظ، وطوراً تريد تحطيمها بلا رحمة، لا أستطيع مماشاة سورية في تقلباتها، إنها تغير سرعتها وتوجهها بطريقة مذهلة».

وفي موضع آخر يقول:

«طلبت من الولايات المتحدة الأمريكية الضغط على سورية، فردَّ عليَّ وزير الخارجية سيروس فانس ببرقية تشير إلى ضرورة إيجاد حل سريع على أساس التفاهم السوري-اللبناني، وبالاتفاق مع الرئيس الأسد، وهذا يعني، بعبارة واضحة، أن الولايات المتحدة تداري الأسد ولن تمارس ضغطاً عليه، إذاً فلا مناص من التوصل إلى اتفاق مع دمشق».

وفي موضع ثالث يقول مستشار الرئيس اللبناني:

«في أوائل العام ١٩٧٦ جمّدت دمشق كل الحلول، ولاحظ الرئيس اللبناني أن المصداقية السورية ما تزال كبيرة على الصعيدين العربي والدولي؛ فالولايات المتحدة الأمريكية تشجعه على إحياء علاقات حارة بينه وبين حافظ الأسد، والدول الكبرى تتصرف كما لو كان لبنان منطقة نفوذ سورية، لذا قرّر سركيس أن يعود إلى سلوك طريق دمشق».[1]

(١) كتاب [السلام المفقود] لمستشار الرئيس اللبناني كريم بقرا دوني.

المبحث الثالث

السياسة الباطنية المحيرة

رئيس الجمهورية اللبنانية إلياس سركيس طرف أساسي في المسألة اللبنانية بحكم منصبه، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لأنه ماروني، ومن جهة ثالثة، فهو الذي اختاره حافظ الأسد والموارنة وبقية شركاء أسد في لبنان ليكون رئيساً للجمهورية ضد المرشح ريمون إده، ومع كل هذه الاعتبارات، فقد كان عاجزاً عن فهم أسرار العلاقات الأمريكية السورية ويصفها بأنها: «طلاسم متعبة حقاً أو كلمات متقاطعة» وفي موضع آخر خلص إلى قناعة بأن الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الأمم المتحدة قد أوكلت أمر لبنان لسورية تفعل به ما تشاء، وفي موضع ثالث [مما لم أنقله] يلوم السعودية والبلدان العربية لأنها تكرر بشكل أو بآخر المواقف والتصريحات السورية، وهي غير مقتنعة بها، ولكنها تخشى النظام السوري على حساب لبنان وشعب لبنان.

أخي القارئ: أكرر ما قلته لك قبل قليل، إن كنت تريد أن تفهم الطلاسم والأسرار التي تجري في لبنان وغيرها من البلدان العربية فتابع معي الأحداث والتحليلات:

في نهاية عام ١٩٩٠ احتلت العراق الكويت، وشرّدت شعبه، ونهبت خيراته، وروّعت الآمنين من أبنائه، ومما لا أشك فيه أن عمل النظام العراقي محرّم في شرع

الله، ثمّ في ميثاق الأمم المتحدة، وفي جميع الدساتير والقوانين الأرضية.

الولايات المتحدة الأمريكية من جهتها هبت مذعورة تندد بهذا الاحتلال، وغامرت بنصف مليون جندي، وجندت معها معظم دول العالم من أجل تأديب النظام العراقي، وإخراج قواته من الكويت، وتحقق ما أرادت خلال بضعة أشهر... وإنني أحمد الله على عودة الكويتيين إلى بلدهم، وعودة الأمن والأمان إلى ربوع وطنهم، وأسأل الله أن يجنب الكويت ودول الخليج كل معتد أثيم.

أمريكا التي حرّرت الكويت خلال بضعة أشهر هي التي خططت من أجل احتلال القوات السورية للبنان، واستمر هذا الغزو الغاشم ثلاثة عقود، وكان من الممكن أن يستمر أكثر من ذلك لولا حمق أسد الابن، فقد ارتكبت القوات السورية خلال احتلالها للبنان من الجرائم أضعاف أضعاف ما ارتكبه النظام العراقي في الكويت، أما النهب والسلب فحدث عنه ولا حرج، وكانت تتولاه عصابات يقودها كبار ضباط الجيش، وأبرز المسؤولين في منظمة الصاعقة.

والسؤال الذي يفرض نفسه: كيف يكون احتلال القوات العراقية للكويت محرماً واحتلال القوات السورية للبنان مشروعاً؟ وكيف تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية في الحالين من تجنيد البلدان العربية ومعظم دول العالم معها؟ وكيف تذكرت الولايات المتحدة الأمريكية بعد اغتيال الحريري أنّ سورية محتلة لدولة أخرى، ويجب أن تغادر لبنان، وحتى في هذه أيدتها البلدان العربية ودول العالم ومجلس الأمن الدولي؟

منذ بداية عام ٢٠٠١ وحتى عام ٢٠٠٣ اشتدت حدّة التوتر بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية [وإن كان هذا التوتر مستمراً لا ينقطع منذ ثورة الآيات عام ١٩٧٩] فإيران تطرح في العلن شعار تحرير الأقصى وفلسطين كلها، وتطهير المنطقة من هيمنة الشيطان الأكبر، والمغفلون من أبناء أمتنا -وهم السواد الأعظم- يأخذون الأمور على ظاهرها، ويصدِّقون مزاعم إيران.

كنا ننتظر نشوب حرب بين إيران و الولايات المتحدة الأمريكية ... وإذ بنا نكتشف نقيض ذلك في الخفاء، ففي عام ٢٠٠١ مدّت إيران يد التعاون لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في حربهم من أجل إسقاط [طالبان] العدو اللدود لإيران وشيعتها في أفغانستان، ثمّ تعترف كل من البلدين بهذا التعاون، ثم نكتشف تعاوناً غير محدود بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة، وكل من إيران وشيعة العراق من جهة أخرى. كانت اللقاءات التي تعقد بين المعارضة العراقية والأمريكيين في لندن يشارك بها مسؤول السفارة الإيرانية، وصرح محمد باقر الحكيم زعيم المجلس الإسلامي الأعلى أنّ علي خامنئي مرشد الثورة الإيرانية أفتى له بالانضمام للمعارضة التي تنسق وتتعاون مع الأمريكان ... وفي عام ٢٠٠٣ سقطت بغداد على أيدي الأمريكان وحلفائهم، واعترفت إيران والشيطان الأكبر بما كان بينهما من تعاون، ولولاه لما سقطت العراق بهذه السهولة.

وهكذا سقط نظام البعث الذي كانت إيران وشيعتها تعتبره نظاماً سنياً مع أن الشيعة الذين يعملون في صفوف البعث العلماني أكثر من السنة، وأصبح النظام

الجديد شيعياً بمباركة [بريمر] المندوب السامي الأمريكي، ومن يقرأ مذكراته يحسب أنه قد تشيّع.

والأشد استغراباً أن تكتشف أجهزة المخابرات العالمية تعاوناً وثيقاً ما بين إيران والقاعدة مع أنّ النّاس يعدُّون القاعدة سلفيةً جهادية، وأظنها هي تعد نفسها كذلك، فكيف تمّت هذه المعادلة، وكيف نحلّ هذه الطلاسم على حدّ قول الرئيس اللبناني إلياس سركيس؟

في بداية عام ٢٠٠٧ زار الرئيس الأمريكي بعض دول المنطقة، وأخبرهم أنه سيشن حرباً ضد إيران أو سيوجه لها ضربات، ثم بدأ التمهيد لهذه الحرب بتهديدات متبادلة بين الطرفين، ومرابطة بوارج حربية أمريكية في مياه الخليج، وكان من المتوقع أن تندلع هذه الحرب خلال أشهر إن لم يكن خلال أيام، فالبوارج الحربية ما جاءت بقصد السياحة، لكن الحرب لم تقع، وبدأت لهجة الأمريكان تخف، وصرنا نسمع عن اجتماعات بين الطرفين من أجل تحقيق السلام في العراق.

قال الأمريكان لبعض العرب السنة في العراق: ها أنتم ترون أن القوات العسكرية والأمنية الإيرانية قد تغلغلت في العراق بشكل أو بآخر، وتمكنت من تجنيد معظم شيعة العراق معها، فتعالوا لنتعاون في مواجهة هذا الخطر، وصدّق بعض العرب السنة مقولتهم، ولكن هذا البعض كان قليلاً والحمد لله... وبعد تجربةٍ قصيرةٍ أدرك فريق من المتعاونين مع الأمريكان أنه من الصعب اختراق الحلف الأمريكي الشيعي، وسيصل الباقون إلى هذه النتيجة، اللهمّ إلا من ارتضى

منهم أن يكون عميلاً متآمراً على أهله ووطنه، فالمستعمرون منذ أيام الحرب الصليبية وحتى يومنا هذا يعلمون حق العلم أن عدوهم وخصمهم اللدود في بلادنا العرب السنة، وإمكانية التعاون مستحيلة بين الطرفين.

وكل ما قلناه عن العلاقات الإيرانية الأمريكية ينطبق على العلاقات السورية الأمريكية في ظل هذا النظام الطائفي الباطني الذي هيمن على شؤون الحكم في «شامنا» منذ أربعة عقود، فبعد اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، اقتنعت بعض أطراف الإدارة الأمريكية بأن الأمور لا تستقيم في منطقتنا إلا بتغيير النظام الحاكم بدمشق، إلا أن إسرائيل رفضت أيّ تغيير لأنّ النظام ضعيف، وتعرفه جيداً، وبديله لن يكون إلا نظاماً «أصولياً!» متطرفاً.

وطُوي ملف تغيير النظام، وعادت الوفود الأوروبية والأمريكية تطرق باب دمشق بعد مقاطعة شديدة... وعادت الاتصالات السورية الإسرائيلية عن طريق تاجر أمريكي من أصول سورية نصيرية، والنظام الحاكم في دمشق كعادته يزعم أن لا علاقة له بهذه الاتصالات... ثم نقلت وسائل الإعلام [وبالتأكيد غير سورية] عن مسؤولين أتراك أنهم يتوسطون بين سورية وإسرائيل من أجل إحلال عملية السلام.[1]

كنت أقول لمن يسأل: هل أمريكا تريد تغيير النظام الحاكم في دمشق؟ لو لم تكن

---

(١) اعترفت سورية فيما بعد بهذه المفاوضات، وقالت: إنها غير مباشرة، وتجرى عن طريق الحكومة التركية.

هذه الطائفة في الحكم لجاء بها الأمريكيون وسلّموها مقاليد الحكم. بعض أطراف المعارضة السورية راهنت على تأييد الأمريكان لهم، غير أنّ مسؤولاً في البيت الأبيض خيّب آمالهم عندما قال لهم: «نحن نعرف هذا النظام جيداً، فقد تعاملنا معه أكثر من ثلاثة عقود، وهو على استعداد أن يقدم لنا أضعاف أضعاف ما يمكن أن تقدموه». وبذلك انتهى ضجيج المعارضة.

الفصل الثاني

باتريك سيل يكشف المخفي

باتريك سيل يكشف المخفي

قلنا فيما مضى: إنّ موافقة كل من أمريكا وإسرائيل والموارنة، على دخول القوات السورية إلى لبنان بعد رفضها القاطع، يعني أن هناك مفاوضات واتصالات جرت في الخفاء، جعلتهم يطمئنون اطمئناناً لا شكّ فيه إلى أنّ قوات النظام السوري ستقوم بالدور المطلوب نيابةً عنهم، وهذا ما قاله زعماء النظام الصهيوني في تصريحاتهم الاستفزازية التي ذكرنا بعضاً منها فيما مضى من هذا الكتاب.

جاء [باترك سيل] بعد بضع سنين ليكشف لنا كيف أصبحت [لا]: الموارنة وإسرائيل وأمريكا [نعم]، وما ذكره هذا الكاتب من أجود ما قرأت، وإن كان كعادة أمثاله يكشف بعض الحقيقة، وليس كلها، وقوله هذا شاهد على صحة ما عرضته في الفصل السابق.

قال باتريك سيل:

«اتفاقية الخط الأحمر: كانت الأزمة اللبنانية بالنسبة لكيسنجر آخر فرصة يمارس فيها براعته الخبيثة في المناورة في الشرق الأوسط قبل أن يزيحه من السلطة فوز جيمي كارتر في الانتخابات الأمريكية.

وعندما كبر خطر الأزمة اللبنانية واستطار في ربيع عام ١٩٧٦ أصبح همُّ كيسنجر أن يكسر حدة هجوم الوطنيين والفلسطينيين التي انتشرت كالمد تكتسح أمامها كل شيء، فقد بقي يقف تجاه الأزمة اللبنانية وقفة اللامبالاة إلى حد كبير

حتى ذلك الحين. ولكن انتصارات اليسار لم تكن شيئاً يستطيع كيسنجر أن يتجاهله. فالاتحاد السوفييتي الذي كان يدعم الطرف الرابح بدا وكأنه يتقدم ليكسب أرضاً أو مواقع جديدة ثمينة. وكان هناك همٌّ مستعجل أكثر، هو: ما الذي ستفعله سوريا وإسرائيل؟ فكلاهما كانتا تريان لبنان ضرورياً وحساساً لأمنهما، غير أنهما إذا اصطدمتا فستكون العاقبة حرباً جديدة في الشرق الأوسط تعرض منجزات كيسنجر للخطر، ولا سيما العلاقة المصرية-الإسرائيلية.

وبالنسبة لكيسنجر، كذلك بالنسبة للأسد ولرابين، ظهرت أحداث لبنان وكأنها إعادة لأزمة الأردن عام ١٩٧٠. ففي ذلك الحين أرسل الأسد دروعه إلى أن أُرْغِم على الخروج بعدما لوّح كيسنجر باحتمال تلقيه ضربة إسرائيلية.

ألم يكن ذلك نموذجاً لما يحدث في لبنان بعد ستة أعوام؟ مرة أخرى كان الفلسطينيون مشتبكين في حرب، ومرة أخرى كانت إسرائيل تستعرض عضلاتها لإبقاء سوريا خارجاً، ونُقلت التحذيرات الإسرائيلية لسوريا عن طريق الولايات المتحدة التي قام سفيرها بدمشق، ريتشارد مورفي، بإبلاغ الأسد بأن إسرائيل ستنظر إلى دخول سوريا للبنان على أنه تهديد خطير جداً لها. وعزَّز مورفي إنذاره هذا -لا تتدخلوا وإلا فإن إسرائيل ستتدخل- بالتحذير من أنّ الولايات المتحدة قد لا تتمكن من لجم إسرائيل. كانت هذه طريقة كلاسيكية معهودة للتعبير عن موقف إسرائيل التقليدي الذي يعتبر وجود قوات عربية أخرى في لبنان أو الأردن سبباً كافياً لتبرير شن الحرب».

ثم يتحدث الكاتب عند تغير موقف كيسنجر، فيقول:

«كان الخط المعروف المألوف عن الموقف تجاه لبنان في أمريكيا وإسرائيل هو تخويف الأسد كي يبقى خارج الحلبة اللبنانية بينما يُترك الفلسطينيون واللبنانيون ليتذابحوا إلى النهاية. كانت هذه هي غريزة إسرائيل، وفي بادئ الأمر كانت هي أيضاً غريزة كيسنجر. ولكن فكرته البارعة المفاجئة الجهنمية كانت قلب هذا المفهوم المألوف رأساً على عقب. فقد خطر لكيسنجر أنّ السياسة الصحيحة لم تكن بالتأكيد تخويف الأسد من الدخول، بل تخويفه من عدم الدخول! وبدلاً من أن يُقال له: «إذا دخلت فسوف تدخل إسرائيل» فإن الرسالة الأكثر دهاء هي أن يُقال له: «إذا لم تدخل فإن إسرائيل ستدخل بالتأكيد».

لم يكن كيسنجر يشعر بأي مودة أو ميل خاص نحو الزعيم السوري. كانت محبته أو إعجابه الأول قد انتهى منذ زمن طويل، وحلّ محله شيء أكثر برودةً بكثير عندما أثبت الأسد أنه أذكى وأصلب منتقد ومعرقل لدبلوماسيته. وكان يعي أن أهم وأقوى مخاوف الأسد هو التدخل الإسرائيلي في لبنان بحجة إنقاذ المسيحيين، وهي مخاوف كانت تجعله يحاول كبح جنبلاط وعرفات لمنعهما من الضغط على المسيحيين أكثر من اللازم. وأدرك كيسنجر الماكر المراوغ أن قلق الأسد شيء يمكن الاستفادة منه، ولا بدّ أنه استطاب المفارقة الهائلة لموقف يضطر فيه الأسد إلى سحق الفلسطينيين بدلاً من حمايتهم، وذلك لمنعهم من التسبب فيما كان يخشى أكثر من أي شيء، أي الغزو الإسرائيلي.

إن الفوائد لأمريكا وإسرائيل يمكن أن تكون عظيمة حقاً. والفلسطينيون سيتم قهرهم وضبطهم واليسار سوف يتمّ احتواؤه، وموسكو ستصاب بخيبة أمل، والأسد سيتلوث وتنسف مكانته بسبب فعلة شنعاء في نظر العرب. أما كم من هذه الأشياء خطط له كيسنجر وفكّر فيه عمداً، وكم منها كان مجرد إحساس لديه فهذه مسألة متروكة للتكهنات والتخمينات.

كان ضمان النتيجة المرغوب فيها يتطلب تحريك بعض الخيوط. كان يجب إقناع إسرائيل -ضد ردود فعلها الانعكاسية الطبيعية- بقبول دخول جيش سوري إلى لبنان، وتطمين سوريا أن الولايات المتحدة لن تعارض إذا تدخلت وأن إسرائيل لن تبدي رد فعل عسكري. وفي الوقت نفسه كان يجب أن يستمر القتال على الأرض في لبنان إذا أريد للفخ أن يُطبِق على الفريسة، لأن القتال إذا توقف فإن سوريا لن يكون لديها سبب آخر يبرر التدخل.

ولم تقتنع إسرائيل بسهولة بحكمة ترك القوات السورية تدخل. فقد كان من بديهيات سياسة إسرائيل أن سوريا يجب تحجيمها، وليس تشجيعها على التوسع، غير أن كيسنجر في هذه المناسبة أيضاً جادل بأنه هو أفضل من يعرف صالح إسرائيل. فحصل على تأييد غير متوقع من رئيس الأركان مردخاي غور ورئيس المخابرات العسكرية شلوموغازيت اللذين أكّدا بأن دخول القوات السورية إلى لبنان سيضعف الجيش السوري بالفعل، ويبعد اهتمامه عن مرتفعات الجولان، وقد تمّ إقناع رابين بذلك في آخر الأمر.

وهكذا وضع كل شيء في محله كأساس لما سمي [باتفاقية الخط الأحمر]، وهي اتفاقية غير مكتوبة، ولا موقعة، ولا يعترف بها السوريون، وتقضي بأن تقبل إسرائيل بوجود قوات سورية في أجزاء من لبنان. وبالطبع جعل الإسرائيليون قبولهم مشروطاً بألا تجلب القوات السورية معها صواريخ سام إلى الجنوب من طريق دمشق بيروت. وأصرت إسرائيل أيضاً على أن يكون الانتشار السوري في البحر والجو محدوداً، وهذا الفهم أو التفسير لاتفاقية [الخط الأحمر] كان موجوداً في رسالة بعث بها وزير الخارجية الإسرائيلي في ذلك الحين إيغال آلون إلى كيسنجر الذي نقلها بدوره إلى دمشق.

غير أنّ الحقيقة هي أن اتفاقية الخط الأحمر كانت دعوة للسوريين كي يدخلوا، وليست تحذيراً كي يبقوا خارجاً، وهكذا صار بإمكان سوريا أن تتحرك ضد الفلسطينيين في لبنان مع الفهم بأن إسرائيل لن تتدخل.

وقد تمّ التمهيد لهذا المنعطف بتغيير درامي مفاجئ لنغمة واشنطن تجاه سوريا. فإلى نهاية آذار-مارس ظلّت وزارة الخارجية الأمريكية تحذر سوريا علناً من التدخل. ولكن فجأة راح البيت الأبيض، وكيسنجر نفسه، ودين براون، والسفارة الأمريكية بدمشق يصدرون بعد ذلك التاريخ تعبيرات عن موافقتهم على دور سوريا البنّاء. ولم يحدث قط أن تغير الضوء الأحمر إلى ضوء أخضر بمثل هذه السرعة.

وتولى مبعوث كيسنجر، دين براون، الجانب اللبناني من المؤامرة. فزار جنبلاط في قلعته بالمختارة وعبّر عن تشاؤمه من مستقبل التعايش بين الدروز والموارنة،

وفهم جنبلاط من ذلك موافقةً على التقسيم، وبالتالي على استمرار الحرب. أمّا الزعماء المسيحيون الرئيسيون الثلاثة، فرنجية، والجميل، وشمعون، المحصورون في استحكامات قلاعهم الجبلية فقد أوضح لهم براون أنهم لا يمكن أن يتوقعوا الإنقاذ على يد البحارة والجنود الأمريكيين كما في عام ١٩٥٨، ولكنّ خلاصهم يكمن في تقوية أنفسهم من خلال علاقات أوثق مع إسرائيل.

ومع تعبئة وشحن آلة الحرب اللبنانية جيداً. تمّ نصب الفخ.

تهديدات من جنبلاط وعرفات

في عام ١٩٧٦ شعر الأسد بأنه مضطر للتدخل العسكري في الحرب الأهلية. ولم تكن حركته متهورة، بل لقد تم التفكير فيها ومناقشتها مطولاً في قيادة حزب البعث، وكانت هناك إرهاصات سبقتها ودلت عليها منذ شهور قبل ذلك. فمنذ كانون الأول-ديسمبر عام ١٩٧٥ كان الأسد قد أدخل إلى لبنان وحدات من جيش التحرير الفلسطيني وقوات الصاعقة لكبح جماح التحالف الوطني اليساري المتشدد، ولفصل المتحاربين. وكان قد حذر بصراحة لا لبس فيها من أن سوريا ستضرب كل من يعكر صفو السلام. ولكن كلماته ذهبت دون أن يهتم بها أحد.

في السابع والعشرين من آذار-مارس عام ١٩٧٦عقد الأسد اجتماعاً عاصفاً مع كمال جنبلاط، الزعيم غير المنازَع لليسار اللبناني، واستغرق الاجتماع سبع ساعات افترقا على أثره متخاصمين، ولم يقدَّر لهما أن يرى كل منهما الآخر ثانية بعد ذلك. وقبل ذلك اللقاء بأيام كان جنبلاط قد أعلن عن تشكيل [جيش فخر الدين]

-على اسم بطل درزي عاش في القرن السابع عشر- لتوحيد جميع القوات الإسلامية واليسارية، وأعلن عزمه على شن حملة عسكرية «**شاملة لا تراجع فيها**» ضد القوات المسيحية.

ولقد بدت سياسة جنبلاط الحربية كلها لعيني الأسد حماقة مطلقة تخدم أهداف إسرائيل مباشرة، وتعرض سوريا نفسها لخطر غير محدود، وسأله الأسد: (لماذا تصعّدون القتال؟ إنّ الصلاحيات الواردة في الوثيقة الدستورية تعطيكم ٩٥٪ مما تريدون، فما الذي تسعَون إليه بعد؟) فأجاب جنبلاط: «بأنه يريد التخلص من المسيحيين الذين لا يزالون جاثمين على صدورنا منذ ١٤٠ عاماً».

كانت المشكلة هي أنّ جنبلاط، باعتباره درزياً، كان ممنوعاً بموجب الدستور من تسلم منصب رئيس الجمهورية الذي كان محجوزاً للموارنة وحدهم. فلكي يحكم لبنان كما كان يتطلع، كان عليه أن يحطم النظام الطائفي. ولكن ذلك كان يعني تحطيم المسيحيين أو إخضاعهم على الأقل. ورغم مركزه الموروث كزعيم من أقطاب الدروز فقد كان رجل اليسار الأصيل فعلاً. ومنذ تأسيسه لحزبه التقدمي الاشتراكي عام ١٩٤٩ ظل يخوض حملات يناضل فيها من أجل الإصلاح، فأصبح يقف كبطل للمحرومين في المجتمع اللبناني، وقد صادق الفلسطينيين منذ وقت مبكر، وأعلن نفسه ناصريّاً، وكان يتمتع بعلاقات وديّة مع موسكو، ومنذ أواخر الستينيات فصاعداً التف حوله جمهور كبير واسع من القوميين العرب والراديكاليين المتصلبين من جميع الأنواع وبحلول ربيع عام

١٩٧٦ بينما كان حلفاؤه يطوقون معاقل خصومه الموارنة الأقدمين، أخذ جنبلاط يشم رائحة النصر.

ويمضي الكاتب في الحديث عن طموحات جنبلاط زاعماً أنه يريد أن يدير نوعاً من [كوبا] على شواطئ البحر المتوسط، وأنّ الدعم السوفييتي سيحمي دولته... ثمَّ ينتقل إلى الحديث عن الفلسطينيين فيهاجمهم، ويدّعي أن الأسد لم يتوصل في لقاءاته معهم إلى شيء، فكان أمرهم كأمر جنبلاط... ولا يخفي باتريك سيل تعاطفه مع صديقه حافظ الأسد، والتماس الأعذار له، وتعداد فضائله على الفلسطينيين وبخاصة في حربهم مع الأردن ١٩٧٠، وأنه كان دائماً يقدم المساعدات لهم. وبعد أن أغلقت الأبواب أمام الأسد في مفاوضاته مع جنبلاط والفلسطينيين قرر التدخل العسكري.

«التدخل السوري

أرسل الأسد جيشاً إلى لبنان، ليعلِّم الفلسطينيين التعقل وليبقي المسيحيين عرباً، ففي ليلة ٣١ أيار-مايو/ ١ حزيران-يونيو عام ١٩٧٦ عَبَرت الطوابير السورية المدرعة الحدود بقوة، وعلى الفور فكَّت حصار الفلسطينيين اليساريين عن المعاقل المسيحية، ولا سيما مدينة زحلة الهامة في وادي البقاع. فعندما فشلت محاولات الإقناع والحجج المنطقية والتهديد، شعر الأسد بأنه لم يعد لديه خيار. كانت تلك أول مرة يستخدم فيها القوة منذ حرب تشرين. ولكن تلك الحرب كانت تعبر عن أعمق آمال وأشواق الأمة العربية، وأكسبته تصفيقها الحماسي، أما

دخول لبنان فقد أسيء فهمه على نطاق واسع، واكتنفته وتخلّلته دوافع مختلطة وتحالفات غير طبيعية، وكان مكروهاً على الصعيد الشعبي كرهاً عميقاً، وكان على وجه العموم مغامرة خطرة حرجة قدِّر لها أن تُفقد الأسد أصدقاء في الخارج، وأن تولد في الداخل واحدة من أسوأ الأزمات التي تعرض لها في فترة رئاسته.

في البداية كان تدخله بسيطاً وهادئاً، بل ومتردداً. وكانت تتقدم كل خطوة نداءات للفلسطينيين وحلفائهم بأن يلقوا سلاحهم وينسحبوا من المناطق المسيحية. وكان واضحاً أن الأسد يريد أن يتجنب أي صدامات واسعة أو سقوط ضحايا على أي جانب من الجانبين. وكما هي الحال في الأردن، فإن دباباته لم يرافقها غطاء جوي.

ولكن عندما رفضت القيادة الفلسطينية إنذاراته، أرسل المدفعية والطيران لدعم تحرك قواته أعمق فأعمق في لبنان. ووقعت اشتباكات حادة على طريق بيروت-دمشق وفي ميناء صيدا في الجنوب وحوله، وفي «أرض فتح» على سفوح جبل الشيخ، وحول ميناء طرابلس في الشمال. وفي أواخر حزيران-يونيو كانت القوات السورية تحاصر المعاقل الفلسطينية واليسارية، وخطوط إمدادها وتموينها في البر والبحر وتسيطر على نحو ثلثي البلد، ما عدا القطاع الساحلي الآهل بالسكان.

وقُدِّر للمعركة في منطقة صيدا أن تكون ذات مغزى مؤلم جارح، فقد كانت هناك وحدة من الدبابات السورية لا تتوقع أن تجابه مقاومة، غير أنها وقعت في كمين دُمِّرت فيه دبابتان على الأقل وتم الاستيلاء على أربع دبابات أخرى. وقتل

بعض الضباط السوريين وأطقم الدبابات. وانتشرت الشائعات بأن رؤوسهم قد قُطعت ثم تداولتها الأرجل مثل كرة القدم، رغم أن ذلك في أغلب الظن لم يكن صحيحاً. وتلقى الأسد تقارير بأن الجنود الذين كانوا يعملون على المدافع المضادة للطائرات في المخيمات الفلسطينية قد تعرضوا للضرب، بل وللقتل. فآلمته تلك الحوادث وأغضبته وجعلت قلبه يقسو على الفلسطينيين، فلقد كانوا يحفرون بأيديهم قبورهم بتوريطه أعمق فأعمق في صراع كان حريصاً على أن يتجنبه. وبكل الغضب الساخط الذي يستشعره رجل مقتنع بأنه على صواب، أسقط الأسد القادة الفلسطينيين من حسابه، ليس باعتبارهم مغامرين متهورين فحسب، بل باعتبارهم تعساء ناكرين للجميل عضُّوا اليد التي أطعمتهم. ولعل العداء الشخصي المرير الخارق للعادة بين الأسد وعرفات يعود تاريخه إلى كمين صيدا.

جعل التدخل السوري الفلسطينيين واليساريين يتخذون موقف الدفاع، وغيَّر مجرى الحرب الأهلية، ومكَّن المسيحيين من التحول إلى الهجوم، وخصوصاً ضدَّ الجيوب المعادية في أراضيهم، ولا سيما ضدَّ مخيم تل الزعتر الكبير واسع الامتداد في ضواحي بيروت الشرقية، فحاصروه. وكان هذا المكان الفقير المهترئ يقطنه ثلاثون ألفاً من اللاجئين الفلسطينيين والشيعة، فسقط آخر الأمر في ١٢/ ٨/ ١٩٧٦، بعد اثنين وخمسين يوماً من الحصار الوحشي الشديد. وقد مات فيه حوالي ثلاثة آلاف مدني معظمهم ذبحوا بعد سقوط المخيم في أيدي «النمور»، جيش كميل شمعون بقيادة ولده داني.

وكانت مذبحة تل الزعتر التي لم ترحم هي الأولى في عدة مجازر ضد المدنيين الفلسطينيين على يد العرب الآخرين، وصورة مسبقة لمجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ التي ارتكبها مرة أخرى رجال الميليشيات المسيحية، ولكن بتشجيع إسرائيلي هذه المرة، وكذلك حرب المخيمات في عامي ١٩٨٦و١٩٨٧ التي كان فيها مُعذِّبو الفلسطينيين هم الشيعة المتحالفون مع سوريا والمتلقون تموياتهم منها. كانت لمثل هذه الأعمال الوحشية رد فعل انعكاسياً عنيفاً لطوائف شعرت بأنها هي نفسها معرضة للإبادة الجسدية. ولكن تل الزعتر، بتوضيحها لانقلابات وتغيرات صداقات سوريا وتحالفاتها قد حفرت هوة عميقة من الشكوك بين الأسد والفلسطينيين.

وقد نظر الكثيرون إلى حرب الأسد على الفلسطينيين ودفاعه عن المسيحيين على أنها قلب للتحالفات مذهلٌ أصابهم بصدمة عميقة. وطوال بقية فترة رئاسته ظل الأسد يحمل عبء سياسة أسيء فهمها، ولم تكن لها أية شعبية بين الجماهير العربية. وفي تلك الأثناء راقبته إسرائيل وهو يتقلب في المستنقع اللبناني دون أن تخفي سرورها ورضاها بذلك. وقال رابين ساخراً إنه لا يرى حاجة للتشويش على الجيش السوري في قتله «لإرهابيّي عرفات».

فلقد أثبتت حسابات كيسنجر صحتها. وأدّى تحريكه للخيوط سراً وبتحفظ ليجعل سوريا -من بين جميع البلدان- تضرب الفلسطينيين وتحطم آمال السوفييت.

وسُمعت الصيحة ضد حرب الأسد في لبنان من أقرب العالم العربي إلى أقصاه.

فقطع السادات علاقاته معه واتهمه وزير خارجية مصر بشنّ حرب إبادة. وقام رجل العراق القوي صدام حسين بإرسال قوات إلى الحدود السورية، وقال: «إن الأسد مصاب بجنون العظمة جعلته أطماعُه ينغمس في حمام دم من صنع يديه».

وهاجم جنبلاط الحكومة السورية واعتبرها نظاماً عسكرياً فاشيّاً، ودعا هو والزعماء الفلسطينيون إلى حرب شاملة ضدّ دمشق. ذلك أن تدخل الأسد عسكريًّا قد وضع حدًّا مفاجئاً لأحلام اليقظة لدى كمال جنبلاط. وكانت المفارقة هي أنه بمجرد قيام الأسد بحرمان جنبلاط من كل شيء ناضل من أجله، فقد تحول جنبلاط فعلاً إلى زعيم درزي ضيق الأفق باحث عن الانتقام للموارنة. وأصبح هذا الرجل عنيفاً جداً مع أنه كان بطبيعته غير عنيف، وشبيهاً بغاندي. فأخذ يرى نفسه آخر الأمر كأداة فشلت في تحقيق الانتقام الدرزي التاريخي من المسيحيين. فما أن تحطمت أحلامه في إقامة لبنان اشتراكي حتى بدا وكأنه وقع تحت سيطرة أجداده وحزازاتهم وثاراتهم القديمة.

وأخذت الحركة الوطنية المعاصرة تطالب بتدخل الأمم المتحدة، وفرنسا، بل وترسل النداءات في طلب المساعدة ضد سوريا من أية جهة. وفي الوقت نفسه هوجمت السفارات السورية في بلدان مختلفة من قبل متظاهرين عرب مؤيدين لمنظمة التحرير. وأخطر من ذلك بالنسبة للأسد كانت التقارير الملحة عن قيام الدول النفطية التي موّلت الازدهار السوري بكرم في أعقاب حرب ١٩٧٣ بقطع مساعداتها.

وضمن عالم السياسة البعثية المغلق أطلق عليه سهم مؤلم آخر على يد صلاح الدين البيطار، أحد مؤسسي الحزب، فقد تساءل في مقال نشرته صحيفة [لوموند] كيف أمكن لسوريا، قلب العروبة النابض، أن تشترك مع الانعزاليين المسيحيين في نهج غريب عن تقاليدها؟ ثم أجاب على التساؤل بطريقة مؤذية بأن السبب هو طبيعة السلطة في دمشق، فهي منعزلة منقطعة عن الشعب وتخنق كل ديمقراطية.

وكانت هناك تهمتان أخريان انتشرتا بشكل واسع في ذلك الحين وأضرتا بالأسد كثيراً. كانت أولاهما: تقول بأنه كان يعمل بالتواطؤ مع الولايات المتحدة لسحق الفلسطينيين ليمهد الطريق لخطة تسوية أمريكية. وقد تألم كثيراً لذلك لأنه كان لديه من الأسباب ما يدعوه لأن يعتبر نفسه العقبة الأساسية والضحية الأساسية للمخططات الأمريكية والإسرائيلية. وكان التشنيع الثاني: هو أنه يجعل من موضوع الأقليات لعبة سياسية ... وبالرغم من أنه كظم وصبر وتحمل بشجاعة فإن نظامه في الداخل قد اهتزَّ، وكانت هناك تقارير كثيرة في ذلك الصيف عن اضطرابات وسخط ونقمة، ضخمها أعداؤه، غير أنها مع ذلك كانت حقيقية. ففي أيلول-سبتمبر تمّ شنق ثلاثة فلسطينيين علناً لاحتلالهم فندقاً في دمشق وأخذهم رهائن. وفي مواجهة مثل هذا العنف، لا بدّ أن الأسد قد شعر بالحاجة إلى حماية إضافية. فأقيم حرس رئاسي بقيادة قريب زوجته: عدنان مخلوف، بينما رُفِّع أخوه رفعت إلى رتبة عقيد ركن، وتم تعزيز سرايا الدفاع.

وكان من بين ضحايا غزوة الأسد للبنان علاقته الجيدة بالاتحاد السوفييتي، فقد

فزعت القيادة السوفييتية من اتجاه مجرى الأحداث في ربيع عام ١٩٧٦ وأرسلت رئيس الوزراء كوسيغين إلى المنطقة؛ إلى العراق أولاً ثم إلى سوريا، وفي بغداد التي وصلها في أواخر أيار حذّر سوريا علناً من التدخل في لبنان، ولكنه عندما وصل إلى دمشق في أول حزيران-يونيو كان الأوان قد فات ... كان الأسد قد دفع بقواته، ودروعه السوفييتية عبر الحدود في الليلة السابقة. ورغم شروحات الأسد المطولة كان رئيس الوزراء السوفييتي غاضباً. وعلقت وكالة [تاس] بلهجة مريرة أن تدخل سوريا لم يفعل شيئاً لوقف جريان «نهر الدم الذي يتضخم باطّراد». كان من السهل التكهن بأسباب سخط السوفييت، فلقد كانوا معجبين بجنبلاط (الذي كان واحداً من عربيّين اثنين فقط مُنِحا جائزة لينين للسلام، وكان الثاني هو عبد الخالق محجوب، الزعيم الشيوعي السوداني الذي قتله نميري عام ١٩٧١)؛ وكانت لهم علاقات وثيقة مع منظمة التحرير الفلسطينية، وكانوا يكرهون أن يُرغموا على الاختيار بين الأسد واليسار اللبناني. ولذا شعروا بالحرج من رؤية الطرفين يَقْتتلان. وقبل كلّ شيء، فإنهم كانوا يتوقعون مكاسب سياسية كبيرة في لبنان، ولعلهم كانوا يأملون بتحويله إلى محطة بث فريدة لتقوية نفوذهم في المنطقة بمجرد أن ينتصر أصدقاؤهم. وبتحطيم هذه الآمال والتوقعات ظهر الأسد وكأنه يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ،إلى لبنان خاضع لسيطرة الغرب، ويلغي عشر سنوات من العمل والسعي على يد اليسار.

بينما أخذ السوريون يتقدمون، راح جنبلاط والفلسطينيون ينتظرون أن

يخلصهم الاتحاد السوفييتي، ووصلت إلى كوسيغين وهو بدمشق مناشدات ونداءات كثيرة، بل لقد تصور بعض السذج المخدوعين أنَّ المظليين السوفييت سيهبطون عليهم من السماء، وكانت موسكو فعلاً قد أخبرت الحزب الشيوعي اللبناني وغيره من أصدقائها اليساريين أنها غير موافقة على التدخل السوري.

غير أنَّ ذلك قد أُسيء فهمه على الصعيد المحلي، ففُهم منه بأنّ موسكو ستفعل شيئاً ما لوقف ذلك التدخل. والواقع أنه لم يكن يعني بالنسبة للكرملين صدعاً أو انقطاعاً، بل مجرد برود في العلاقات السورية-السوفييتية. أرسل بريجنيف رسالة إلى الأسد يحثه فيها على الانسحاب، وناشدت موسكو الأطراف الثلاثة جميعاً -سوريا، واليسار اللبناني، والفلسطينيين- عدة مرات أن يتوحدوا ويرصوا صفوفهم.

وبالنسبة للأسد كانت العواقب العملية للسخط السوفييتي قاسية بما فيه الكفاية، فلم تعد هناك عقود جديدة لتوريد الأسلحة السوفييتية، بل أُجلت في وقت بدت فيه إسرائيل تشكل تهديداً جديًّا بصورة خاصة. وهكذا حُرم الأسد فجأة من سندٍ يدعمه على مستوى دولة كبرى. وعندما تذكر الأزمة بعد عشرة أعوام قال وهو يقلل من أهمية الموضوع كعادته: «كانت هناك نكسة في علاقاتنا بالاتحاد السوفييتي، وانتهت بعض التزامات معينة فيما بيننا. لقد كان من الصعب عليهم أن يفهموا طبيعة علاقاتنا بلبنان». ولم يصل سلاح سوفييتي متطور إلى سوريا ثانية إلا في عام ١٩٧٨، عندما ذهب السادات في رحلته إلى القدس فعاد الأسد إلى مكانه كأحسن صديق للسوفييت في الشرق الأوسط.

لم تؤدِّ الانتقادات التي كيلت للأسد إلى ثنيه عن أهدافه في إبعاد الفلسطينيين عن قلب الأراضي الداخلية للمسيحيين، وفصلهم عن الحركة الوطنية اليسارية، وترويض الطرفين لمصلحة استراتيجيته الأوسع المعادية لإسرائيل.

وانقضى صيف عام ١٩٧٦ بعمليات عسكرية صغيرة هادئة تخللتها بالتناوب نداءات ومناشدات وإنذارات متجددة. ثمَّ شنَّ في أواخر أيلول-سبتمبر وأوائل تشرين الأول-أكتوبر ١٩٧٦ عدداً من الهجمات الكبرى انتهت بما يقرب من الدحر الكامل للفلسطينيين وحلفائهم. وعندئذ أصبح الأسد مستعداً لقبول الدعوة السعودية إلى مؤتمر قمة للمصالحة [في الرياض في ١٦ تشرين الأول-أكتوبر] كرَّس انتصاره الباهظ الثمن. فأُضيفت الشرعية على وجوده في لبنان، وتمَّ الاعتراف بقواته على أنها العمود الفقري لقوة اقترح تشكيلها باسم [قوات الردع العربية]، ووافقت السعودية والكويت على تمويل ودفع نفقات تدخله! وأُعيد الفلسطينيون إلى مخيماتهم بعد أن انتزعت منهم وعود-سرعان ما نُقضت- بالتقيد باتفاق القاهرة. ثمَّ إنَّ شجارات الأسد المريرة المتسممة مع السادات وعرفات تمَّ ترقيعها بالورق، وتبنَّى ذلك كله مؤتمر عربي أوسع في القاهرة في الخامس والعشرين من أكتوبر-تشرين الأول سنة ١٩٧٦، وفي منتصف تشرين الثاني-نوفمبر، دخلت القوات السورية إلى غرب بيروت، فاختفت الجيوش اليسارية الخاصة من الشوارع، وأُعلِن عن انتهاء الحرب الأهلية.

غير أن انتصار الأسد كان جزئياً ومعرضاً للشبهات والأخطار، فقد كان عليه

من ذلك الحين فصاعداً أن يتحمل عبء كونه قد اتبع سياسة رأت فيها أكثرية العرب نهجاً معادياً للعرب بشدة وعمق. ولقد دافع عن نفسه وقتها وفيما بعد مراراً وتكراراً وببلاغة، وتتبع علانيةً تاريخ علاقاته بجنبلاط وعرفات بأكمله، ومن البداية إلى النهاية ظلَّ الأسد مقتنعاً -مهما كانت الضغوط الخارجية عليه- بأنَّ تدخله كان صحيحاً من الناحيتين التكتيكية والأخلاقية، لقد اضطره الطموح الأعمى لبعض الرجال إلى التحرك والعمل لأنَّهم لم يستطيعوا أن يدركوا طبيعة صراع الحياة والموت الذي كان يخوضه مع إسرائيل. ولكن الظلال الداكنة بقيت، ومهما كانت تبريراته، فإن الآخرين لم يصدقوها تصديقاً كاملاً، واعتبر أنه حادٍ عن المجرى الرئيسي لنهج الحياة العربية». ا.هـ[1]

تعليق:

باتريك سيل كاتب بريطاني مختص بشؤون الشرق الأوسط، وكان مراسلاً في الشؤون الأجنبية لرويتر والأوبزرفر، وهو صديق للرئيس السوري السابق حافظ الأسد، ولهذا خصّه بكتابة سيرته الذاتية، وخصّه بكثير من المعلومات التي حجبها عن غيره، وفي يوم من الأيام كان وسيطاً ونقل رسائل ما بين دمشق وتل أبيب.

وباتريك سيل منحاز لأسد فيما كتبه عن سيرته الذاتية، فهو يحسن الظن به، ويدافع عنه ويهاجم خصومه، مثل: منظمة التحرير، واليساريين، وكمال جنبلاط،

---

(١) كتاب [الأسد.. الصراع على الشرق الأوسط] باترك سيل.

ويفسر أقوالهم ومواقفهم تفسيراً سيئاً ليس فيه أي حيادية، إلا أنّ ما كتبه عن دور كل من كيسنجر وبراون من أهم وأدق ما قرأته عن أسرار وأبعاد التدخل السوري في لبنان، لكنه -وبسبب انحيازه- سكت عن الاتصالات السورية الإسرائيلية، كما سكت عن كشف أسرار كثيرة لم تكن مجهولة عند أمثاله.

أكثر سيل من الحديث عن دفاع أسد عن القضية الفلسطينية، وتضحياته من أجل حماية منظمة التحرير الفلسطينية. والصحيح أن أسداً يكره الفدائيين، وبشكل أخص منظمة فتح وياسر عرفات، وما ذكره عن تدخل القوات السورية إلى جانب منظمة التحرير ضد الأردن، فقد كان هذا القرار من صنع شركاء أسد في النظام السابق [صلاح جديد، ونور الدين الأتاسي، ويوسف زعين] الذي قاد بعد أشهر قليلة انقلاباً ضده وبعد خروج الفدائيين من الأردن ضيّق الخناق عليهم في سورية، ومنعهم من القيام بأية عملية فدائية، فما وجدوا سبيلاً للمقاومة والأعمال الفدائية إلا في لبنان. أما الفلسطينيون الذين أعدموا في سورية بعد قيامهم بتفجير أحد الفنادق فقد كانوا ينفّذون عملية لصالح بعث العراق، ولا صلة لهم بمنظمة التحرير.

يستدرك باتريك سيل بعد تعداده لفضائل أسد على المنظمة فيقول:

«ولكن الأسد في الحساب الختامي لم يكن لديه ثقة بالفدائيين». ولكنه أيضاً لم يذكر أن قوات أسد دخلت لبنان لتنفّذ مهمة نيابة عن كلّ من: إسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية، والموارنة.

الفصل الثالث

وفيه مباحث:

المبحث الأول: سير المعارك السورية.

المبحث الثاني: انتصار... فاحتلال.

المبحث الثالث: الخطوط الحمراء.

المبحث الأول

سير المعارك السورية

- ٦/ ٦/ ١٩٧٦: قوات التدخل السوري تبدأ هجومها، بعد ستة أيام من دخولها الأراضي اللبنانية، فتحتل الشمال كله بدءاً من البقيعة حتى معرض طرابلس الدولي، صعوداً في جبل عكار حتى السنديانة والبيرة، ومن جهة الجرد حتى القبيات وعندقت. وتعزز موقعها في البقاع إعلامياً وعسكرياً، وتصادر الصحف اللبنانية.

- ٧/ ٦/ ١٩٧٦ الوضع العسكري:

- القوات السورية، وقوات الصاعقة تمطر مدينة بيروت والمخيمات الفلسطينية بالصواريخ، وتركزت اشتباكات بيروت على محورين: **الأول**: دار المعلمين بئر حسن-الفاكهاني، والقوات المشتركة تصد الهجوم السوري. **الثاني**: صبرا-الحرش، حيث اقتحمت القوات المشتركة مواقع الصاعقة واحتلتها.

- الجبل يجابه القوات السورية: المعركة الأولى تستمر ٧ ساعات وتنتهي بصد الهجوم المدرع السوري عند مدخل صوفر. وعشرات الكمائن تعترض قوات التدخل وتعطب لها ٧ دبابات.

- القوات السورية تقصف من زحلة القوات المشتركة في تلال حزرتا وترشيش وعينطورة.

- تشكيل قيادة موحدة في الشمال، وكافة مكاتب الصاعقة في طرابلس تنضم للمقاومة الفلسطينية، والقوات السورية تحاصر مطار القليعات.

- الحرب التقليدية مستمرة على جميع المحاور قصفاً واشتباكات وذلك في مدينة بيروت وضواحيها الجنوبية والشرقية.

- الظلام يغمر بيروت والضواحي بسبب انقطاع التيار الكهربائي الناتج عن أعطال في خطوط التوتر العالي في منطقة تل الزعتر-المنصورية.

• ١٩٧٦/٦/٨

- مدفعية القوات السورية في خلده وجوار مطار بيروت الدولي تدك بيروت الغربية والمخيمات الفلسطينية بالصواريخ: ٢٩٠ قتيلاً و ٤٠٠ جريح وتدمير وتصديع حوالي أربعة آلاف منزل.

- القوات المشتركة تشن هجوماً مضاداً على طول المنطقة الممتدة من [البيكنيك] في مدخل الأوزاعي وحتى السفارة الكويتية مروراً بالريفيرا والجناح، وجيش لبنان العربي يصرح أن الهجوم نجح جزئياً. وأعلنت الإذاعة عن سقوط دار المعلمين في بئر حسن بأيدي القوات المشتركة واستشهاد قائد ميليشيا فتح جواد أبو الشعر عضو المجلس العسكري وعضو مجلس الشورى.

- استمرت الحرب التقليدية على جميع محاور بيروت قصفاً واشتباكات وكانت حصيلتها ٥٢ قتيلاً من أصل المجموع السابق و٩٥ جريحاً كما عثر على ١٧ جثة.

- في الجبل: القوات السورية تتقدم ببطء في منطقة صوفر-بحمدون. تدمير آلية

سورية ومقتل سبعة من عناصرها.

- صيدا: تصد الهجوم السوري المدرع: تدمير ١٨ دبابة و٦ آليات، وأسر ٤٥ عنصراً سوريًا. وذلك بعد الهجوم السوري الذي حاولت فيه كتيبتان سوريتان دخول صيدا.

• ١٩٧٦/٦/٩

- بيروت: بيروت المحاصرة تموينياً والمقطوعة عنها الكهرباء، تتعرض لليلة أخرى من الصواريخ والقصف فوق الأحياء السكنية والمخيمات الفلسطينية بمعدل قذيفة كل ٦ دقائق. قصف ثكنة هنري شهاب وحريق في مستودعات الوقود فيها. والقوات المشتركة تصد محاولة تقدم صاعقة سورية من الأوزاعي والمطار، كما قام الانعزاليون بمشاركة السوريين في عمليات قصف المنطقة الغربية. سقوط ما لا يقل عن ٧٨ قتيلاً و١٤٧ جريحاً والعثور على ١٢ جثة في المنطقة التجارية. حصيلة اشتباكات وقصف بعض محاور الضاحيتين الجنوبية والشرقية: ٢٥٠ قتيلاً و٣٤٠ جريحاً و٥ جثث.

- الجبل: القوات المشتركة تقاوم التقدم السوري والقصف والاشتباكات الانعزالية. قصف فوسفوري يحدث حرائق حرجية. تدمير ٢٤ مدرعة سورية وأسر طاقم اثنتين. الخسائر البشرية ٢٥ قتيلاً و٣١ جريحاً، الكتائب تعلن ساحل كسروان-الفتوح منطقة عسكرية يحظر فيها نقل السلاح.

- الشمال: اشتباكات عنيفة ومعارك مدفعية كثيفة على جميع المحاور. الخسائر ١٢

قتيلاً و٣٩ جريحاً.

- الجنوب: ٣٠ آلية سورية تتحرك نحو مشارف صيدا والقوات المشتركة تصدها وتدمر مستودع ذخيرة.

- الخسائر: ١٢٥-١٤٠ قتيلاً و٣٥٠-٤٠٠ جريح من جراء قصف صيدا والمخيمات الفلسطينية القريبة.

- قصف إسرائيلي لمواقع العرقوب أبو قمحة-عين قينا الحاصباني.

• نشرت وكالة رويتر[1] للأنباء في ٢٣/ ٧/ ١٩٧٦ التقرير التالي:

«عندما انسحب حوالي [٤٠٠٠] جندي سوري من تلال الهلالية التي تشرف على مدينة صيدا تركوا في نفوس السكان المحليين شعوراً بالمرارة والانقباض، كانت الدبابات السورية قد دخلت صيدا في ٧/ ٦/ ١٩٧٦ بعد أن ظلت هذه المدينة بعيدة عن الصراع بسبب سيطرة اليسار عليها. قال المدافعون عن صيدا: إنهم دمّروا عدة دبابات سورية أو استولوا عليها وأوقعوا إصابات بين القوات السورية، وتشهد المباني التي قصفت وواجهات المتاجر التي اسودت بفعل النار، وبرج دبابة سورية رفع على شرفة في الدور الخامس من أحد المباني على ضراوة القتال الذي دار في هذا الميناء».

وعندما انسحب السوريون إلى التلال المطلة على هذا السهل الساحلي،

(١) وكالة رويتر للأنباء ٢٣/ ٧/ ١٩٧٦.

أصبحت المدينة هدفاً للقصف العشوائي، والضرب الصاروخي المحكم، ففي مصفاة الزهراني على بعد تسعة كيلومترات إلى الجنوب، أطلق السوريون وبإحكام كبير ٩٦ صاروخاً تسبب في دمار بالغ واحترقت النار في بعض صهاريجها منذ حوالي أسبوع. وقال عمال المصفاة الذين يربو عددهم على (٢٢٠) عاملاً:

«إن السوريين تعمدوا ضرب المصفاة لأنها تكرر تقريباً جميع الوقود المستهلك في المنطقة التي يسيطر عليها التحالف الفلسطيني اللبناني، ومما يجدر ذكره أن الحكومة اللبنانية كانت تزود السوريين بالوقود من هذه المصفاة في حرب سنة ١٩٧٣ وبعد قصف السلاح الجوي الإسرائيلي لمصفاة حمص».

وفي إحدى ضواحي صيدا الجنوبية يشاهد المارة مستشفى أصيب بثلاث قذائف، قال العاملون فيه:

«إن القذيفة الأولى جاءت من مدفع سوري حين كانت القوات السورية تزحف على صيدا، وحطمت آخر عملية قصف جزءاً من جدار خلفيّ للمبنى ودمرت جناحين مما دعا المرضى و الموظفين إلى الالتجاء للدور الأرضي».

قال طبيب من العاملين بالمستشفى:

«من الصعب عليّ أن أصدق أن السوريين هم الذين قذفوا المستشفى».

ولكنه أضاف:

«لم تحدث لنا أي مشكلة قبل مجيء السوريين».

ويعد مخيم عين الحلوة -٤٥ ألف نسمة- أكبر مخيم فلسطيني في لبنان، ويضم ملاجئ كثيرة تحت الأرض، كان السكان يستخدمونها في السنوات الماضية اتقاء للغارات الجوية الإسرائيلية التي دمرت ٤٠٠ منزل.

قال مواطن فلسطيني:

«إن القوات السورية استهدفت المخيم وأوقعت خسائر فادحة بالأموال والأرواح. وأصابت قذائف هذه القوات الأماكن السكنية والأسواق وحتى المقبرة العامة تحطم جزء من سورها».

قال قائد عسكري فلسطيني محلي:

«إن معنويات الجنود السوريين متدهورة في الهلالية، وكثيراً ما يطلق رجال المدفعية السورية قنابلهم إلى البحر لتفادي إصابة المدنيين. وقد استبدل ضباط وجنود جدد ببعض ضباط وجنود القوة الأصلية».

وقال قائد فلسطيني:

«إن كثيراً من المعلومات التي تصل إليه عن خطط القوة السورية وتحركاتها ينقلها لنا قرويون يطلعهم على هذه الخطط والتحركات ضباطٌ سوريون. وقد انسحب جزء من هذه القوة إلى البقاع، بينما انسحب الجزء الآخر إلى بلدة جزين الواقعة على بعد ٣٠ كيلو متراً إلى الشرق من صيدا».

من جهة أخرى أقامت القوات السورية المسلحة في جنوب لبنان وبالتعاون مع قادة طلائع الجيش العربي اللبناني مكاتب خاصة للعلاقات العامة في معظم المدن

والقرى اللبنانية لتأمين الخدمات العامة، وحل مشاكل المواطنين بما فيها القضاء والزواج والطلاق نظراً لغياب المؤسسات الرسمية اللبنانية. وتضم هذه المكاتب ضباط من القوات السورية ومن طلائع جيش لبنان العربي. وأصدرت الإدارة السياسية التابعة للقوات السورية المسلحة صحيفة يومية أسمتها [الموقف] ووزع العدد الأول منها في سائر أنحاء لبنان، وتتضمن آخر المعلومات عن الموقف في الساحة اللبنانية، ووجهة النظر السورية في النزاع القائم بلبنان.

- وفي(١١/ ٨/ ١٩٧٦) أجرت صحيفة الوطن الكويتية[١] استطلاعاً عن الوضع في لبنان تضمن شهادة عدد من ضباط قوات الردع العربية الذين كانوا يرون بأعينهم جرائم قوات النظام السوري.

- الملازم الأول -أبو عبد الله- من قوات الردع العربية (ليبي) قال:

«إن القصف الذي شهده في المناطق الوطنية وفي صيدا بالذات يدين السوريين ويؤكد تورطهم العسكري لصالح الانعزاليين».

- الملازم الأول حسن من القوات الليبية قال:

«لقد قصفوا المطار أربع مرات، سورية تشجعهم ليكتمل الحصار الذي فرضته على المناطق الوطنية بعد أن أغلقت موانئ: صيدا و صور و طرابلس، كنت في المطار وشاهدت جريمة قصفه البشعة، وضحاياها كانوا مدنيين أبرياء وبينهم أطفال».

---

(١) صحيفة الوطن الكويتية: ١١/ ٨/ ١٩٧٦.

- الملازم الأول طه حسين من القوات السودانية، قال:

«نحن سعداء إذ نشعر بمثل هذه الألفة بيننا وبين الجماهير. السوريون متورطون في المؤامرة وكل صاحب ضمير يعترف بهذا».

- الملازم الأول فتحي قال:

«حصار التجويع، ومنع رغيف الخبز، ومنع الأدوية جرائم بشعة ترتكب بحق الشعبين اللبناني و الفلسطيني».

- الملازم محمد خليل من القوات الليبية المرابطة على مشارف الهلالية (صيدا) قال:

«إنها مؤامرة تستهدف المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان، وكما نرى بأعيننا تفاصيل المعركة سياسياً وعسكرياً نقول: إن الذين ينفذونها كثيرون، وإن النظام السوري متورط فيها».

المبحث الثاني

انتصار... فاحتلال

استهدفت قوات النظام السوري القوات المشتركة منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه لبنان، وحققت انتصاراً ساحقاً بعد معارك شرسة، وهو أول انتصار يحرزه الجيش السوري في ظل النظام الطائفي، ونتيجة لهذا الانتصار فقد انتزع من القوات المشتركة: البقاع، وعكار، وطرابلس، والجبل، وصيدا، وأجزاء من بيروت ثم فرض الحصار عليها: براً، وبحراً، وجواً، وصادر المؤن والأسلحة التي كانت في طريقها إلى القوات المشتركة، وبعضها كان تبرعات عينية من الفلسطينيين في دول الخليج.

وإذاً: فالقوات الغازية دخلت لبنان من أجل القضاء على الثورة الفلسطينية وليس من أجل حمايتها كما زعمت في بيانات وخطب قادتها.

وإذا كان الموارنة والإسرائيليون ارتكبوا مجازر في بعض المخيمات، فإن القوات السورية شملت مجازرها جميع المخيمات والمدن الأرياف التي يستوطنها المسلمون السنة.

وإذا كان الموارنة والإسرائيليون قاتلوا أياماً أو شهوراً متقطعة، فالقوات السورية قاتلت ... وسحقت ... واضطهدت الفلسطينيين والمسلمين السنة طيلة ثلاثة عقود متتالية وليست متقطعة، ولا يزالون بعد إجبارهم على مغادرة لبنان في منتصف عام ٢٠٠٥ يرسلون لهم فرق الاغتيالات.

أرأيتم التقية الباطنية في أسوأ أشكالها؟! أرأيتم كيف زعموا أنهم دخلوا لحماية الثورة الفلسطينية من إسرائيل وحلفائها، في حين أن معاركهم الوحشية في سائر أرجاء لبنان تشهد بأنهم يقاتلون نيابة عن إسرائيل والموارنة وأمريكا، بل إن إسرائيل لو خاضت هذه المعركة لعجزت عجزاً ذريعاً على أن تحقق النجاح الذي حققته القوات السورية لأن الأمة ستجتمع كلمتها على قتال عدو لا يشك أحد بعداوته، أما سورية [النظام] فهي في أعين الكثيرين عربية تقدمية ثورية، ولهذا فقد تمكنت من شق الصفين: الفلسطيني واللبناني، وهذا درس للذين يريدون أن يفهموا الأحداث منذ خروج القوات السورية من لبنان في منتصف ٢٠٠٥ وحتى تاريخ كتابة هذه الأسطر.

أصبحت سورية في لبنان تشترك مع إسرائيل بحدود: بحرية، وجوية، وبرية، فهل من المعقول أن تتم هذه الأمور من خلال ترتيب كل طرف مع كيسنجر أو براون؟! هذا ليس معقولاً ولا مقبولاً، لأن كيسنجر ليس متفرغاً لهذا الملف، فلديه عشرات الملفات التي تشمل مختلف بلاد العالم، هذا من جهة. ومن جهة ثانية فهو مخطط وليس منفذاً، ولا صاحب عصاً سحرية ليرتب الأمور اليومية: جواً وبراً وبحراً، ومثله في ذلك مثل براون. والمعقول والمقبول أن يكون هناك تنسيق مباشر بين القوات السورية وإسرائيل، ويتم في منتهى السرية، وما يرشح من معلومات في هذا الصدد لا بد وأن يكون قليلاً.

مثال: تحدثنا فيما مضى عن مجزرة تل الزعتر، وهي من أسوأ المجازر التي ارتكبت

ضد المخيمات الفلسطينية في لبنان.. ومرَّ معنا أن الميليشيات المارونية هي التي ارتكبت هذه المجزرة، ولكن من الذي شدَّ عضدهم وقدم لهم مختلف أنواع الدعم؟!

قالت مجلة [لونوفيل أوبسرفاتور]:[١]

«إن مدينة جونية أصبحت الرئة التي يتنفس منها الإنعزاليون وإن البواخر الحربية السورية المرابطة تجاه الشواطئ اللبنانية تطبق حصاراً على الأسلحة والمواد التموينية المرسلة إلى القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية، بينما تسمح للبواخر التي تحمل شحنات الأسلحة إلى الإنعزاليين بالتوجه إلى جونية. وكانت الاتصالات الإسرائيلية الكتائبية عن طريق ميناء جونية غير خافية على القوات السورية، وذات مرة علم رئيس الوزراء ووزير الدفاع رشيد كرامي بوصول شحنة أسلحة من إسرائيل على متن باخرة، وطلب من الجيش وقوات الأمن مصادرة شحنة الأسلحة والباخرة، ولكنه عجز، ورفض قائد الجيش وكبار قادة الأمن أوامره، وبقيت الصحف اللبنانية أياماً تتحدث عن هذه المشكلة، وكأن القوات السورية المرابطة على بعد بضعة أيام من جونية لا يعنيها هذا الأمر».

هذه الأسلحة والمؤن والخبرات الإسرائيلية هي أكبر دعم للموارنة في حربهم، وفي حصار تل الزعتر بالذات. فبعد مذبحة صبرا وشاتيلا التي ارتكبها الموارنة والقوات الإسرائيلية عام ١٩٨٢ -وسيأتي الحديث عنها- هاجم شمعون بيريز بيغن وحزبه، فردَّ عليه الأخير مندداً بمشاركة حكومة حزب العمل الإسرائيلي

---

(١) مجلة [لونوفيل أوبسر فاتور] أواخر نيسان ١٩٧٦.

بمذبحة تل الزعتر عام ١٩٧٦، وكان ذلك في جلسة من جلسات الكنيست الإسرائيلي وطارت بها الصحف ووكالات الأنباء.

وإذا كان هذا هو دور إسرائيل في حصار تل الزعتر، فما دور القوات السورية؟!

قال صلاح خلف:

«كان بيار الجميل، وكميل شمعون يعرفان أننا لا نملك أية وسيلة فعالة لتحرير مخيم اللاجئين المطوق من التجمعين المجاورين له تطويقاً كاملاً بواسطة حزام مسيحي يسيطر عليه الانفصاليون. وكان لدينا في المطلق قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار، لكن الجيش السوري كان لا يزال برغم اتفاق وقف إطلاق النار الذي عقدناه معه قبل ذلك ببضعة أيام، يشل حركتنا في شمال لبنان وفي جنوبه معاً، بحيث أن سحب المقاومة لقواتها من المراكز التي تحتلها في مواجهة القوات السورية، كان سيشكل كارثة.

وما اكتفت القوات السورية بالحيلولة دون شن القوات الفلسطينية هجوماً مضاداً لفك الحصار عن المخيم، وإنما أوعزت لمنظمتها الصاعقة [وهي طابور خامس داخل الكيان الفلسطيني] فقامت داخل تل الزعتر بالتثبيط وبالتعاون مع الموارنة».[1]

وتفصيل ذلك مر معنا فيما مضى على لسان شهود المجزرة.

---

(١) [فلسطيني بلا هوية]. مصدر سابق.

وإذاً: فكل من إسرائيل وسورية شاركت في مجزرة تل الزعتر، ووقفتا إلى جانب الموارنة، فكيف تمّ ذلك؟ وهل من الممكن أن تجري مثل هذه الأمور الخطيرة والدقيقة من غير تنسيق مباشر بين الطرفين؟!

لسنا وحدنا الذين استغربنا التنسيق السوري الماروني الإسرائيلي، وكيف يجري في دوائر سرية مغلقة، ففي ١٥/ ٣/ ١٩٧٨ احتلت القوات الإسرائيلية جنوب لبنان، بعد مواجهة شرسة مع الفلسطينيين استمرت ثمانية أيام، قدموا خلالها تضحيات شهد بها العدو قبل الصديق، واستمرت القوات المحتلة ثلاثة شهور تعبث وتنهب وتقتل، ثمَّ أقامت دويلة سعد حداد... كل ذلك كان يجري وكأن القوات السورية ترابط في ماليزيا أو الأرجنتين، مع أنها على بعد بضعة أميال من القوات الإسرائيلية، ففي ٢٤/ ٤/ ١٩٧٨ كتبت مجلة [دير شبيغل الألمانية] مقالاً نختار منه الفقرة التالية:

«لماذا لم تتدخل القوات السورية المتواجدة في لبنان، عندما قامت إسرائيل في الشهر الماضي بمحاولة إبادة الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان. إذ إنه بالمقدار الذي حاز فيه الفدائيون على الاحترام لأنهم حاربوا... فقدت سورية من هيبتها في العالم... ».

ونقلت [دير شبيغل] عن دبلوماسي غربي في دمشق قوله:

«إنهم -أسد وطغمته- سياسيون واقعيون وعلى المرء ألا يتأثر بالدعاية والشعارات

التي ترفع في دمشق».[١]

أما مجلة [التايم] الأمريكية فقد نشرت في عددها الصادر بتاريخ ٨/ ٩/ ١٩٧٦ مقالاً تحت عنوان [إسرائيل تشارك في حرب لبنان سراً] ونختار منه فيما يلي الفقرات التالية:

«إن التفاهم غير المعلن بين إسرائيل والنظام السوري هو الذي مكَّن سورية من سحب قواتها العسكرية المتواجدة في الجبهة، ونقلها تدريجياً إلى لبنان وإلى الحدود مع العراق».

وعن زيارة بيريز وزير الدفاع الصهيوني إلى ميناء جونية قالت المجلة:

«إن بيريز وصل إلى ميناء جونية بسفينة شحن، أحاطت بها زوارق قاذفة للصواريخ، وتم نقله مع طاقم الحراسة من على ظهر السفينة بواسطة طائرة هيلوكبتر».

وهكذا أصبحت زيارة بيريز إلى لبنان من الأمور العادية، ورافقه إسحاق رابين رئيس الوزراء في زيارته الثالثة، وانتهت الاجتماعات مع قادة اليمين اللبناني [الموارنة] بتدخل إسرائيلي حاسم -وإن كان سريًّا- في الحرب الأهلية اللبنانية الدائرة رحاها منذ سبعة عشر شهراً، وعَمِلا بالاتفاق لتحرك إسرائيلي لإبادة قواعد الفدائيين في جنوب لبنان.

---

(١) مجلة [دير شبيغل الألمانية] ٢٤/ ٤/ ١٩٧٩.

وأضافت المجلة:

«إن هذه التدابير قد وضعت الإسرائيليين في الجانب الذي يقف فيه النظام السوري بعد تدخله الفعلي إلى جانب قوى اليمين، والذي يتحدد بالأساس، بتصفية الفدائيين الفلسطينيين، تمهيداً لفرض تسوية سلمية لصدام الشرق الأوسط، وتقوم إسرائيل بفرض حصار بحري على عدة موانئ لبنانية يسيطر عليها الوطنيون وخاصة ميناءي صيدا وصور لمنع وصول الأسلحة إلى الوطنيين والمقاومة. لقد استطاعت إسرائيل بعملها هذا، الحصول على سيطرة فعلية، على شريط من الأرض جنوب لبنان يمتد حتى نهر الليطاني».

وعن الدور السوري قالت المجلة:

«إن عدداً من أركان النظام السوري الحاكم حضروا الاجتماع الموسع الأخير، بين شمعون بيريز والقوى اليمينية في جونية، حيث شجع نجاح المباحثات بيريز على إمضاء ليلة على سفينة الشحن التي أقلته إلى لبنان».[1]

وقالت صحيفة [لومانيتيه] - ٢٤/ ٦/ ١٩٧٦ - الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي:

«إن النظام السوري يمارس لعبة مشبوهة، بمساعدة ودعم الإمبريالية

---

(١) مجلة [التايم]. ٨/ ٩/ ١٩٧٦.

الأمريكية».[١]

وقالت صحيفة [مجرهيرلت] الناطقة باسم حزب العمال الاشتراكي المجري في عددها ٥/ ١٠/ ١٩٧٦:

«إن الهجوم العسكري الواسع النطاق ضد الفلسطينيين أثار السخط والاستنكار العميقين في أوساط الإنسانية التقدمية، خاصة وأن منظمة التحرير الفلسطينية كانت قد أمرت بوقف إطلاق النار من جانب واحد على جميع جبهات القتال، بهدف التوصل إلى تسوية سياسية، وقد أثبتت منظمة التحرير بذلك مجدداً أنها مهتمة لوضع حد للنزاع.

لقد شنت القوات السورية المرابطة في لبنان في وقت واحد، مع الفصائل اليمينية هجوماً ضد الفلسطينيين في المنطقة الجبلية المحيطة بعاليه بشكل مستمر ومنذ أسبوع، ويظهر هذا أن الاستعمار والرجعية يحيكان مؤامرة واسعة النطاق ضد حركة المقاومة، والجنود السوريون المفروض فيهم مقاتلة الجيش الإسرائيلي، قد جرى دفعهم على الطريق السيّئ، وهذا العمل لا يلحق الضرر بلبنان، بل بسوريا نفسها أيضاً».[٢]

---

(١) مجلة [لومانيتيه]. ٢٤/ ٦/ ١٩٧٦.

(٢) صحيفة [مجرهيرلت]. ٥/ ١٠/ ١٩٧٦.

المبحث الثالث

الخطوط الحمراء

كان [ن.ب.س] ينكر الخطوط الحمراء، ويسخر ممَّن يردّدون هذه المقولة، ومن باب أولى فقد كان ينكر أيَّ ترتيب أو اتفاق بينه وبين الأمريكان، أما الإسرائيليون فكان يصرُّ -أي النظام السوري- على أنهم من ألد أعدائه، وهو لم يدخل لبنان إلا لحماية الثورة الفلسطينية من التحالف الإسرائيلي الماروني!! قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

فيما يلي من الأدلة ما يثبت أن الخطوط الحمراء حقيقة ليس فيها أي شك، وعندما كانت القوات السورية تتجاوز خطاً من هذه الخطوط كانت تتلقى ضربات رادعة من إسرائيل، فتصمت ولا ترد على النار بمثلها:

الدليل الأول:

في ٢٧/ ١/ ١٩٧٦ دخلت القوات السورية النبطية [وهي من الخطوط الحمراء] فصدر تحذير صهيوني شديد اللهجة، ولم تفلح الوساطة الأمريكية في إقناع إسرائيل بأن دخول النبطية كان بقصد تصفية جيب من جيوب المقاومة الفلسطينية، فاضطرت القوات السورية -وكان قوامها عشرين جندياً- إلى الخروج من النبطية.

وفي شهر فبراير من عام ١٩٧٧ دخل جنود من القوات السورية إلى النبطية مرة أخرى، وكانوا يطاردون فلولاً من المقاومة الفلسطينية وقوات الحركة الوطنية،

فاحتجت إسرائيل وتحركت الولايات المتحدة كعادتها، ولكن وساطتها باءت بالفشل فاضطرت القوات السورية إلى مغادرة جنوب لبنان.

قال مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في القدس ١٤/ ٢/ ١٩٧٧:

«إن المصادر الإسرائيلية قالت: إنّ انسحاب القوات السورية قد تمّ بالفعل، وإنّ إسرائيل ستبقى على صمتها رسمياً، حتّى تقلل إلى أدنى حد ممكن من المساس بمكانة سورية».[1]

هذه المرة لم تتلق القوات السورية ضربة من إسرائيل بسبب الوساطة الأمريكية ثم الانسحاب الفوري الذي تبعه صمت إسرائيلي لأنها -على حد قول هيئة الإذاعة البريطانية- تريد أن تقلل إلى أدنى حدٍ ممكن من المساس بمكانة سورية!!

الدليل الثاني:

من الخطوط الحمراء المتفق عليها استعمال الطيران لضرب أهداف أرضية وبخاصة إذا كانت مسيحية، لكن هذا الخط قد انتهك مرتين:

المرة الأولى: عام ١٩٨١-١٩٨٢ خلال حرب زحلة بين الجيش السوري والقوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل، واستخدام الجيش السوري سلاح الطيران، فقامت طائرات هيلوكبتر سورية بالإغارة على مراكز القوات اللبنانية في تحصينات جبل صنين المنيعة والتي كانت تربط زحلة بالمنطقة المسيحية في جبل

---

(١) مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في القدس ١٤/ ٢/ ١٩٧٧.

لبنان، فاعتبر مناحيم بيغن الإجراء السوري انتهاكاً للخطوط الحمر، وقامت طائرات إسرائيلية -في ٢٨/ ٤/ ١٩٨١- بإسقاط طائرتي هيلوكبتر سوريتين على التلال ما بين زحلة وصنين.

المرة الثانية: ١٣/ ١٠/ ١٩٩٠ في ضرب القصر الجمهوري في بعبدا لإزاحة العماد ميشال عون لصالح الرئيس إلياس هراوي، وقد تمَّ ذلك بموجب صفقة أمريكية سورية حيث تسمح الأولى للثانية باستخدام سلاح الجو مقابل اشتراك سورية في القوات المشتركة التي أخرجت القوات العراقية من الكويت، ولم تكن إسرائيل بعيدة عن عقد هذه الصفقة.

الدليل الثالث:

ومن الخطوط الحمراء ألا يكون لسورية الحق في نصب صواريخ أرض-جو في لبنان، لأنها ستعيق حتماً مهمة الطيران الإسرائيلي. سورية خرقت هذا الخط عندما أدخلت صواريخ أرض-جو إلى سهل البقاع في أوائل عام ١٩٨١، وكشف مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي أمام الكنيست أن العدد الإجمالي لبطاريات أرض-جو التي أدخلها السوريون إلى لبنان هو ١٤ بطارية [سام٢/ سام٣/ سام٦] وأنه أمر بتدميرها يوم ٣٠/ ٤/ ١٩٨١ ولم يسمح بذلك سوء الأحوال الجوية، وخاطب الرئيس الأسد بقوله:

«انسحب من الخط الأحمر وأخرج الصواريخ التي دفعتها إليها، وأعدها إلى الأماكن السابقة».

رفض حافظ الأسد الإنذار الإسرائيلي، وتطور الوضع باتجاه أزمة إقليمية بين سورية وإسرائيل، ودولية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية.. مما دعا الرئيس الأمريكي ريغان إلى إرسال مبعوثه فيليب حبيب إلى المنطقة لحل عقدة الصواريخ .. واستمرت الأمور بين أخذ ورد إلى أن شنت إسرائيل ما أسمته [حرب الجليل] حيث سارع الإسرائيليون بعد ثلاثة أيام على اندلاع القتال إلى تدمير بطاريات الصواريخ السورية المنصوبة في سهل البقاع ٩/ ٦/ ١٩٨٢ والتي تعد بالنسبة إليهم أخطر انتهاك للخطوط الحمراء.

تدمير الصواريخ بعد معركة جوية هزيلة انتهت بسقوط عدد من الطائرات السورية يُعدّ فضيحة لهذا النظام الذي لم يخض معركة واحدة مشرفة مع العدو الصهيوني، ولا يستأسد إلا على الشعوب التي من المفترض أن يحميها ضد العدو، وكعادته في التبجح، فقد صدر عن الجبهة الوطنية التقدمية في دمشق ١٩/ ٦/ ١٩٨٢ بياناً جاء فيه:

«إنّ ما جرى في لبنان ليس نهاية معاركنا وسنناضل لطرد الغزاة.. ولا يعقل أن نترك الجولان ونعلن الحرب على إسرائيل من لبنان».

وقال حافظ الأسد في ٢٠/ ٧/ ١٩٨٢:

«إن القوات السورية دخلت إلى لبنان لأداء مهمة محددة هي إنهاء الحرب الأهلية التي

فرقته خلال عامي ١٩٧٥و١٩٧٦ ولم تذهب لتحارب إسرائيل من هناك».[١]

لقد زعموا من قبل أنهم دخلوا لبنان لحماية الثورة الفلسطينية، وعندما جدَّ الجد فقد عجزوا عن حماية صواريخهم وطائراتهم، أما الثورة الفلسطينية، ومنظمة التحرير، والمخيمات الفلسطينية، فقد رأينا في الصفحات الماضية ما فيه كذب مزاعمهم وتهافت حججهم التي تتكرر في كل مرة يوجه العدو الإسرائيلي ضربة لقواتهم داخل سورية.

(١) تصريحات الأسد، والجبهة الوطنية التقدمية نشرتها مختلف وسائل الإعلام السورية، وما لم أذكر مصدره ورد في كتاب [يوميات الحرب اللبنانية] الجزء الثاني.

الفصل الرابع

شجب عام

شجب عام

استغرب الناس ما فعلته القوات السورية في لبنان، ومع مرور الزمن بقي في ذاكرتهم أن الموارنة والقوات الإسرائيلية ارتكبوا مجازر دامية في صبرا وشاتيلا، ونسوا أو تناسوا، ما فعلته القوات السورية وحلفاؤها من حركة أمل والطائفة التي تنتمي إليها، وحوادث التاريخ لا ينبغي أن تخضع للمزاجية أو للذاكرة، ولهذا سوف أسجل فيما يلي أهم مواقف الاحتجاج لبنانياً وعربياً:

شجب لبناني:

- قال ريمون إده -وهو أحد كبار زعماء الموارنة-:

«لقد عمد النظام السوري إلى إلهاء الشعب اللبناني، بالخراب والسرقة والنهب عن طريق منظمة الصاعقة خصوصاً، وبعد ذلك اعتقد قسم كبير من الشعب اللبناني أن الفلسطينيين هم الذين يقومون بتخريب لبنان، فهل من أجل ذلك أرسل حافظ أسد جنوده إلى لبنان؟

وإذا كان النظام السوري يريد القضاء على الثورة الفلسطينية من أجل أمريكا، فيجب أن تكون له الجرأة ليعترف بذلك، وإلا لماذا أرسل قواته إلى لبنان؟ كان يستطيع بهذه القوات أن يوقف القتال والدمار، ولكن على العكس من ذلك، فقد رأينا الصاعقة برئاسة زهير محسن بدأت بنسف الآبار الارتوازية في البقاع، ونهبت

مجلس النواب اللبناني».

«لقد أصبحت حدود إسرائيل بعد التدخل السوري تبتدئ من الليطاني، والدليل أن إسرائيل طلبت من أمريكا أن تتصل بحافظ الأسد لسحب عناصره ٢٠-٣٠ جندياً كانوا في النبطية البعيدة عن الليطاني، وعلى الفور سحبهم، هذا يعني أن أمريكا تؤثر على النظام السوري، وأن النظام السوري لا يعادي إسرائيل، والرئيس السوري نفسه قال في خطاب ٢٠ تموز من العام الماضي: إن أمريكا أيدت تدخل سورية المسلح في لبنان».[١]

وفي تصريح له قال:

«إن حافظ أسد في وضع يمكنه بالتأكيد من قيادة طغمة بهذه الخطورة، ولو لم يقل بأنه كان واحداً من منفذي المخطط الأمريكي الرامي إلى تقسيم لبنان، إن حافظ أسد كانت له مصلحة في تدبير معركة بين اللبنانيين والفلسطينيين ليدّعي بعد ذلك بأنه لعب دور المنقذ».[٢]

كمال جنبلاط الزعيم الدرزي، ورئيس جبهة القوى الوطنية التي كان حزب البعث اللبناني [الذي يتبع سورية] عضواً فيها، كان من أشد الزعماء اللبنانيين على [ن.ب.س]. قال في كتاب [هذه وصيتي]:

---

(١) مجلة [الدستور] الصادرة في باريس شهر حزيران من عام ١٩٧٧.

(٢) [لوموند] الفرنسية، العدد رقم ٢٢٢، ١٤/ ٧/ ١٩٧٧.

«لم نكن نعتقد بإمكانية خطر تدخل عسكري سوري، ربما لأننا لم نكن على علم تام بالعلاقات القائمة بين واشنطن ودمشق، ولا بضغوطات واشنطن على إسرائيل، ولم نكن نعلم أن الميثاق الشيطاني قد أبرم».

وقال في موضع آخر من وصيته:

«لقد عارض الأمريكيون والإسرائيليون في بادئ الأمر الاحتلال السوري المباشر للبنان، غير أنهم عادوا بعد ذلك، حين عرفوا بنوايا النظام السوري، وعزمه على الخلاص من استقلالية منظمة التحرير الفلسطينية واليسار اللبناني، عادوا وشجعوا المغامرة العسكرية».

وقال في موضع ثالث من وصيته:

«لقد أظهر حكام دمشق تسامحاً لا تمويه فيه، إزاء المجازر التي ارتكبها الانعزاليون، وكان العذر الذي تذرعوا به هو أنهم يريدون كسب هؤلاء للقضية العربية، في حين أن الحق هو أن التدخل العسكري السوري، كان يهدف إلى إخماد الفلسطينيين والحركة الوطنية واليسار اللبناني».[1]

- صائب سلام: وهو أكبر شخصية سنية في الميدان السياسي، وتولى رئاسة الوزارة مرات عديدة.

في ١٥/ ٦/ ١٩٧٦ عقد الرئيس صائب سلام مؤتمراً صحفياً وجَّه خلاله نداء

---

(١) ثلاثة مقاطع من كتاب كمال جنبلاط [هذه وصيتي].

إلى الملوك والرؤساء العرب بوساطة سفرائهم في بيروت طالباً القيام بعمل جدي حاسم وسريع لفك الحصار التمويني وسحب الجيش السوري وإنقاذ المقاومة الفلسطينية من الإبادة قبل فوات الأوان. وبعدما اعترف بأن اللبنانيين مسؤولون عن المحنة، قال:

«إن المؤامرة أكبر منهم ومن لبنان ومن المنطقة العربية كلها. واعتبر أن الحصار التمويني اللا إنساني واللا أخلاقي يهدف إلى إخضاع هذا البلد لمشيئة حكام دمشق والمتآمرين معهم».[1]

الشجب العربي:

وإليكم بعض الشواهد:

- في تصريح للرئيس الليبي معمر القذافي لجريدة الرأي العام الكويتية قال:

«ليبيا تقف إلى جانب المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وتعارض التدخل العسكري السوري في لبنان. لقد حذرنا سورية من تصرفها هذا، وإذا كانت سورية تريد السلام الآن على حساب الفلسطينيين وتريد تصفية المقاومة الفلسطينية فلا يمكننا أن نلزم الصمت، ونعتقد أن من الخيانة الوطنية محاولة تصفية المقاومة الفلسطينية، وإننا نأمل أن تعيد سورية النظر في موقفها. لقد حاولنا تعزيز الجبهة الشرقية، وكنا متفقين على أن ترفض سورية القرار ٢٤٢ و٣٣٨، وأن

---

(١) مؤتمر صحفي في ١٥/٦/١٩٧٦.

تدخل القوات العراقية مرتفعات الجولان، وأن تبدأ المعركة ضد إسرائيل، ولكننا فوجئنا بالتطورات التي حدثت في لبنان».[١]

- الرائد عبد السلام جلود رئيس الوزراء الليبي قام بدور الوسيط بين النظام السوري، والموارنة ومنظمة التحرير وحليفتها القوى الوطنية، وبذل جهوداً مضنية، لكنه عندما وصل إلى طريق مسدود عقد مؤتمراً صحفياً في [٢٩/ ٦/ ١٩٧٦] كان مما قاله فيه:

- إن المؤامرة دولية ويشترك فيها كل العرب، والمشكلة ليست لبنانية وإنما هي مؤامرة دولية.

- الجامعة العربية أخذت قرارات نظرية لا يمكن تطبيقها.

- تأخير انسحاب القوات السورية محاولة لتمييع الموقف فترة محدودة، يحرز فيها الانعزاليون نصراً عسكرياً.. والتدخل السوري والقرار المتعلق به وتطبيقه كان خطأ ونحن ضده.

- ٢٦/ ٦/ ١٩٧٦ في مؤتمر شعبي دعماً للمقاومة والحركة الوطنية في بغداد، هاجم الرئيس العراقي أحمد حسن البكر النظام السوري الذي اتبع لفترة طويلة سياسة ذات وجهين، حيث كان يرفع من جانب شعارات وطنية تحررية، ويشارك في الوقت نفسه مشاركة فعالة في مخططات التسوية.

---

(١) الرأي العام الكويتية ١٧/ ٦/ ١٩٧٦.

وأوضح أن سورية استهدفت من اجتياحها لبنان أمرين: السيطرة على لبنان وفقاً لمتطلبات المخطط الأمريكي للتسوية. وتصفية المقاومة، والإتيان بقيادات توافق على ذلك المخطط الذي يرمي إلى إيجاد صيغة معدلة لمشروع [المملكة العربية المتحدة]. واتهم الأطراف الانعزالية وحليفها النظام السوري بالإبقاء على الصراع في لبنان وتمييع قرارات الجامعة العربية».[١]

- في حديث للرئيس المصري أنور السادات قال:

«على السوريين أن ينسحبوا من لبنان وأن يفسحوا المجال أمام اللبنانيين ليقرروا مصيرهم بأنفسهم .. وسورية ستلقى في لبنان المصير نفسه الذي لاقته أمريكا في فيتنام، إذا هي استمرت في سياستها نحوه، وفي تجاهلها قرارات جامعة الدول العربية .. ونحن سندعم في شكل دائم منظمة التحرير الفلسطينية وسنعارض دائماً محاولات تصفية المقاومة الفلسطينية .. ».[٢]

- [٥/ ٦/ ١٩٧٦] ٢٦ نائباً كويتياً يطالبون بانسحاب القوات السورية من لبنان. وفي ١٠/ ٦/ ١٩٧٦ وجه مجلس الأمة الكويتي نداءً إلى حكومته وإلى الحكومات العربية الأخرى بشأن الأزمة اللبنانية، يحذر فيه من تكرار أيلول أسود جديد في لبنان.

---

(١) كلمة للرئيس العراقي في مؤتمر شعبي لشجب التدخل السوري في لبنان بتاريخ: ٢٦/ ٦/ ١٩٧٦.

(٢) صحيفة [اطلاعات] الإيرانية ١٢/ ٦/ ١٩٧٦.

- [٥/ ٦/ ١٩٧٦] الطلبة الفلسطينيون في السودان يحتلون السفارة السورية في الخرطوم لمدة ٢٤ ساعة.
- [٧/ ٦/ ١٩٧٦] حاصر الطلبة العرب السفارة السورية في براغ [تشيكوسلوفاكيا].
- [٨/ ٦/ ١٩٧٦] مظاهرات في الجزائر العاصمة أمام مبنى منظمة التحرير الفلسطينية احتجاجاً على التدخل السوري .. واعتصامات ومسيرات طلابية في كل من تونس ومدريد ولندن وباريس ونيويورك.
- [٩/ ٦/ ١٩٧٦] نابلس تضرب احتجاجاً على التدخل السوري في لبنان، وطلاب عرب يحتجزون السفير السوري في بروكسل. و٢٠٠ طالب يتظاهرون في بون. أما في بكين فقد اتخذت احتياطات أمن حول السفارة السورية خوفاً من أن يحتلها الطلاب العرب في العاصمة الصينية.
- [١٠/ ٦/ ١٩٧٦] اعتصام الطلبة العرب في مكتب الجامعة العربية في لندن لليوم الثالث على التوالي، وكذلك فقد احتل الطلبة العرب مكتب الملحق الثقافي السوري في فيينا احتجاجاً على سياسة سورية في لبنان.
- [١١/ ٦/ ١٩٧٦] مهرجان شعبي في طرابلس حضره العقيد معمر القذافي، وياسر عرفات يندد ويستنكر التدخل العسكري السوري في لبنان، والهجمات التي تتعرض لها المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، ويدعو جميع العرب للتصدي لمحاولات تصفية المقاومة، ودعا المجتمعون المقاومة إلى القتال بضراوة.

- في ١٣/ ٦/ ١٩٧٦ مجلس السلام العالمي يندد في بيان له بالتدخل العسكري السوري في لبنان، ويحذر من خطورة تدخل عسكري مباشر، خصوصاً من جانب الدول الإمبريالية التي لم تتمكن من تحقيق أهدافها.
- [١٣/ ٦/ ١٩٧٦] تشهد الضفة الغربية تظاهرات احتجاجاً على التدخل العسكري السوري في لبنان.. ورشق المتظاهرون منزل زهير محسن بالحجارة في طولكرم.. وأصدروا بيانات تدعو السكان إلى النضال ضد المؤامرة السورية التي تهدف إلى إقامة سورية الكبرى التي تضم لبنان والأردن والضفة الغربية.[١]

(١) ما لم يرد رقمه في هذا الهامش مأخوذ من كتاب [يوميات الحرب اللبنانية].

الفصل الخامس

عندما ترعى الذئاب الغنم

عندما ترعى الذئاب الغنم

- لقد شهد العالم -عربه وعجمه، مسلمه وكافره- المجازر التي ارتكبها [ن.ب.س] في لبنان عام ١٩٧٦، وكانت موضع شجبه واستنكاره.
- وشهد العالم [وبخاصة الشعب العربي] بالصوت والصورة، كيف كان جيش الغزاة الباطنيين أداة من أدوات أمريكا وإسرائيل، وتظافرت لديه الأدلة على أنه نفَّذ كل ما يريدون بطريقته الباطنية القرمطية التي يؤكد فيها عداوته لكل من أمريكا وإسرائيل، ويزعم أنه ضحَّى بجيشه من أجل حماية الثورة الفلسطينية. هذا في علنه وفي بيانات قادته، أمَّا في السر فهو ينفذ خطة وضعها كيسنجر وإسرائيل ولا يستطيع حتَّى تجاوز الخطوط الحمراء المرسومة له.
- وشهد العالم التفويض الذي منحته الأنظمة العربية للنظام الطائفي السوري في لبنان، وعندما وقعت المجزرة عقدوا مؤتمر قمة عربية، واتفقوا فيه على إنشاء قوات ردع عربية من بعض دول الجامعة، فكانت هذه القوات غطاء للقوات السورية، لأن عدد أفرادها لا يتجاوز المئات إلى جانب عدد القوات السورية الذي يبلغ حوالي ثلاثين ألفاً، وما لبثت قوات الردع أن انسحبت وتركت الساحة للغزاة الباطنيين. والأشد غرابة أن دول النفط كانت تقدم للنظام السوري مساعدات مجزية مقابل تغطية نفقات قواته في لبنان.

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال في فتواه المشهورة:

«أما استخدام مثل هؤلاء -السؤال عن النصيرية- في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب على الغنم. وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر».[١]

هذه الفتوى كانت جواباً لسؤال تلقاه الشيخ من مفتي الشافعية في عصره، أي في نهاية القرن السابع الهجري، وأفتى بمثل هذا أبو حامد الغزالي، وابن الجوزي، بل وهذا إجماع العالم في عصر ابن تيمية، والعصور التي سبقته، والتي تلته.

ومما يثير الدهشة والاستغراب أن عالماً من علمائهم برّر هذه الخيانة، فقال:

«لمّا كان لا بدّ للضعيف المظلوم من التوسل بالخيانة لكي يحافظ على حقوقه أو يستردها، وهذا أمر طبيعي يساق إليه كل إنسان .. كان العلويون كلما غصب السُّنيون أموالهم وحقوقهم يتوسلون بغدر السّنيين عند سنوح الفرصة».[٢]

وقد سنحت لهم الفرصة عندما غزا التتار بلاد المسلمين، وتكرر موقفهم عندما غزا الصليبيون بلاد الشام فيما سمي بالحروب الصليبية. وكان هذا هو مسلكهم في مختلف مراحل التاريخ.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

(٢) [تاريخ العلويين] لمؤلفه محمد الطويل ص(٤٠٧).

ومن تاريخنا المعاصر نذكر مثالين:

المثال الأول:

من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، وثيقة تحت رقم [٣٥٤٧] تاريخ [١٥/ ٦/ ١٩٣٦] وتتضمن هذه الوثيقة عريضة رفعها زعماء الطائفة النصيرية في سورية يطلبون فيها عدم إنهاء الانتداب الفرنسي لسورية. وهذا نصها:

«دولة ليون رئيس الحكومة الفرنسية

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من التضحيات الكبيرة في النفوس، هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم -السني- ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود الطيبين الذين لجؤوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونشروا على أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سورية.

إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن هذا الهدف الشريف، خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين.

ونحن الشعب العلوي -الذي مثّله الموقعون على هذه المذكرة- نستصرخ حكومة فرنسا ضماناً لحريته واستقلاله، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لا بدّ واجد لديهم سنداً قوياً لشعب علوي صديق قدَّم لفرنسا خدمات عظيمة».

كان أحد الموقعين على عريضة الخيانة سليمان الأسد الذي كان حفيده يفاخر به لأنه رفع من شأن العائلة المتواضعة، ولكن بعضلاته القوية وليس بعقله وحكمته.

والعريضة كانت عام ١٩٣٦ والحرب مستعرة بين الصهاينة والعرب، والموقعون عليها يعربون عن تعاطفهم مع اليهود الطيبين المسالمين -على حد قول الخونة- ويطالبون باستمرار انتداب الصليبيين الفرنسيين لسورية، وحافظ يعيد المآثر التي رباه جده عليها، ولكن في لبنان، وينفذ تعليمات الصليبيين: من أمريكان وموارنة ويهود... أرأيتم كيف يعيد تاريخهم نفسه؟!

المثال الثاني:

في ٢٠/ ٥/ ١٩٦٧ أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بتصريح لصحيفة [الثورة] الرسمية، قال فيه:

«إنّه لا بدّ على الأقل من إيجاد حدّ أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل تردها إلى صوابها. إنّ مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة، وتعيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان، إنّ الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإنّ القوات السورية المسلحة

أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان الإسرائيلي، وإنّما للمبادرة بعملية التحرير بالذات ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي. إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس، وإنّ معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أنّ أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة، وهناك إجماع في الجيش السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد، على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية».

وأضاف:

«إنّ سلاح الطيران السوري تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦ [يعني الانقلاب الذي أطاح بحزب البعث وقيادته التاريخية كميشيل عفلق، وصلاح البيطار، ومنيف الرزاز، وغيرهم] من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم وأفضلها تسلحاً، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب».[1]

يقول حفيد سليمان الأسد: إن جيش سورية قادر على هزيمة إسرائيل والأسطول السادس الأمريكي، بينما يقول التقرير العسكري الذي قدّمه الفريق علي علي عامر رئيس أركان القيادة العربية الموحدة لمؤتمر قمة الدار البيضاء:

---

(١) وثائق الخارجية الفرنسية تحت رقم [٣٥٤٧] تاريخ ١٥/ ٦/ ١٩٣٦ والموقعون على العريضة: محمد سليمان الأحمد/ محمود آغا حديد/ عزي آغا غواش/ سليمان المرشد/ محمد بك جنيد/ سليمان الأسد.

«إذا تحملت الدول العربية مسؤولياتها كاملة، فستصبح قواتنا معادلة لقوات إسرائيل خلال ثلاث سنوات، فإذا شئنا التفوق عليها لزمتنا ثلاث سنوات أخرى، لأن تعادل قواتنا لا يعني النصر حتماً، وذلك لأن التدريب الإسرائيلي متفوق على تدريب جيوشنا، وثمة عوامل عدة في صالح إسرائيل في كل معركة هي: وحدة الأرض، سهولة إدارة المعركة، أضف إلى ذلك وحدة القيادة، ولا ننسى أبداً وسائل الاتصال الجيدة، فلِتحشد إسرائيل جيوشها لا تحتاج إلى استقدام قواتها المسلحة من مسافة آلاف الكيلومترات».

زميل حافظ الأسد في الحزب والوزارة الدكتور سامي الجندي يقول في كتابه [كسرة خبز]:

«آرائي كلها دون استثناء كانت ضد الحرب، لم أخف أبداً أن الحكم يعد لهزيمة لا لاسترداد فلسطين. لم تكن هناك أية بادرة نصر، ولا أعني أنه كان يعد لهزيمته نفسه، وإنما لهزيمة العرب الآخرين كي يبقى الثوري الوحيد سيد المناخ الثوري العربي».[1]

ويقول رئيس وزراء السودان وقتئذٍ محمد أحمد محجوب:

«لم يكن أحد وخصوصاً في العالم العربي يتوقع الحرب أو يريد نشوبها حين نشبت، لا ريب أن الزعماء العرب قد اتفقوا بصورة واضحة على وجوب تجنب الحرب في

(١) صحيفة الثورة السورية، تاريخ ٢٠/ ٥/ ١٩٦٧.

ذلك الحين».

ويستغرب محجوب كيف تجاهل عبد الناصر قرارات قمة الدار البيضاء -وطلب بتحريض من السوريين- من الأمين العام للأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية من قطاع غزة، وشرم الشيخ، ثم عاد يقول -أي عبد الناصر-:

«نحن لا نواجه إسرائيل، بل أولئك الذين وراءها، ونواجه الغرب الذي خلق إسرائيل».

وينهي محجوب حديثه بقوله:

«كانت خطة عبد الناصر مناورة سياسية، وما كان يعتقد أن هذه المناورة ستؤدي إلى حرب فعلية».[1]

ثم عاد حفيد سليمان الأسد ليعلن سقوط القنيطرة قبل أن تسقط فعلاً، وقبل أن تقترب منها قوات الجيش الصهيوني، ففي بيان لحافظ أسد في ١٠/٦/١٩٦٧ قال:

«إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة، وبإمكانات لا تملكها غير دول كبرى، وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود

---

(١) كتاب [الديمقراطية في الميزان] لرئيس وزراء السودان الأسبق محمد أحمد محجوب.

جنودنا البواسل».[١]

قال سفير سورية في فرنسا الدكتور سامي الجندي في كتابه [كسرة خبز]:

«لست بحاجة إلى القول: إن سقوط القنيطرة قبل أن يحصل أمر يحار فيه كل تعليل تبنيه على حسن النية .. إنّ تداعي الأفكار البسيطة يربط بين عدم وقف إطلاق النار والحدود سليمة والإلحاح بل الاستغاثة لوقفه بعد أن توغل الجيش الإسرائيلي في الجولان ..فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة ووصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق، والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل .. قال لي الدكتور ماخوس [إبراهيم ماخوس وزير الخارجية وهو نصيري] فيما بعد إنها كانت خطة ماهرة لإرعاب العالم من أجل إنقاذ دمشق».

وخلص الجندي إلى القول في كتابه:

«إنها مؤامرة لتسليم الجولان إلى إسرائيل».[٢]

والمتآمرون من غير شك حزبه ورفاقه.

وما قاله الجندي أكدته أطراف عدة، منها من هو من داخل الحزب الحاكم، ومنها من هو في مقام المسؤولية في دول أو منظمات دولية، وقد جمعتُ هذه الأقوال

---

(١) ١٠/ ٦/ ١٩٦٧ أعلن اللواء حافظ الأسد سقوط القنيطرة قبل أن تسقط.

(٢) كتاب [كسرة خبز] سامي الجندي.

والوثائق في كتاب لي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٨٢ وأسميته [رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي].

أما حافظ الأسد وزير الدفاع فقد حُوكم محاكمة حزبية قررت إدانته وفصله من الجيش، ولكنَّ صلاح جديد وقف إلى جانبه، وأنقذه من هذه الورطة.

فكيف يتجاهل نفر من الناس حقائق التاريخ: قديمه وحديثه، ثم يعلقون الآمال العريضة على أحفاد قرمط وابن نصير، وهم من ضحاياه؟! وكيف يزعم هؤلاء بأن نظام دمشق هو النظام العربي الوحيد الذي يتصدى للمؤامرات الأمريكية-الصهيونية، ويحتضن المنظمات الجهادية هنا وهناك؟! ولماذا يقام النكير عليه إن تحالف مع إيران وحزب الله؟! وهل يراد من هذا الحلف إلا تحرير فلسطين؟!

وآخرون من بني جلدتنا يقولون: نحن معك في كثير ممّا تقول، ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب لفتح ملفات مغلقة، لأن سورية مستهدفة ومحاصرة، والمشكلة عندنا ليس النظام وإنما الوطن، والواجب يحتم علينا أن نقف صفاً واحداً: شعباً وحكومة بوجه المعتدي، وها نحن نرى ونسمع ما فعله الأمريكيون وحلفاؤهم في العراق، ولا نقبل أن يكون حالنا في شامنا مثل حال العراق وأهله.

وهؤلاء مخطئون من وجهين:

الوجه الأول: كما قلنا غير مرة: لو لم تكن هذه الطائفة في الحكم لجاء بها المستعمر لأنه لن يجد أحداً يخدم أهدافه التوسعية غيرها، أما وهي التي تأمر وتنهى فلن يفرط فيها، وإذا فعل فهذا يعني استبدال وجوه من أبناء الطائفة بوجوه أخرى.

الوجه الثاني: إذا افترضنا أن أمريكا وربيبتها إسرائيل يريدان إسقاط هذا النظام واحتلال شامنا، واستباحة بيضتنا، فسوف تفتح العصابة الحاكمة أبواب بلدنا للعدو والمحتل، بعد أن تتحدث من خلال أجهزة إعلامها عن معارك وهمية، وعن تراجعها إلى خط الدفاع الثاني، فالثالث. فإعلان سقوط القنيطرة قبل أن تسقط إستراتيجية ثابتة في سياسة هذا النظام، والذئب لا يؤتمن على الغنم.

وهكذا، فمخابرات النظام الباطني بفروعها المختلفة ستقدم كل ما لديها من معلومات تضر بالوطن والمواطنين للسيد الجديد، وعدد كبير من ضباط الجيش سيكونون نواة الجيش الذي سيكون بديلاً لهذا الجيش، وكما كان جيش الشرق عام ١٩٢١ الذي أنشأته فرنسا من أبناء الطوائف، وكذلك سيكون هذا الجيش الذي سينشئه الغزاة الجدد، أما الرئيس فإن لم يكن أسداً جديداً فسيكون نمراً أو ضبعاً، المهم أن يكون من الغابة نفسها!!

وعندما يريق الغزاة المفترضين دماء الأحرار الأبرياء، وينتهك أعراض المؤمنين، وينشر الفساد والإباحية والإلحاد .. وتبلغ قلوب الناس الحناجر لن تجد ساحات الشرف والجهاد إلا الشباب المؤمن الذي ينشد إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.. الشباب المؤمن الذي تصدى للنظام الطائفي المستبد وهو في أوج قوته وطغيانه، سيتصدى للغزاة المحتلين وأعوانهم من الخونة المارقين.

وأقرب مثال على ذلك العراق: لقد ولّى البعثيون على أدبارهم هلعاً وذعراً، وتقدم أحفاد الصفويين وأبناء عمومة النصيريين يقاتلون تحت راية الأمريكان

وحلفائهم، ويكشفون لهم الأسرار المخفية، وبقايا المواقع المنيعة التي يتحصن بها من لم يهرب من أفراد وضباط الجيش بعد أن خذلته قيادته .. ولم يجد العدو والمعتدي إلا الشباب المؤمن من العرب السنة الذين كان نظام البعث يضطهدهم ويطاردهم من مكان لآخر، وبعضهم ألجأته المطاردة إلى مغادرة بلده والرضى بالحياة الخشنة في هذا البلد أو ذاك .. عاد هؤلاء من غربتهم وانضمّوا لإخوانهم المجاهدين في مختلف مدن وأحياء العرب السنة دون سواهم .. وهؤلاء هم الذين رفعوا رؤوسنا عالياً، وهم الذين أسقوا الأمريكان كؤوس الحنظل، وحطموا غرورهم وجبروتهم وطغيانهم.

كانت أمريكا تعتقد بعد احتلالها لبغداد بهذه السهولة أن احتلال دمشق أو الرياض أو أي عاصمة عربية، ليست أكثر من نزهة ممتعة .. وصارت تتحدث عن الشرق الأوسط الجديد الذي ستصوغه كما تشاء، فأصبح همُّها الوحيد كيف ومتى تخرج من العراق؟! وهل تبقى أمريكا كما هي، أم سوف تتعرض لهزات وهزات؟! وهذا هو اليوم الذي ننتظره، ونسأل الله أن نشهده قريباً.

نعود إلى شباب العراق المؤمن. لقد أرادوا أن يكون جهادهم شرعياً ليس فيه أي غلو أو تنطع، ولهذا فقد ميزوا أنفسهم عمّن يُسمَّون بالقاعدة، واضطروا أحياناً إلى الوقوف بوجههم، فاكتسبوا بذلك احترام الناس وتقديرهم وبدأ يعترف بهم من كان يحذر منهم.

يا أهلنا في الشام، يقول المثل العربي: «في بيت أبيكم رجال»، ونِعم الرجال

الذين لا يقلون شجاعة وتضحية عن إخوانهم في العراق، فلا تخشوا تهديدات أمريكا أو إسرائيل، واخشَوا من هذا النظام الذي ابتلينا به، فهو أخطر علينا من أي مستعمر يهددنا، ومن ثم فهو لا يستطيع الحياة إلا بتحالفات مع المستعمرين.. ألا ترون كيف فتح أبواب بلدنا أمام الفرس، يبنون الحسينيات والمراكز في بلد خالٍ من المذهب الذي يسترون به من أجل إعادة نفوذ كسرى.. في بلدنا، يا أهلنا صار الفرس يشتمون أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية -رضي الله عنهم-، وينشرون التشيع ويغرون الناس بالأموال، بل وبالمتعة.

ومن ثمّ فهذا النظام الباطني الطائفي منذ استلام الحكم وحتى يومنا هذا، وهو يُؤزّم الأجواء مع الغرب والشرق من أجل أن يقول بعضنا: «بلادنا مهددة، ويجب أن نقف مع النظام ضد تهديدات العدو» وهو والله العدو، قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون: ٤].

الفصل السادس

أسد: ماذا يريد من لبنان؟

أسد: ماذا يريد من لبنان؟

أتحفنا مراسل وكالة الأنباء الألمانية [د.ب.أ] في سوريا بالخبر التالي:

«أفتى مفتي سوريا الشيخ أحمد بدر الدين حسون أن حضور القمة [في دمشق] واجب شرعي لأنها فرض عين على القادة العرب، ومن يتخلف عنها دون عذر من مرض أو خوف أن يقتل فهو آثم».

وأضاف مفتي سورية في خطبة صلاة الجمعة أمس في جامع الروضة في مدينة حلب شمال سوريا:

«أنه تم عرض تقسيم لبنان علينا مناصفة مع إسرائيل قبل عشرين عاماً، فرفضت سوريا ذلك».

وأكّد حسون:

«أنه لدى سوريا إثباتات على ذلك ووثائق».

مفتي سوريا أحمد بدر الدين حسون ليس عالماً ولا طالب علم [في مفهومها الشرعي]، وفضلاً عن ذلك فقد صدرت عنه تصريحات لا يقولها إلا شيعي قُح، ورغم ذلك فقد فرضه النظام الطائفي على أهل السنة ليكون مفتياً عاماً، مع أنه متهم بالتواطؤ على نشر التشيّع في سورية.

لستُ معنياً بفتواه في مسألة حضور القادة العرب قمة دمشق؛ لأن علماء الأزهر

وزملاءهم في عدد من البلدان العربية، قد نددوا بها وبينوا بطلانها، ولكني معنيّ بتصريحه الأخير، مع أنني أستغرب صدوره عن المفتي وليس عن رئاسة الجمهورية، أو وزارة الخارجية، أو وزارة الإعلام. لقد استخف الحكام الباطنيون بهذا المفتي فرضي لنفسه أن يكون سفيراً متجولاً يدافع عن النظام، ويحاضر في ألمانيا أو إيطاليا وغيرهما عن الإسلام الذي يريده أحفاد: قرمط، وابن نصير وابن العلقمي. وعلى أي حال فإن قول المفتي:

«عرض تقسيم لبنان علينا مناصفة مع إسرائيل قبل عشرين عاماً فرفضت سوريا ذلك».

صحيح على العموم، ولكنه لم يبيّن لنا من الذي عرض؟ ولم يكشف الإثباتات والوثائق على ذلك، لهذا فقد اخترت تصريح حسون ليكون مقدمة لما سأكتبه تحت عنوان: «أسد: ماذا يريد من لبنان؟»

الاتصالات المارونية السورية:

١) في [٢٨/ ٩/ ١٩٧٣] ألقى زعيم حزب الكتائب بيار الجميل بياناً في المؤتمر السنوي السادس للكتائب قال فيه:

«إننا نلاحظ بفرح وأمل أن الإخوان السوريين، فيما يؤكدون إيمانهم المزدوج بالوحدة والاشتراكية، يبدون في هذه الأيام انفتاحاً مهماً على ما كانوا يعتبرونه انعزالية ورجعية في تفكيرنا وسلوكنا، ولا ندري إذا كان الانفتاح السوري، استجابة لنداءاتنا المتكررة، أم هو حلقة استراتيجية عامة معدة من زمن».

٢) في [١/ ٦/ ١٩٧٤] أي في اليوم الثاني من توقيع فك الارتباط بين سورية وإسرائيل في سويسرا زار دمشق وزير الخارجية اللبناني فؤاد نفاع وعقد اجتماعاً مغلقاً مع الرئيس السوري حافظ الأسد وعن طبيعة هذه المحادثات قال الوزير اللبناني للصحفيين:

«لقد تشاورنا واطّلعنا ونسقنا لما هو منتظر، وكان الاتفاق بيننا تام، وما يرسم من تنسيق بين سورية ولبنان بعد الآن، لن نفصح عنه، وستظهر نتائج التنسيق في الوقت المناسب».[١]

٣) في [١٠/ ٩/ ١٩٧٤] عُقد لقاء بين ممثلين عن حزب الكتائب ووفد سوري يمثل حزب البعث، وكان الوفد برئاسة عاصم قانصوه رئيس فرع حزب البعث في لبنان. وقالت مصادر كتائبية:

«إن الاجتماع الذي عقد في بيت الكتائب المركزي هو حلقة في سلسلة اتصالات ترمي إلى إيجاد صيغة تعاون بين الطرفين، وعقد الاجتماع في الثانية والنصف ظهر أمس(٩/ ٩/ ١٩٧٤)، وقال بيار الجميل معلقاً على الاجتماع: إن السيد قانصوه صديق قديم، نتعاون معه لتقريب وجهات النظر بين حزبينا».[٢]

٤) وفي [١٠/ ٩/ ١٩٧٤] نشرت صحيفة الثورة السورية حديثاً لحافظ أسد مع نزيه البزري وزير الاقتصاد اللبناني كان مما جاء فيه:

---

(١) ١/ ٦/ ١٩٧٤، عن صحيفة الثورة السورية.

(٢) ١٠/ ٩/ ١٩٧٤، صحيفة الأنوار اللبنانية.

«في لبنان مؤامرات رفض موجهة ضد سوريا التي أُبلغت إلى رئيس الحكومة اللبناني أكثر من مرة، أجهزة الدولة السورية تعرف أنه يوجد في لبنان أوكار لمثل هذه المحاولات الفاشلة، وإن الصحف اللبنانية تنشر يومياً أكثر من قصة وخبر ملفق مختلق، وهذا لا يجوز ويجب وضع حدٍ له».[١]

٥) في [٧/ ١٢/ ١٩٧٥] زار بيار الجميل دمشق استجابة لدعوة تلقاها من الرئيس السوري حافظ الأسد، واستقبل في العاصمة السورية كما يستقبل رؤساء الدول، وصدر بيان كتائبي في نهاية الزيارة كان مما جاء فيه:

«يوجه حزب الكتائب تحية الشكر والإكبار لسيادة الرئيس حافظ أسد، على ما أحيط به رئيس الحزب والوفد المرافق له من حفاوة وتكريم، ويعتبر الحزب أن هذه الزيارة تكمل ما بديء به منذ سنتين، على صعيد توطيد العلاقات مع الشقيقة سوريا، ومن جهة أخرى يحز في نفس الحزب أن يرى عملاء السوء وزبانية الفتنة، يصرُّون على إبقاء البلاد في دوامة الفوضى والضياع والاقتتال، وقد عمدوا إلى افتعال حوادث إجرامية جديدة أدت إلى ردات فعل عشوائية غير مسؤولة».[٢]

٦) في [٤/ ١٢/ ١٩٧٦] قال رئيس فرع حزب البعث السوري في لبنان عاصم قانصوه: «إن حزب الكتائب أكثر وطنية من بعض الفئات التي تدعي ذلك».[٣]

---

(١) ١٠/ ٩/ ١٩٧٤ صحيفة الثورة السورية.

(٢) ٧/ ١٢/ ١٩٧٥ بيان صادر عن حزب الكتائب.

(٣) ٤/ ١٢/ ١٩٧٦ صحيفة السفير اللبنانية.

ومن الجدير بالذكر أن ثناء قانصوه على حزب الكتائب الذي نشرته صحيفة السفير اللبنانية في [٤/ ١٢/ ١٩٧٦] جاء بعد ثلاثة أشهر من بداية حصار الكتائب وحلفائهم الموارنة لمخيم تل الزعتر، وما رافق هذا الحصار من هتك للأعراض، وبقر لبطون الحوامل، وقتل للشيوخ وللأطفال الرضع، وهذا ما فصلنا فيه القول فيما مضى.

أما الفئات التي يفضل الكتائب عليها فهي:

الأحزاب الوطنية التي ترفع شعار القومية والوحدة العربية، والأحزاب اليسارية، ومنظمة التحرير الفلسطينية.

تعليق:

وإذاً: فإن الاتصالات المارونية النصيرية لم تبدأ في أوائل الشهر السادس من عام ١٩٧٦، وإنما بدأت منذ منتصف عام ١٩٧٣، وكانت مستغربة ومريبة.

لسنا وحدنا الذين استغربنا من هذه الاتصالات ومن توقيتها بالذات، لأنّ كل الذي نعرفه ويعرفه غيرنا أن حزب البعث حليف للأحزاب القومية واليسارية اللبنانية. وهذه الأحزاب كانت في حالة الاستعداد لحرب مع الكتائب وحلفائهم الموارنة. رئيس حزب الكتائب نفسه في بيانه [٢٨/ ٩/ ١٩٧٣] يستغرب من هذه الاتصالات من حزب ينادي بالوحدة والاشتراكية، كيف يمد يده لحزب كان ينعته بالانعزالية والرجعية ويعلق آمالاً عريضة على هذه الاتصالات.

أما أنها مريبة، فبيان وزير الخارجية اللبناني فؤاد نفاع بعد لقائه مع الأسد

[١/ ٦/ ١٩٧٤] يوحي بذلك لأنه قال:

«الاتفاق تام، ولن نفصح عما رسم ويرسم من تنسيق بين البلدين، وستظهر النتائج في الوقت المناسب».

وإذا كنا لا ننتظر من مثل هذه الاجتماعات إعلان حرب جديدة على إسرائيل، ولا الاتفاق على حلّ جذري لمأساة ومعاناة الفلسطينيين في مخيماتهم، وإذا كانت هذه المحادثات والاتفاقيات السرية جاءت بعد يوم واحد من توقيع نظام أسد لاتفاقية الذل والاستسلام للعدو الصهيوني التي أسموها [اتفاقية فصل القوات].

إذا كان الأمر كذلك، فقد رأينا ما وعد به وزير الخارجية اللبنانية في دخول القوات السورية بعد عامين إلى لبنان، وفي تنسيقها وتعاونها مع القوات المارونية في حرب الإبادة التي تعرضت لها المخيمات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا وتل الزعتر والكرنتينا، والضبية، وعين الباشا، وعين الحلوة، والميه ومية، وما تعرضت له من مدن وأحياء وقرى أهل السنة في لبنان.

دور كيسنجر:

لما كان وزير الخارجية الأمريكية لاعباً رئيساً إن لم يكن وحيداً، فلا بدّ لنا من عرض موقفه من لبنان ومستقبله:

قال كيسنجر:

«... إن سوريا وإسرائيل دخلتا لبنان لتمنعا وجود منظمة التحرير الفلسطينية

وتمنعا قوتها السياسية والعسكرية على الحدود السورية-الإسرائيلية. فعلى رغم الكراهية المتبادلة بين إسرائيل وسوريا، فإن وجودهما في لبنان يرمي إلى الغاية نفسها؛ منع منظمة التحرير الفلسطينية من السيطرة على لبنان.

هذه الحقيقة يجب أن تبقى في البال بنتائجها البعيدة المدى لأنها تفتح مجالات واسعة لديبلوماسية أميركية حيوية في الشرق الأوسط وعلى السياسة الأميركية أن تنظر في الأمور نظرة شاملة غير مجزأة فيما يتعلق بالقضايا الثلاث: أزمة لبنان، محادثات الحكم الذاتي للضفة وغزة، الخطر على المصالح الغربية في الخليج».[1]

وفي حديث لوزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كيسنجر إلى شبكة [اي.بي.سي ABC] التلفزيونية. قال:

« يبدو أننا نتحدث عن لبنان موَّحد وتحت سيطرة الحكومة التي ستشكل في بيروت. ونحن ندعم في الوقت نفسه الرئيس الجميل. ويبدو لي أنّ ذلك هدف غير قابل للتحقيق... في الشرق الأوسط، إن أفضل طريقة للعمل هي الطريقة المرحلية. وفي هذه المرحلة يبدو لي أن ما نستطيع التوصل إليه هو:

- سيطرة سوريا في الشمال الشرقي من لبنان.

- ونفوذ إسرائيل بارز في الإقليم الجنوبي.

---

(١) ١٦/ ٦/ ١٩٨٢ مقالة لكيسنجر في صحيفة الواشنطن بوست، ونشرتها أيضاً صحيفة انترناشيونال هيرالد تريبون، ونشرت في كتاب كيسنجر: محاضرات ومقالات، دار قتيبة، ١٩٨٨.

- وسيطرة مسيحية في المناطق حول بيروت وفي الوسط.

إن هذا يؤدي إلى فك الارتباط بين القوى المتنازعة ويوقف التنافس فيما بينها. ولا أدري إذا كان هذا ممكناً ولكن بالنسبة لي على الأقل يبدو هدفاً معقولاً».

«فأهل لبنان مُشبعون بالثقافة، وقد تمكنوا في هذه البقعة المضطربة من العالم، من صياغة مجتمع ديمقراطي مبني على الاحترام الصادق لدياناتهم الخاصة».

لكن الوضع تغّير في لبنان-على حد قول كيسنجر- ويعزو هذا التغير إلى الوجود الفلسطيني الذي هدم التوازن الدقيق للاستقرار في لبنان.. ثم يصب جام حقده اليهودي على هذا الشعب البائس، فيتذكر يوم اضطر اللبنانيون إلى عقد اجتماع معه في قاعدة رياق التي تقع على بعد ستين كيلومتراً من بيروت، لأن المطار على مقربة من مخيمين للاجئين الفلسطينيين، وفيهما قاذفات صاروخية فردية يمكن حملها على الكتف، ونقل عنه يومئذ قوله:

«ما هذه الدولة التي لا يقدر رئيسها أن يستقبلني في عاصمته».

وفي مأدبة غداء أقامها كيسنجر للدبلوماسيين الأجانب [٢٢/ ٧/ ١٩٧٦] قال: «إن المشكلة الأساسية في لبنان هي أن التوازن التقليدي بين المسيحيين والمسلمين قد بدأ ينهار بسبب تزايد النفوذ الفلسطيني».

إذاً، فوزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنري كيسنجر عمل على تقسيم لبنان بين سورية وإسرائيل، مع الاحتفاظ بكيان ماروني حول بيروت وفي الجبل، ولهذا

فقد نجح في أخذ موافقة الأمريكان وإسرائيل والموارنة على دخول القوات السورية إلى لبنان. وقالت سكرتيرة كيسنجر التي عملت في مكتبه حتى أواخر عام ١٩٧٤ في شهادة لها:

«إن كيسنجر هو صاحب مخطط تمزيق العالم العربي، وضرب المنطقة بعضها ببعض والعمل على استنزاف قواها الذاتية، والإعداد لتقسيم وحدتها الجغرافية».

وقال مالكوم كير الرئيس السابق للجامعة الأمريكية في بيروت:

«إن كيسنجر والذين يرون رأيه في الخارجية الأمريكية لا يقلقهم استمرار الشلل في لبنان».

ووصفه الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر بأنه بعيد عن الأخلاق والقيم.[١]

بعد فك الارتباط عام ١٩٧٤ أصبح نظام أسد عارياً، ويخشى من ظله أو حتى من هبوب الرياح أن تطيح به، فأعداؤه في الداخل والخارج كثر، ومن أشد هؤلاء الأعداء: النظام البعثي العراقي، ويليه نظام السادات شريكه في حرب ١٩٧٣. وأخطر من هذا وذاك لبنان، ففيه تصنع المؤامرات والانقلابات، ففي تصريح لحافظ أسد نشرته مجلة الحوادث اللبنانية [٢٧/ ٦/ ١٩٧٥] قال:

«الجميع يعرفون حرصنا على سلامة لبنان وأمنه، فمن الصعب الفصل بين أمن

---

(١) حديث لكيسنجر إلى شبكة [أي.بي.سي] التلفزيونية عن السفير اللبنانية ٦/ ١٢/ ١٩٨٣، وكتاب كيسنجر محاضرات ومقالات، دار قتيبة.

لبنان بمعناه الواسع وبين أمن سوريا، وبالتحديد فإن لبنان والبقاع بكامله ضروري للدفاع عن سوريا.. وارتباط أمن البلدين هو ارتباط وثيق».[١]

وقال وزير الإعلام السوري الأسبق أحمد إسكندر:

«إن أمن لبنان وأمن سوريا مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباط مصير، ولا يمكن أن نتساهل تجاه أي حدث أو موقف يستهدف الإخلال بأمن لبنان لأننا لا نريد أن نتساهل تجاه أي موقف يستهدف الإخلال بأمن سوريا مباشرة».[٢]

هذه التصريحات السورية تشير إلى أخطار متعددة تهدد النظام السوري:

منها: المعارضون لأسد من أبناء الطائفة، وفي مقدمتهم اللواء محمد عمران الذي لجأ إلى طرابلس، وتجمع حوله عدد كبير من النصيريين اللبنانيين والسوريين، وكان هدفه استرداد الحكم من أسد الذي غدر به وخانه.

ومنها: حزب البعث الحاكم في العراق، ومؤسسو الحزب في سوريا من أمثال: ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وأكرم الحوراني، وشبلي العيسمي، والأردني منيف الرزاز، وحزب البعث اللبناني الذي يرأسه النائب السابق عبد المجيد الطرابلسي.

ومنها: المعارضون السوريون من أمثال الضباط المسرّحين بعد انقلاب الثامن من آذار عام ١٩٦٣، والإسلاميون، وسائر المستقلين والسياسيون القدامى.

---

(١) ٢٧/ ٦/ ١٩٧٥ مجلة الحوادث اللبنانية.

(٢) ٣/ ٧/ ١٩٧٨ جريدة النهار.

ومنها: منظمة التحرير بفصائلها المختلفة وحلفاؤهم من أمثال الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، وسائر الأحزاب القومية واليسارية.

وإذا تجاوزنا الحديث عن هذه المخاطر التي تقض مضاجع أسد ونظامه، فالحرية التي تمارس في لبنان وفي طليعتها وسائل الإعلام لا تكاد تدع شيئاً مستوراً في سورية إلا وتكشفه، وما من حاكم متآمر ومستبد إلا ويخشى الحرية أشد الخشية... وإذاً: لا بدّ أن يكون لبنان مثل سورية، ولن يكون ذلك إلا إذا تمّ احتلال لبنان، وهذا الذي حدث، فسورية نفذت تعهدها لكيسنجر باستمرار التمديد الدوري لقوات الطوارئ الدولية في الجولان، والسير بطريق الحل السلمي، وأمريكا تعهدت لسوريا بعدم تحرك إسرائيل على الجبهة السورية تمكيناً لسوريا من تنفيذ عملياتها في لبنان، والتنسيق مع الموارنة بدأ في الأيام التي تلت حرب ١٩٧٣.. ومرَّ معنا فيما مضى قول وزير الدفاع الإسرائيلي شمعون بيريز:

«إن هدف إسرائيل هو نفس هدف دمشق بالنسبة للمسألة اللبنانية.. ويجب أن نمنع وقوع لبنان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية».

وعندما سيطرت القوات السورية على لبنان طاردت كل معارض لنظام دمشق، وكان من جرائمهم اغتيال الصحفي المشهور سليم اللوزي، وحرقوا قبل موته يده التي كان يكتب بها، ثم قتلوا كمال جنبلاط ، ثم توالت المجازر، والاغتيالات، ثم نسفوا عدداً من مكاتب دور الصحف اللبنانية. قال كمال جنبلاط عن هذه الظاهرة:

«إن فرض الرقابة على الصحف في لبنان يبرهن على وقوع نظام دمشق في أزمة، فقد كان لا بدّ من هذا الصمت المفروض أن يساعد في الإعداد لجنيف، وذلك بإجبار الفلسطينيين أيضاً على الصمت، وإكراههم على الإذعان والامتثال».[١]

وكما قلنا فيما مضى: لقد امتلأت سجون: القلعة، والشيخ حسن، والمزة، وتدمر، ثمّ السجون الجديدة كسجن: عذرة، وصيدنايا بالمعتقلين من اللبنانيين والمعارضين السوريين الذين التجؤوا إلى لبنان، وهرب بعض أصحاب الصحف بصحفهم إلى بريطانيا وفرنسا، ونهب الغزاة الجدد وفي طليعتهم منظمة الصاعقة الفلسطينية المصارف، وسرقوا المخازن والمستودعات والسيارات، وكان الجندي السوري الذي يقضي خدمته في لبنان يعود إلى بلده وقد أصبح ثرياً، فما بالك بالضباط والقادة الكبار، وفضلاً عن ذلك فلقد شقوا صفوف: السنة، والموارنة، والدروز، أما الشيعة فقد انحازوا بالكامل إلى من زعموا وأفتوا بأنهم من أبناء طائفتهم، واستثني منهم فئة قليلة لا تقدم ولا تؤخر في القرار الذي تتخذه الطائفة.

---

(١) كتاب [هذه وصيتي] كمال جنبلاط (ص:١٢٢).

سوريا الكبرى

حافظ أسد كان في العلن يدعي أنه بعثي عربي اشتراكي، وأنه من دعاة الوحدة العربية. وفي الباطن يدعو إلى إقامة دولة سورية الكبرى التي تشمل: سورية، والأردن، ولبنان، وفلسطين. وقد يظن البعض بأن وحدة سورية الكبرى طريق إلى الوحدة العربية، وهذا ليس صحيحاً؛ لأن الفكرة في أصلها تتعارض مع الوحدة العربية، كما أن حزب البعث يقف في الطرف المعادي للحزب القومي السوري.

والمطلعون على تاريخ بلاد الشام المعاصر يعلمون بأن معظم المنتسبين للحزب القومي السوري كانوا من أبناء الطائفة النصيرية، وهؤلاء انقلبوا بين عشية وضحاها إلى دعاة للقومية، وانضموا لحزب البعث العربي الاشتراكي.. وبعد ابتلاعهم للناصرية والبعثية والطائفيات الأخرى، عادوا إلى عقيدتهم الأولى: سورية الكبرى! ولكن هذه العودة كانت على مراحل ومن غير جعجعة وصراخ، ومن هذه المراحل ابتعادهم الفعلي عن العرب، ثم إعادة الاعتبار للحزب القومي السوري الاجتماعي في كل من سوريا ولبنان.

نشرت صحيفة [الفايننشال تايمز] البريطانية تحت عنوان [خطوة دمشق نحو سوريا الكبرى] ما يلي:

«تفيد الأنباء الواردة من واشنطن أن دمشق تقترح إقامة اتحاد سوريا الكبرى كحل محتمل للنزاع الدائر حالياً في الشرق الأوسط، وقد أكب المسؤولون في واشنطن

على دراسة هذه التقارير رغم اقتناعهم بأن ردود الفعل إزاء هذه الاقتراحات لن تجد فرصة كبيرة للظهور. وتقول التقارير المذكورة أن سوريا وضعت في اعتبارها إقامة اتحاد تتزعمه بنفسها، ويضم كلاً من سوريا، والأردن، والدولة الفلسطينية الجديدة في الضفة الغربية، وتساور الشكوك نفوس العاملين في وزارة الخارجية الأمريكية حول إمكانية وجود تفاهم بين هذه الجهات الثلاث إلى درجة تنفيذ مثل هذه الخطة بعد تجاوز المراحل الأولية لها».[1]

تعليق:

١) القائمون على إدارة [الفايننشال تايمز] لا بدّ وأنهم يعلمون بأنّ مشروع سوريا الكبرى في أصله كان بضاعة روجتها بريطانيا أثناء استعمارها للعراق وفلسطين والأردن، وكانت تعتمد في الدعاية لها على الأقليات العرقية أو الطائفية، والهدف من وراء هذه الدعوة هدم الخلافة الإسلامية أولاً، ثم تمزيق وحدة البلاد العربية حسب اتفاقهم مع فرنسا وغيرها، فيما سمي بمعاهدة [سايكس بيكو] وعندما مزّقوا وحدة البلاد العربية، راحوا يمزقون الدولة الواحدة إلى عدة دول.

الصورة التي كان كيسنجر يدعو إلى تحقيقها قيام كانتونات طائفية مجردة من السلاح، ومرتبطة بدولة مركزية، وهي التي يسميها أسد: سوريا الكبرى، ترتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وتعترف بإسرائيل.

---

(١) صحيفة [الفايننشال تايمز] البريطانية، ١٩/ ٢/ ١٩٧٦.

بعد زيارة الرئيس المصري أنور السادات للقدس المحتلة، أجرت مجلة المنار الصادرة بلندن مقابلة مع المستشرق الفرنسي الشهير [جاك بيرك] الذي يعمل أستاذاً في جامعة [جورج تاون] في واشنطن، وكان مما دعا إليه في هذه المقابلة: وحدة الهلال الخصيب، شريطة أن تكون هذه الوحدة قائمة على أساس الاشتراكية العربية، كالاشتراكية التي ينادي بها: كمال جنبلاط، وميشيل عفلق، والاشتراكية التي يطبقها بومدين في الجزائر.

وفي [٢٦/ ٣/ ١٩٧٨] طفح كيل أنور السادات ونفذ صبره مما كان حافظ أسد يوجهه إليه من سهام النقد والتجريح والتخوين، فأدلى بحديث طويل لصحيفة أكتوبر المصرية، وكان مما قاله:

«أقولها بمنتهى الوضوح: فقد أطلعني [سايروس فانس] وزير خارجية أمريكا في العام الماضي في [جانا كليس] على تعهد من [بيغن] رئيس وزراء إسرائيل بأن عليه التزاماً أخلاقياً بحماية المارون وبعض المسلمين [الشيعة] في جنوب لبنان.. أي إنّ هناك اتفاقاً بين كميل شمعون والأسد وبيغن على قيام الدولة المارونية بضمان إسرائيل. وقد قرأت بنفسي طلب الزعماء الموارنة شركاء كميل شمعون، وقرأت موافقة بيغن على ذلك».

وأضاف السادات:

«هل يجرؤ الرئيس البعثي الرفيق الأسد على أن يصارح مؤتمر القمة ببقية أهدافه في لبنان وغير لبنان؟ وهل في نية الرئيس البعثي الرفيق الأسد أن يقيم الدولة العلوية؟

ونحن نعلم أن حكم البعث السوري علوي أولاً، وبعثي ثانياً، وسوري ثالثاً.

وإذا قامت الدولة المارونية والدولة العلوية هل يجرؤ أحد مهما كان بعثياً مهووساً أن يقول لنا: إن هذا الذي حدث هو توحيد للصف العربي؟

ثم تحدث السادات عن مشروع سوريا الكبرى الذي يعمل له الأسد وطائفته، ويضم هذا المشروع، ما يبقى من لبنان بعد قيام الدويلة المارونية، والأردن، والدولة الفلسطينية... وربما كان هذا المشروع سبباً من أسباب ابتعاد الملك حسين عن سوريا».[١]

هذا المشروع لو تحقق ستكون قيادته مسؤولة، أمام كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وهذه المسؤولية تستلزم إسكات الصوت الفلسطيني، ومنعه من الجهاد من أجل تحرير أرضه. وهذا ما أشار إليه كمال جنبلاط في كتابه: [هذه وصيتي] قال:

«قال حافظ أسد لياسر عرفات: إنكم لا تمثلون فلسطين بأكثر مما نمثلها نحن. ولا تنسوا أمراً إنه ليس هناك شعب فلسطين، وليس هناك كيان فلسطيني، بل سوريا!! وأنتم جزء لا يتجزأ من الشعب السوري، وفلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا. وإذاً فإننا نحن -المسؤولين السوريين- الممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني».[٢]

---

(١) ٢٦/ ٣/ ١٩٧٨ حديث للرئيس المصري مع صحيفة أكتوبر المصرية.

(٢) [هذه وصيتي] لكمال جنبلاط.

ويؤكد كمال جنبلاط أن حديث أسد مع عرفات كان في نيسان من عام ١٩٧٦.

نعود إلى تصريح مفتي عام سوريا الذي فرضه النظام الطائفي على المسلمين في سوريا. قال المفتي بدر الدين حسون:

«... إنه تم عرض تقسيم لبنان علينا مناصفة مع إسرائيل قبل عشرين عاماً، فرفضت سوريا ذلك».

من الذي عرض نصف لبنان على سوريا مقابل أن يكون النصف الآخر لإسرائيل؟ أجبنا فيما مضى عن هذا السؤال الذي تهرب المفتي من الإجابة عليه، وقلنا: إنه كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، وهو من قبيل إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق، وقد أثبتت المقاومة في لبنان، وفي العراق أن مشاريع الدول المستعمرة مصيرها الفشل، ولا بدّ أن يخرج المحتل مدحوراً.

من جهة أخرى، فإن [ن.ب.س] كان يريد لبنان كله وليس نصفه، وهو أخبث من أن يحكم على نفسه بالموت.

ومن جهة ثالثة: كان هناك اتفاق حاسم بين الموارنة وإسرائيل على قيام دولة مارونية، وعندما تمّ انتخاب بشير الجميل نكث بوعده، لأن مثل هذه الدولة لا يمكن أن تعيش بسلام وأمن في هذا المحيط العربي، لا سيما وأن مصير إسرائيل رغم دعم الدول الكبرى محفوف بالمخاطر، ولهذا كان لا بدّ للنظام الطائفي في سوريا أن يرفض هذا العرض.

٢) قائد القوات المارونية التي اجتاحت مخيمي صبرا وشاتيلا، وارتكب المجازر التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية هو إيلي حبيقة، وهو صاحب شعار: «أبيدوهم ونظفوا المخيمات».. وهو أول من انتدبته القوات المارونية ليكون منسقاً بينها وبين الإسرائيليين، وكان موضع ثقة المخابرات الإسرائيلية كما أنه موضع ثقة الجنرال شارون، وفضلاً عن ذلك فقد كان قاطع طريق، ولا يتردد في ارتكاب أي عمل مشين.

بداية صلة المجرم إيلي حبيقة مع النظام السوري، وكما يقول مرافقه روبير حاتم، كان في عام ١٩٨١ بواسطة اللواء سامي الخطيب، ومن الشخصيات السورية التي كان يلتقي بها: رفعت الأسد وجميل الأسد ثم عبد الحليم خدام، وليس صحيحاً أن بداية هذه اللقاءات كانت في عام ١٩٨٥.

يقول الزعيم الماروني ريمون إده الذي نأى بنفسه عن الحرب الأهلية، وغادر لبنان ليقضي بقية عمره لاجئاً في فرنسا:

«كيف يمكن لإيلي حبيقة أن يكون عميلاً مخلصاً لإسرائيل، ثم يتعاون مع السوريين؟ كيف يمكن أن يكون مخلصاً للبنان؟ كيف يستطيع أن يعارض أمراً صادراً من دمشق؟».

هذا المجرم السفاح أصبح ابن سورية المدلل، وأصبح في نظرها يمثل الموارنة كلهم، واختزلت لبنان بثلاثة أشخاص هم: نبيه بري، ووليد جنبلاط، وإيلي حبيقة، أي شيعي، ودرزي، وماروني، والسنة لا وجود لهم في نظام يهيمن عليه

حافظ أسد، لكن الموارنة بقوة تنظيمهم أسقطوا هذا الخيار وطردوا إيلي حبيقة، فالتجأ لدمشق التي استمرت في دعمه وتأييده بل وتوزيره بعد انتهاء الحرب الأهلية، فهل كان ذلك كله مكافأة له على المجزرة التي ارتكبها في صبرا وشاتيلا؟!

الفهرس

المقدمة ٧

توطئة

المخيمات الفلسطينية في لبنان ١٩

معاناة الفلسطينيين ٢٨

الباب الأول

الموارنة والمخيمات الفلسطينية

الفصل الأول: مجازر عام ١٩٧٦

الموقف الماروني من المخيمات ٤٥

رواية صلاح خلف ٤٩

شهود المجزرة ٦٢

أولاً: شهادات المقاتلين ٦٢

ثانياً: شهادات الجهاز الطبي والجرحى ٧٠

ثالثاً: شهادات أمهات الشهداء ٧٥

الفصل الثاني: مجازر عام ١٩٨٢

المبحث الأول: الاجتياح الإسرائيلي للبنان ٧٩

المبحث الثاني: مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ ..... ٩٥

اغتيال بشير الجميل ٩٥

شهود المجزرة كما ترويها مجلة اليوم السابع ٩٧
أشعر بالخجل لأني يهودي بقلم يوسي ميلمان ١٠٨
حول مجزرة صبرا وشاتيلا تحقيق للصحفي أمنون كابليوك ١١٢
تحقيق حول المجزرة ١٢٢
تغطية روبرت فيسك لأخبار المجزرة ١٣٠
من روبرت فيسك؟ ١٣٠
مجزرة صيدا ١٣٢
مجزرة بيروت ١٣٣
الإرهابيون ١٣٤

الباب الثاني

الاحتلال السوري للبنان وأبعاده

الفصل الأول: التدخل السوري في لبنان

المبحث الأول: تصريحات واضحة الدلالة ١٧١
التصريحات الإسرائيلية ١٧١
التصريحات الأمريكية ١٧٣
التصريحات المارونية ١٧٦
المبحث الثاني: كيف تغيرت المواقف؟! ١٧٨
المبحث الثالث: السياسة الباطنية المحيرة ١٨٤

الفصل الثاني: باتريك سيل يكشف المخفي

باتريك سيل يكشف المخفي ١٩٣

تهديدات من جنبلاط وعرفات ١٩٨
تعليق ٢٠٩

الفصل الثالث

المبحث الأول: سير المعارك السورية ٢١٣
المبحث الثاني: انتصار .. فاحتلال ٢٢١
المبحث الثالث: الخطوط الحمراء ٢٢٩

الفصل الرابع: شجب عام

شجب عام ٢٣٧
شجب لبناني ٢٣٧
الشجب العربي ٢٤٠

الفصل الخامس: عندما ترعى الذئاب الغنم

عندما ترعى الذئاب الغنم ٢٤٧

الفصل السادس: أسد ماذا يريد من لبنان

أسد ماذا يريد من لبنان ٢٦١
الاتصالات المارونية السورية ٢٦٢
تعليق ٢٦٥
دور كيسنجر ٢٦٦
سوريا الكبرى ٢٧٣
تعليق ٢٧٤
الفهرس ٢٨١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١١٥٤٠ / ٢٠١٢م